التربية العربية فى العصر الجاهلى

د. سعيد اسماعيل على
أستاذ أصول التربية بكلية التربية
جامعة عين شمس

القاهرة
١٩٩٦

عالم الكتب
٣٨ ش عبد الخالق ثروت - القاهرة

الفهرس

المقدمة

لم تكن هذه الدراسة مقصودة لذاتها، بل ولم يدر بخلدى أن أكتب فى يوم من الأيام عن العصر الجاهلى، صحيح أننى قد بدأت أهتم بالدراسات التاريخية منذ حصولى على درجة الدكتوراة فى تطور الفكر التربوى فى مصر، إلا أن اهتمامى بهذا اللون من الدراسات انحصر - تقريبا - فى تاريخ مصر على وجه العموم، وتاريخها الحديث والمعاصر على وجه الخصوص. ولكن حدث أن بدأت فى إعداد دراسة عن تاريخ التربية الإسلامية، وفى أثناء عملية الإعداد هذه، شعرت بضرورة أن تبدأ هذه الدراسة بإعطاء صورة موجزة عن الفترة السابقة لظهور الإسلام، ومن ثم بدأت أقلب بين صفحات الكتب والمراجع بحثا عن هذا الموضوع، فإذا به يستهوينى ويستأثر باهتمامى، وأغرق فيه لأننى، وأكف يدى- إلى حين - عن الموضوع الأصلى، وأجد نفسى أمام رغبة ملحة فى أن يستقل البحث بدراسة العصر الجاهلى لا أن يكون مجرد صفحات قليلة تمهد لكتاب!

والحق أنها لم تكن مجرد رغبة، وإنما هى(ضرورة) تحتمها عوامل وأسباب وظروف (موضوعية) يمكن الإشارة إليها فيما يلى:

أولا: إذا كنا نريد أن نقوم بدراسة جادة عن تطور التربية الإسلامية، فإن مثل هذه الدراسة لانهدف بها مجرد الرصد والتأريخ، وإنما نهدف بها أن تملأ قلب قارئها وعقله بالحب والتقدير والفخر للعقيدة الإسلامية التى استطاعت أن تكتل الإمكانات البشرية فى المنطقة العربية وتربطها فى عقد واحد زينت به صدر البشرية بأن فجرت على هذه الأرض حضارة عريقة زاهية قدمت للإنسانية أشهى ما تمنت من ثمار وألبستها أحلى ماحلمت به من حلل.

بيد أن هذا الحب وذلك التقدير والاعجاب، يمكن أن يرسخ أكثر، إذا وفرنا بين يدى القارىء صورة أخرى للتربية فى الفترة السابقة على ظهور الإسلام، إذ أن مثل هذه الصورة هى التى توضح مقدار التغير ونوعيته، وكيف أنه كان تغيرا ثوريا بكل ما تحمله هذه الصفة من معانى الجذرية والشمول والسرعة حتى لكأن الناس بالفعل قد خلقوا من جديد، وبذلك يتحقق صدق القول بأنه (بأضدادها تتمايز الأشياء)!!

ثانيا: رغم قلة الدراسات الخاصة بهذه الفترة، إلا أن هناك بالفعل جهودا كبيرة لاستكشاف معالمها والكشف عن غوامضها فى مجالات متعددة وخاصة فى مجالها الأدبى والعقائدى.

وكمال الصورة يقتضى أن نبحث كذلك عن الجانب التربوى خاصة وأنه لم يدرس من قبل إلا على استحياء شديد، وفى سرعة خاطفة بحيث كان يحظى بركن متواضع فى أى دراسة عن تاريخ العرب قبل الإسلام إلا إذا استثنينا دراسة الدكتور جواد على بطبيعة الحال.

هذا من ناحية تاريخ العرب قبل الإسلام، والأمر أدهى وأمر فى الدراسات الخاصة بتاريخ التربية على وجه العموم، فدراسة التربية اليونانية والرومانية هى التى تحظى بنصيب الأسد فى دراسة العصور القديمة، ثم بدأ الاهتمام رويدا رويدا بالتربية المصرية القديمة، أما التربية الشرقية على وجه العموم فى هذه العصور، فلم تحفل بالعناية اللازمة، وإذا ظفرت منها، اقتصرت على التربية الصينية والفارسية والهندية، وأهملت التربية العربية إهمالا مشينا.

وقد يكون هذا مفهوما أن يحدث من الباحثين الأجانب، أما أن تظل بحوثنا خالية من هذا المجال، فهوعيب يجب أن يزال.

ثالثا: تعد هذه الفترة – كما ستبين الدراسة – من أكثر الفترات غموضا وصعوبة، والمقدم على دراستها، يتجه إلى طريق وعر ومسالك

شائكة. وإذا كان البعض قد يتخذ من هذا ذريعة للإحجام عن مثل هذه الدراسة، فالعكس صحيح بالنسبة لنا، فلم نقدم عليها إلا رغبة فى اقتحام المجهول وميلا للسير فى تلك الدروب المظلمة. وليست المسألة مجرد (عنترية) نريد أن نجهر بها، ولكنا نتساءل ماقيمة أى بحث علمى إن لم يكن كشفا عن مجهول واقتحاما لصعب؟ أننى هنا أردد قول (لسنج): لو أن الله وضع الحقائق كلها فى يمينه، ووضع فى يساره شوقنا المستمر إليها وإن أخطأناها دائما، ثم خيرنى لما ترددت فى اختيار ما بيساره قائلا "اللهم رحمتك! إن الحق الخالص لك وحدك!

رابعا: أن معظم الجهود التى بذلت حتى الآن للكشف عن معالم التاريخ العربى القديم، قام بها باحثون أجانب لابد وأن نحنى لهم الرؤس إعجابا وتقديرا واحتراما، فقد كانوا - أشبه بذلك الشخص الذى قال عنه فولتير أنه "كالأعمى الذى يبحث فى غرفة مظلمة عن قبعة سوداء لاوجود لها"!! فكم تجشموا من صعاب وعانوا من أهوال فى سبيل البحث فى هذه الفترة، ولعل هذا يجعلنا نتساءل: أليس أبناء المنطقة أولى ببذل المجهود فى هذا المضمار؟ أننا كثيرا مانرفع أصواتنا صائحين مستنكرين: كيف يستأثر الأجانب بخيرات بلادنا وأنه لابد أن يكون لنا نحن الحق فى التمتع بها، فلماذا نقصر هذا الصياح تجاه (الثمار) و(الخيرات)، ولا نرفعه أيضا تجاه (البحث) و(الجهد) و(محاولات الكشف)؟

ثم أن هذه الدراسات وهذه الجهود التى بذلها العلماء الأجانب على عظمتها تكون - وهذا مجرد احتمال وفرض، يحتاج إلى التحقيق - أكثر توفيقا لو قمنا نحن بها إذا تسلحنا بنفس الأسلحة العلمية التى تسلحوا بها، كالدقة فى الملاحظة والثقافة الواسعة، والصبر والقدرة على إدراك العلاقات والمهارة فى التحليل والتصنيف والتفسير والقدرة على الاستدلال والاستنباط وغير ذلك من مكونات الباحث العلمى،

وذلك لأن (ابن المنطقة) يكون أقدر على استكناه (روح) الموضوعات المبحوثة، ومعايشتها وفهم لغتها.

خامسا: طالما قرأنا وسمعنا ونحن ندرس بمدارسنا المصرية عن أسماء شخصيات جاهلية وقبائل ومواقع كونت فى أعماق مشاعرنا أحاسيس خاصة غامضة تجاه هذا العصر ورسمت صورة خيالية عنه، حتى إذا أتيحت للباحث الظروف أن يتواجد فى شبه الجزيرة العربية، شعر بذهبية هذه الفرصة. فرصة التواجد على مسرح الأحداث كى يستقرئها ويستنشق عبيرها إذ مما لا شك فيه أن دراسة أى موضوع فى موقعه، تكون أنسب وأوفق، فكأن الباحث منا مثل (وكيل النيابة)، عند ما يريد التحقيق فى (حادث) ما، لابد له من معاينة (أرض العملية) و(واقعها).

سادسا: الهدف العام لكل دراسة تاريخية ولسنا فى مجال يسمح لنا بالحديث فىهذا الجانب، فهو متوفر والحمد لله فى كتب البحث التاريخى، فلا داعى للتكرار.

الفصل الأول

جوانب منهجية

أولا: مشكلات (التأريخ) للتربية الجاهلية

يذهب البعض إلى أن تاريخ التربية لم يبدأ بظهور الإسلام، معتمدين فى هذا الرأى على أن العرب كانوا مجموعات متناثرة من القبائل وأنهم كانوا أجلافا يستحيل عليهم أن ينتجوا شيئا ذا بال يستحق أن يؤرخ له! ومن العجيب حقا أن يحمل لواء هذا الرأى أستاذ معروف فى الدراسات السامية، وهو (رينان) إذ كتب فى هذا الشأن يقول:

"لا مكان لبلاد العرب فى تاريخ العالم السياسى والثقافى والدينى قبل ذلك الانقلاب المفاجئ الخارق للعادة الذى صار به العرب أمة فاتحة مبدعة. ولم يكن لجزيرة العرب شأن فى القرون الأولى من الميلاد حين كانت غارقة فى دياجير ما قبل التاريخ، ولم يظهر بأسها وبسالتها إلا بعد القرن السادس من الميلاد"[١].

ويتصدى أستاذ آخر من نفس الأمة الفرنسية التى منها (رينان) ألا وهو (جوستاف لوبون) لهذا الرأى واصفا إياه بالفساد، ويستند فى ذلك إلى حجة منطقية لا يستطيع منصف أن يتغاضى عن معقوليتها، وهى أنه إذا أمكن ظهور حضارة أمة ولغتها فجأة على مسرح التاريخ، فإن هذا لا يكون إلا نتيجة نضج بطئ؛ فلا يتم تطور الأشخاص والأمم والنظم إلا بالتدريج، وإذا ما ظهرت أمة، ذات حضارة راقية على مسرح التاريخ، قلنا أن هذه الحضارة ثمرة ماضى طويل وإذا كنا نجهل هذا التاريخ الآن، فلا يعنى هذا أنه غير موجود[٢].

ولم ينشأ وهم الناس فى همجية العرب - هكذا- قبل ظهور محمد ﷺ عن سكوت التاريخ فقط، بل نشأ أيضا عن عدم التفريق بين أهل البدو وأهل الحضر من العرب.

والأعراب، قبل النبى وبعده، أجلاف كأجلاف الأمم الأخرى الذين لم يكن لهم تاريخ ولا حضارة، وليس الأعراب غير فرع من فرعى الأرومة العربية، فيوجد بجانبهم العرب المتحضرون المقيمون بالمدن والماهرون فى أمور الزراعة، ويسهل علينا أن نثبت وجود حضارة عظيمة لهؤلاء المتحضرين من العرب، وإن كنا لا نعرف تفاصيلها.

ولم يكن التاريخ صامتا إزاء ثقافة العرب القديمة صمته إزاء الحضارات الأخرى التى رفع العلم الحديث عنها التراب، ولو كان التاريخ صامتا إزاء حضارة العرب لقطعنا، مع ذلك، بوجودها قبل ظهور محمد ﷺ بزمن طويل، ويكفى لتمثيلها أن نذكر أنه كان للعرب قبل ظهور محمد ﷺ أدب ناضج ولغة راقية، وأنهم كانوا ذوى صلات تجارية بأرقى حضارات أمم العالم منذ القديم، فاستطاعوا فى أقل من مائة سنة أن يقيموا حضارة من أنضر الحضارات التى عرفها التاريخ.

والحق أن الآداب واللغة من الأمور التى لا تأتى عفوا، وهى تتخذ دليلا على ماض طويل، وينشأ عن اتصال أمة بأرقى الأمم اقتباسها لما عند هذه الأمم الراقية من التمدن، إذا كانت أهلا بذلك. وقد أثبت العرب أنهم أهل للاقتباس، ولا ريب فى أن العرب الذين استطاعوا فى أقل من قرن أن يقيموا دولة عظيمة ويبدعوا حضارة عالمية جديدة، من ذوى القرائح التى لا تتم إلا بتوالى الوراثة وبثقافة سابقة مستمرة، وبالعرب، لا بأصحاب الجلود الحمر أو الاستراليين، أنشأ خلفاء محمد ﷺ تلك المدن الزاخرة التى ظللت ثمانية قرون هى مراكز للعلوم والآداب والفنون فى آسيا[٢].

وإذا كنا نرى البحوث العلمية قد أخذت طابع الجدية عندما نتكلم عن مدنيات ما قبل التاريخ فى العراق، وفى سوريا، وفى مصر، فها نحن أولا نرى كثيرا من البحوث الجدية تناولت التاريخ القديم فى جنوب الجزيرة وشرقيها مستضيئة بما كشفته حفريات الأثريين فى اليمن، وبما عثر عليه الرواد فى (نجد) و(العراق) – وهى الأرض الممتدة على الخليج العربى مثل تهامة الممتدة على البحر الأحمر – من أثار الإنسان فى عصره الحجرى، وما عثروا عليه فى (عمان) من آثار الحضارة فى العصر النحاسى، وما عثروا عليه فى (وادى القرى) من آثار القصور التى شيدها قوم عاد فى كل ربع ونحتها قوم ثمود فى بطون الجبال فى عصور النحت والبناء، فلقد ذكر بعض الباحثين: "إن اكتشاف (دوثى) بعض الأدوات المتخلفة من العصر الحجرى الجديد فى أقصى شمالى بلاد العرب، واكتشاف (برترام توبس) لأخرى غيرها من ذلك العصر نفسه فى الجنوب يدل على أن وجود الإنسان ببلاد العرب منذ عهد متقدم جدا، وإن كان لا يعلم حتى الآن متى وجد؟ وما مقدار المساحة التى استوطنها؟ وما هو نوع الحضارة التى أنشأها؟"[٤].

وينقل ديورانت عن (شوينفرت) إشارته إلى تلك الحقيقة الطريفة العظيمة الخطر، وهى أن الشعير والذرة الرفيعة والقمح، وتأنيس الماشية والماعز والضأن، وإن ظهرت كلها فى مصر وبلاد ما بين النهرين من أقدم العهود المدونة، لا توجد فى حالتها البرية الطبيعية فى مصر بل فى بلاد آسيا الغربية وبخاصة فى بلاد اليمن وبلاد العرب القديمة. وهو يستدل من هذا على أن الحضارة – وهى هنا زراعة الحبوب، واستخدام الحيوانات المستأنسة – قد ظهرت فى العهود القديمة غير المدونة فى بلاد العرب، ثم انتشرت منها فى صورة (مثلث ثقافى) إلى ما بين النهرين (سومر، وبابل وآشور) وإلى مصر. ولكن ما وصل إلى علمنا عن تاريخ بلاد العرب القديمة حتى الأن، ليبلغ من القلة حدا لا نستطيع معه إلا أن نقول أن هذا مجرد فرض جائز الوقوع[٥].

كذلك إذا كان لرأى لوبون السابق وجاهته، إلا أننا ينبغى أن نضع معه تحفظا هاما فصحيح أن دراسة التاريخ تبين أن (فجائية) الوقائع والأحداث غير مقبولة، إلا أن هذا لا يعنى أن ما جاء به الإسلام كان تطورا طبيعيا لما كان قائما، ذلك أننا هنا لسنا أمام حدث بشرى يصح عليه نفس القانون، وإنما أمام حدث (إلهى) يختلف كلية عما كان قائما، والصحيح أن نقول، أن تلك الحضارة التى أبدعها العرب إذا كانت قد اعتمدت على الإسلام فى روحها واتجاهاتها، فهى تعنى كذلك قدرة العرب على الإبداع والابتكار وقابليتهم لحمل لواء التمدن والتطور. وهذا يؤدى بنا إلى القول بأن قوما هذه إمكاناتهم التى فجرها الإسلام وإن اختلفت فى روحها وتباينت فى اتجهاتها يستحيل عليهم أن يعجزوا عن إتيان أشياء ذات أهمية فى التاريخ قبل الإسلام.

وهنا، لعل الذين يكيلون الذم جزافا للعرب وتاريخهم فيما قبل الإسلام، يتذكرون أن الإسلام فى حقيقته ليس دعوة سماوية جاءت للعرب خاصة، وإنما للناس عامة، وأن اختيار العرب لحمل هذه الدعوة العالمية للناس جميعا لم يكن عبثا، وإنما كان لأن القوم الذين يحملون الدعوة العالمية، لابد وأن تتوافر فيهم صفات تناسب هذه المهمة الضخمة فى الصبر والتحمل والمخاطرة والشجاعة، واحترام العهود والنجدة والمروءة، وحب الحرية وتعشق الشرف والسؤدد والتمرن على التنقل وتعود الهجرات وعدم التبرم بحياة التقشف ورقة العيش والتطلع إلى النهوض إذا يسرت سبله، إلى غير ذلك من المؤهلات الخلقية العظيمة[٦].

وعلى هذا يمكن أن نفهم قول النبى ﷺ: "إن الله اختار خلقه، فاختار منهم آدم، ثم اختار بنى آدم، فاختار منهم العرب، ثم اختارنى من العرب، فلم أزل خيارا فى خيار، ألا من أحب العرب فبحبى أحبهم، ومن أبغض العرب فببغضى أبغضهم"[٧].

ثم أليس في بلاد العرب هذه (بيت الله العتيق) أول بيت وضع للناس، بناه جد العرب إبراهيم الخليل، والذى تنظر إليه الكتب المقدسة جميعا، على أنه أبو الأنبياء، فقد أخرج الله من صلبه أنبياء بررة، حملوا الراية وتوارثوا المشعل، ومن ثم فهو الأسوة الحسنة للمؤمنين جميعا ﴿قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه﴾[٨]، ومن هنا، فإن الأديان السماوية الكبرى إنما تحيط الخليل بهالة من الاحترام والإجلال، و تشرف جميعا بالانتساب إليه[٩].

هذا إلى أن الجزيرة العربية عرفت فى تاريخها الطويل أنواعا من الرسالات، ولم تكن رسالة الإسلام وحدها هى التى بدأت فيها، فكان هود فى الأحقاف، وكان صالح فى ثمود، وكان شعيب فى مدين، وكان موسى الذى نادى ربه بجانب الطور الأيمن، على حدود الجزيرة العربية، ومن قبل كان إبراهيم الذى بنى البيت، وإسماعيل الذى رعاه وورثه أولاده من بعده، فهذه الجزيرة بامتدادها إنما كانت مهبط الوحى منذ القدم، ولها عهد بالرسالات وقد تتابعت فيها على مر العصور.

ثم أليس فى اختيار العرب لحمل الرسالة العالمية معنى كريما، يستحق منا دراسة تاريخ هؤلاء القوم الذين أكرمهم ربهم - دون غيرهم - بدعوتين، لأبيهم إبراهيم توجه بهما إلى الله: ﴿وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات﴾[١٠]، والثانية: ﴿ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم﴾[١١].

بيد أن دراسة هذا التاريخ بالذات عملية تبلغ درجة عالية من الصعوبة تتطلب الكثير من العناء والجهد حتى لقد قيل بحق أنه «ليس فى تواريخ الأمم الراقية أسقم من تاريخ العرب قبل الإسلام»[١٢]، ومن هنا تهيب الكثيرون الخوض فيه لوعورة مسالكه وتناقض الأقوال فيه. وترجع صعوبات تاريخ التربية الجاهلية ومشكلاته إلى أمور يمكن إجمالها فيما يأتى:

١- يذهب البعض إلى أن من أهم الصعوبات والمشكلات، طول العهد بهذا التاريخ[١٣]، بيد أن هذا الرأى لا يصمد كثيرا أمام النقد والتمحيص، ذلك أن تاريخ الفراعنة أشد إيغالا فى القدم من كل تاريخ الأرض، إذ يرجع تاريخهم الثابت المؤكد إلى ما قبل القرن الأربعين قبل الميلاد[١٤]، هذا عدا تاريخهم الأسطورى الذى يمتد وراء ذلك بعشرات القرون[١٥].

٢- يذهب البعض الآخر إلى أن بعض الصحابة قد نهى عن رواية الشعر الجاهلى أو أخبار الأيام مما أوحى بكره الإسلام لإحياء ذكرى الجاهلية ومحاولة طمس معالمها وتأريخها وحكمهم من ثم عليه بمساهمته فى طمس تاريخ الجاهلية وإطفائه له[١٦].

ويستدلون على تأكيد هذا الرأى بلفت النظر إلى أنه فى الوقت الذى أهمل فيه العرب تأريخ حياتهم فى الجاهلية، نجد عكس ذلك بعد الإسلام، فإنهم لم يتركوا خبرا من أخباره أو رواية أو واقعة إلا ودونوها وفصلوها كأنهم شغلوا بهذا عن ذاك أو لعلهم أرادوا محو مفاخر الجاهلية وإقامة مجد الإسلام مكانها، ولذلك لا تجد لهم كتابا خاصا بتاريخ العرب قبل الإسلام، وإذا ذكروا شيئا من أخبارهم، إنما يريدون به العبرة والموعظة، كأخبار عاد وثمود بما تحويه من غضب على قوم خالفوا أنبياءه، ولذلك رأيتهم يبالغون فى تعظيم تلك الأمور ليعظم القصاص الذى وقع عليها حتى أصبحت أخبارهم أشبه بالخرافات منها بالحقائق وأكثر مبالغات العرب فى القبائل البائدة، حتى سبق إلى أذهان المحققين من غير المسلمين، أنها موضوعة ولولا ورود بعضها فى القرآن، لقال المسلمون ذلك أيضا[١٧].

لكننا يمكن أن نؤكد أن الذين نهوا عن رواية الشعر الجاهلى أو رواية الأيام أو امتنعوا هم أنفسهم عن روايتها، لم ينهوا عن روايتها مطلقا، أى عن رواية جميع أنواع الشعر الجاهلى، أو أخبار كل الأيام

التى وقعت فى الجاهلية، بل نهوا أو امتنعوا عن رواية أبواب الشعر، وبعض أخبار تلك الأيام، لما كان يحدثه هذا النوع من الشعر أو يوقعه هذا الباب من رواية الأخبار من شر فى النفوس، ومن فتن قد تجدد تلك العصبيات الخبيثة التى حاربها الإسلام لتمزيقها الشمل وتفريقها الصفوف[١٨].

ومما يذكر أن أصحاب هذا الرأى قد استندوا إلى حديث الرسول ﷺ: (الإسلام يهدم ما قبله) مما قد يفهم منه ضرورة انصراف العلماء عن الدراسات المتصلة بالجاهلية، وبالتالى ضياع الكثير من أخبارها، ثم نسيانها، وابتداء التاريخ عند المسلمين بعام الفيل[١٩].

لكن هؤلاء ينسون أن الحديث الشريف إنما كان ردا على أسئلة بعض الصحابة - رضوان الله عليهم - عما ارتكبوه فى جاهليتهم، مما لا يتفق وشرائع الإسلام، أو بالأحرى كان ردا على (عمرو بن العاص) حين اشترط قبل مبايعته رسول الله ﷺ أن يغفر له، فقال الرسول "أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله"[٢٠]؟

وإذا كان أصحاب هذا الرأى على صواب فمن أين جاء (ابن الكلبى) بمادة كتابه (الأصنام)؟ بل كيف يتفق ذلك، والقرآن الكريم قد تعرض لحياة العرب فى جاهليتهم، من نواحيها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية؟ فالقرآن الكريم يتعرض لذكر بعض المعبودات الوثنية، حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا﴾[٢١]، وحين يقول: ﴿لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون﴾[٢٢]، ويقول: ﴿أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، ألكم الذكر وله الأنثى، تلك إذا قسمة ضيزى﴾[٢٣].

هذا إلى جانب ذكر القرآن لحياة العرب فى الجاهلية ومثلهم، وما كانوا يقومون به – ولو شرا باطلا – فضلا عما فى كتب التفسير والحديث والسير والأخبار من أوصاف لبعض أصنام الجاهلية وهيآتها وشكل محجاتها وأوقات الحج إليها، ثم ألم يتعرض الإسلام إلى عرف العرب وتقاليدهم فى الجاهلية فأقر بعضا، وأنكر بعضا، وعدّل بعضا؟[٢٤].

وهكذا يمكننا القول أن الإسلام لو تعمد طمس الجاهلية، والقضاء على معالمها، لما أشار القرآن إليها، ولتحرج المسلمون من الإشارة إليها كذلك.

ثم أن الأمر، لو كان بسبب الإسلام، لما اقتصر على بلاد العرب، وإنما كان يجب أن يتعداه إلى البلاد الإسلامية جمعاء، ولرأينا فى هذه الحالة طمسا لتاريخ مصر أيام الفراعنة، ولتاريخ العراق على أيام السومريين والأكديين والآشوريين والبابليين، وغيرهم، ولكن الأمر غير ذلك تماما[٢٥].

٣- تعتمد عملية التأريخ للجاهلية على مادة علمية يستمد جزء كبير منها من أشعار بنى إسرائيل، ومؤلفات اليونانيين، وتراث الفرس والسريان واللاتين، وإذا كما نجد المدونات الإسرائيلية والفارسية غارقة فى الخيال، فكذلك نجد الخيال متراكما على المدونات اليونانية والسريانية، فالمبالغة فى الخيال الواضحة فى (الإلياذة) اليونانية، وفى قصة (مغارة الكنز) السريانية، لا تقل عن مبالغات الفرس عن ملوكهم وأبطالهم وفيما قاله العبرانيون عن دولة أنبياء بنى إسرائيل[٢٦]، لذلك قال المستشرقون «إن المواد المستخدمة من القصص اليهودى والمسيحى كانت منذ أمد بعيد، وقد وجدت سبيلها إلى التاريخ العربى تحت شعار تفسير القرآن، وهو أمر لم يكن فى مصلحته تماما، وكذلك كان أثر الرواية الفارسية فيه سيئا»[٢٧]، وتأكيدا لهذا، يذهب بعض الباحثين إلى أن (كتاب الملوك) (خد اى

نامة) الفارسى الذى نقل إلى العربية، كان يشتمل فى أقدم أجزائه على قصص تتناول أشخاصا خيالية (ميثولوجية) وعلى تأملات كهنوتية، وخرافات أيستاقية وذكريات عن قصة الاسكندر، وكثيرا ما كانت النزعة القصصية والبلاغية تطغى على الرواية الصحيحة فى الحديث عن ملوك ساسان(٢٨).

وبالإضافة إلى هذا، فإن أخبار الأمم فى المدونات الإسرائيلية، كان أكثرها محدودا فى نطاق ضيق وخاضعا للخصومة التى كانت بين بنى إسرائيل والعرب فى سورية وفلسطين منذ هجرة بنى إسرائيل من مصر، فالأسفار الإسرائيلية لم تتحدث عن كثير من أحقاب التاريخ العربى، فهى لم تذكر (الثموديين) ودولتهم فى شمال الحجاز، والأسفار الإسرائيلية عندما تتحدث عن العرب، تتحدث عنهم أعداء لدولتهم كافرين بعقيدتها، فهى لذلك تحرص على ذكر الجوانب المظلمة فى حياتهم. ولقد أقبل العرب على النقل من التوراة بدافع الاعتقاد فى أن التبديل والتحريف الذى حدث فى كتب بنى إسرائيل كان محصورا فى التأويل، كما قال ابن عباس (إنما بدلوه وحرفوه بالتأويل)(٢٩).

٤- قلة الاهتمام بالتدوين، فالظاهر أن غالبية أهل الجاهلية لم تكن لهم كتب مدونة فى تاريخهم، ولم تكن عندهم عادة تدوين الحوادث وتسجيل ما يقع لهم فى كتب وسجلات، بل كانوا يتذاكرون أيامهم وأحداثهم وما يقع لهم، ويحفظون المهم من أمورهم مثل الشعر حفظا. ولما كانت الذاكرة محدودة الطاقة لا تستطيع أن تحمل كل ما تحمل، ضاع الكثير من الأخبار بتباعد الزمان وبوفاة شهود الحوادث(٣٠).

يضاف إلى هذا، إساءة فهم بعض الأوائل، ما سمعوه من كراهة التدوين فى صدر الإسلام، مما أدى إلى الظن بأن هذا يعنى إعدام كل ما هو غير إسلامى من التراث العلمى القديم، فقد روى مسلم فى صحيحه "ولا تكتبوا عنى غير القرآن، ومن كتب عنى غير القرآن

فيمحه"[٣١]، ويحدثنا (القاسم بن محمد) أن عمر بن الخطاب نادى الناس بأن يأتوه بما ظهر فى أيديهم من الكتب ليرى فيها ما يجب حتى إذا جاءوا بها أحرقها[٣٢].

ومصدر الخطأ فى الفهم هنا أن هذه النصوص وغيرها تدور حول تدوين الأحاديث النبوية، وإطلاق عنان التدوين للجميع، فى الوقت الذى لم يجمع فيه القرآن، وفى الزمن الذى كان الناس يدونون فى الصحيفة الواحدة إلى جانب الآيات القرآنية قصصا[٣٣]، فإطلاقه يترتب عليه مخاوف لا يأمنها المسلمون على القرآن. وبعد أن جمع القرآن ووحدت قراءته فى مصحف واحد، كره الصحابة أن يجمع الحديث فى كتاب على نحو ما جمع به القرآن فيضاهى به، وأكثر الأعلام كانوا يخافون على عقلية العامة فمن مثله كمثل حاطب ليل، فحاطب ليل كما يقول (أبو عمر): ربما ضم أفعى إلى حطبه فنهشته[٣٤].

٥- ليس من السهل بقاء العاديات التى تتألف من مواد منزلية وأدوات ضرورية لحياة الإنسان مدة طويلة فى أراضى مكشوفة سهلة، وفى مناطق صحراوية لا حماية فيها لتلك الأشياء[٣٥]. وليس من السهل أيضا احتفاظ مثل هذه التربة بجثث الإنسان وبعظم الحيوان أمدا طويلا، وهى معرضة لحرارة شديدة قاسية ولرياح عاصفة قاسية.

هذا بالاضافة إلى عادة قلع المبانى القديمة لاستخدام أنقاضها فى مبان جديدة والاعتداء على الأطلال والآثار والقبور بحثا عن الذهب والأحجار الكريمة والأشياء النفيسة الأخرى. وهذه العادة قديمة جدا، ربما رافقت الإنسان، منذ يوم وجوده، وكان من نتائجها تلف كثير من الآثار وذهاب معالمها فصارت نسيا منسيا[٣٦].

كذلك يمكن القول بأن ما كان يحدث من حروب متعددة، أدى إلى تدمير هذه الآثار، إذ استعمل القادة السياسيون سياسة حرق المدن والمواقع والمزارع وقتل السكان بالجملة، حتى فى غير أوقات الحروب، كان بعض القاده السياسيين يدأبون على محو كل أثر لمن

سبقهم حتى لا يظهر على المسرح من هو أعظم منهم بدافع الحقد والحسد والغيرة.

٦- ليس البحث فى تاريخ بلد واحد بالأمر السهل على من كتب له حظ من البحث والنظر فما بالك بتاريخ أمة عظيمة تباعدت أرجاء بلادها كالأمة العربية؟ ولذلك رأينا الغربيين لما بلغ العلم هذه الدرجة من الارتقاء والتشعب، يقسمون التاريخ أقساما كثيرة، فمن بحث منهم فى تاريخ قرن أو قرون من تاريخ أمة، لا يتطاول إلى البحث فى دور آخر من أدوارها، أو من خاض فى تاريخ أقليم أو بلد لم يخطر عليه أو يخطر على نفسه، الخوض فى تاريخ أقليم أو بلد آخر، ومن اختص بجانب من تاريخ الرومان، يتعذر عليه معالجة التاريخ الحديث، ومن تاقت نفسه أن يتناول فى أبحاثه النظر فى حال أمة من أمم الشرق، لا يجود تأليفا له فى تاريخ الغرب[٣٧].

٧- تأثر عملية (التأريخ) بالألوان الخاصة، والمؤرخ يحتاج إلى كا ما يحتاج إليه القاضى من الشهادات والأسانيد والبيانات، وقد يعوزه كل أولئك فى أكثر الحوادث التى يتصدى لها بالبحث والتقرير. فكل حادثة تاريخية قوامها الأشخاص والأخبار والمصالح والآراء، ولكل عنصر من هذه العناصر آفة تتطرق إليه بالزغل والارتياب. والأشخاص يحيط بهم الحب والبغض والرغبة والرهبة والظهور والخفاء، والأخبار يعتريها الصدق والكذب والفهم والجهل والوضوح والغموض، والمصالح تتفق ولا تتفق وتجارى الحقيقة وتناقضها، وتصيغ الأشياء عامدة أو غير عامدة بصبغة تلوح لهذا غير ما تلوح لذاك، والرأى عرضة لاختلاف العلم والنظر والمزاج وكل ما يدخل فى تكوين الآراء وتقدير الأحكام[٣٨]، وإذا تأتى للمؤرخ أسباب الحكم على الأعمال الظاهرة، فقد تعوزه أسباب الحكم على النيات الخفية والبواعث المستورة والعوامل التى يحجبها

الإنسان عن خلده ويغالط فيها ضميره. وهبه تأتى له كل ما يتأتى للقاضى من الشهادات الأساسية والبينات فهل يسلم القاضى من الزلل؟ وهل يأمن من الزيغ فى الفهم والمحاباة فى الهوى وانتشار الأمر عليه فى القضايا التى لها خطر وللناس بها اهتمام، أما سفاسف الحوادث، فسواء أصاب فيها القاضى أو أخطأ فهى أهون من أن يتعلق بها خبر فى تاريخ أو مذهب فى قضاء[٢٩].

ثانيا: معنى الجاهلية

كيف نكتب تاريخ التربية والتعليم فى العصر (الجاهلى)؟
إنه تناقض يحتاج إلى تفسير وتحليل، ذلك أن النظرة العجلى لـ(الجاهلى) توحى بأنه الخالى من العلم، فهل نؤرخ لتعليم فى مثل هذا العصر؟

ينظر المؤرخون إلى العصر السابق لظهور الإسلام عادة على أنه عصر ظلمات وفوضى ولذلك استودعوه غيابات الجهالة، وأطلقوا عليه اسم العصر الجاهلى، فالمؤرخون السابقون، ومن سايرهم من اللاحقين، يعتبرون ذلك وكأنهُ بالنسبة لبلاد العرب عصر الخلق والتكوين، فالعربى قبل الإسلام لم يعرف حضارة ولم يتذوق ثقافة، بل ظل طيلة حياته يضرب فى بوادى الجهالة وعدم المعرفة، فلا ثقافة تقوم أخلاقه ولا مبادئ سامية تنظم حياته وتحكم مجتمعه فالعرب فى نظر أولئك المؤرخين عبارة عن أقوام بسطاء العقيدة يدينون بأحط أنواع الوثنيات ويحيون حياة دينية أقرب ما تكون إلى حياة الشعوب المتوحشة منها إلى حياة المثقفين المتمدينين.

وليت الأمر ينتهى عند هذا الحد، فالمؤرخون يصورون العربى وقد جرد من نعمة الفنون والآداب، فكأننا بهم يريدون أن نعتقد أن العربى لم يعرف العربية وأدبها من شعر ونثر، ويذهبون بعيدا فيجهلون أو يتجاهلون تلك الدول التى قامت على أطراف الجزيرة كدولة البابليين

والآشوريين والآراميين والكنعانيين والمعينيين والسبأيين، هذه الدول التى أهدت للإنسانية خير ما يهدى إليها من تشريع وعلوم وفنون. ولعل الدافع إلى هذا الفهم الخاطىء للعرب، هو المقابلة بين عهدين، والمقارنة بين عقيدتين، فما قبل الإسلام يجب أن يكون عصر ظلام وجهالة، والإسلام نور وهداية وما قبل الإسلام همجية، ومع الإسلام تفتحت المدنية، هناك كفر، وهنا إيمان، هناك جهل وهنا علم. هناك ظلم وهنا علم، هناك فوضى، وهنا نظام(٤٠).

إن هذه المعانى لا تصدق على التاريخ الجاهلى كله، وإنما تصدق بالذات على الفترة السابقة لظهور الإسلام مباشرة، ونرى أن هذا العصر الجاهلى الأخير الذى توسط بين الحضارتين: العربية القديمة والإسلامية الناشئة لم يكن فجوة عميقة واسعة بحيث تقطع الأواصر بين الحضارتين، فقد كان العرب فى هذه الجاهلية الأخيرة يعرفون عن ماضيهم قبسات أوصلها إلينا المؤرخون الإسلاميون غامضة تشوبها الأساطير والخرافات.

وهذا هو القرآن الكريم فى خطابه لعرب الجاهلية الأخيرة حافل بالإشارات التى تدل على ما كان يرفل فيه أولئك الأقوام ودولهم فى الجاهلية الأولى من نعيم وترف، وما كانوا يتمتعون به من قوة ومنعة(٤١)، فإذا أضفنا إلى هذا هذه القاعدة التى تقول بأن بناء الحضارات لا يمكن أن يتم إلا بترقى نظام التربية والتعليم، حكمنا بالتالى بوجود تعليم وبوجود تربية فى تلك الفترة. وفى القرآن أيضا تأنيب لعرب الجاهلية الأخيرة الذين كانوا يسيرون فى الأرض فيمرون بآثار منازل هؤلاء الأسلاف الأقدمين ويعلمون من أمرهم ما يعلمون ولكنهم مع ذلك لايتعظون بمصيرهم، ولا يعتبرون بما آلوا إليه، فالقرآن الكريم وصف سبأ بالحياة الزراعية المستقرة الناعمة، وبضربهم فى الأرض آمنين، يقول تعالى: ﴿لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية: جنتان

عن يمين وشمال، كلوا من رزق ربكم واشكروا له. بلدة طيبة ورب غفور﴾[٤٢].

﴿وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالى وآياما آمنين﴾[٤٣].

فإذا ما عرض لذكر عرب الجاهلية الأخيرة وصفهم بأنهم لم يبلغوا معشار ما أوتيت الدول من قبلهم.

﴿وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناهم، فكذبوا رسلى، فكيف كان نكير﴾[٤٤].

ويصف القرآن الكريم قوم عاد بفن العمارة وبالصناعة، وذلك فى قوله تعالى ﴿أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون. وإذا بطشتم بطشتم جبارين. فاتقوا الله وأطيعون. واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون بأنعام وبنين، وجنات وعيون﴾[٤٥].

ويصف ثمود بالحياة الزراعية المستقرة الخصبة، وبفن العمارة كذلك: ﴿أتتركون فى ماهاهنا آمنين؟ فى جنات وعيون؟ وزروع ونخل طلعها هضيم. وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين﴾[٤٦].

وأما إشارات القرآن الكريم إلى مرور عرب الجاهلية بديار أولئك الأقوام من أسلافهم ومعرفتهم أخبارهم وأحوالهم، فكثيرة، منها:
﴿وعاداوثمودا وقد تبين لكم من مساكنهم، وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين﴾[٤٧].
﴿ولقد أتوْ على القرية التى أمطرت مطر السوء، أفلم يكونوا يَرونها؟ بل كانوا لا يرجون نشورا﴾[٤٨].

﴿أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم. أن فى ذلك لآيات لأولى النهى﴾[٤٩].

﴿أولم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم. كانوا أشد منهم قوة، وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات، فما كان الله ليظلمهم، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾[٥٠].

﴿أولم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم. كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا فى الأرض، فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق﴾[٥١].

هذا وقد ورد لفظ (الجاهلية) فى القرآن الكريم فى أربعة مواضع: قوله تعالى:

١- ﴿يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية﴾[٥٢].
٢- ﴿أفحكم الجاهلية يبغون؟﴾[٥٣].
٣- ﴿وقرن فى بيتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى﴾[٥٤].
٤- ﴿إذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحَمية، حَمِيَّة الجاهلية﴾[٥٥].

وبتأمل هذه الآيات، يغلب على الظن أن (الجاهلية) هنا يقصد بها ما كان قبل ظهور الإسلام. يقول الطبرى فى تفسير الآية الأولى: "ظن الجاهلية، من أهل الشرك بالله شكا فى أمر الله وتكذيبا لنبيه ﷺ، ومحسبة منهم أن الله خاذل نبيه ومعمل عليه أهل الكفر به"[٥٦].

ويقول فى الثانية: يعنى أحكام عبدة الأوثان من أهل الشرك، وعندهم كتاب الله فيه بين حقيقة الحكم الذى حكمت به فيهم، وأنه الحق الذى لا يجوز خلافه[٥٧].

وفى الآية الثالثة: يتعرض لبيان المقصود بالجاهلية الأولى ويذكر فيها أقوالا كثيرة[٥٨]، منها أنها الزمن بين آدم ونوح، ومنها أنها ما بين نوح وأدريس، ومنها أنها ما بين نوح وإبراهيم، ومنها أنها ما بين موسى وعيسى ومنها أنها ما بين عيسى ومحمد ﷺ.

وفى الرابعة يقول(٥٩):"حمية الجاهلية حين جعل سهيل بن عمرو فى قلبه الحمية، فامتنع أن يكتب فى كتاب المقاضاة الذى كتب بين رسول الله ﷺ والمشركين بسم الله الرحمن الرحيم، وأن يكتب له/ محمد رسول الله، وامتنع هو وقومه من دخول رسول الله مكة عامة، وقال: حمية الجاهلية، لأن الذين فعلوا ذلك، كان جميعه من أخلاق أهل الكفر، ولم يكن شيء منه مما أذن الله لهم به، ولا أحد من رسله".

والجاهلية من حيث الاشتقاق اللغوى، مصدر صناعى مأخوذ من (الجاهلى) نسبة إلى (الجاهل) المشتق من(الجهل)(٦٠)، والجهل فى اللغة، نقيض العلم، ويقول الألوسى: هو عدم العلم أو عدم اتباع العلم فمن قال خلاف الحق، عالما بالحق أو غير عالم فهو جاهل. ويقول: قال أصحاب محمد ﷺ: كل من عمل سوءا فهو جاهل وإن علم أنه مخالف للحق. وسبب ذلك أن العلم الحقيقى الراسخ فى القلب يمتنع أن يصدر معه ما يخالفه من قول أو فعل، فمتى صدر خلافه، فلابد من غفلة القلب عنه، أو ضعف فى القلب بمقاومة ما يعارضه، وتلك أحوال تناقض حقيقة العلم، فتصير جهلا بهذا الاعتبار(٦١). وعلى ذلك فالناس قبل مبعث النبى ﷺ كانوا فى حال جاهلية، جهلا منسوبا إلى الجاهل، فإن ما كانوا عليه من الأقوال والأعمال إنما أحدثه لهم جاهل، وإنما يفعله جاهل(٦٢). ويستدل على ذلك بما رواه البخارى فى صحيحه عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال: "إذ سرك أن تعلم جهل العرب، فاقرأ ما فوق الثلاثين ومائة من سورة الأنعام ﴿وقد خَسِر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم، وحَرَّموا ما رزقهم الله افتراء على الله، قد ضلوا وما كانوا مهتدين﴾(٦٣).

فالجاهلية من حيث كونها اسما لزمن تطلق على الفترة التى كانت قبل بعثة النبى ﷺ ولا تطلق على زمن بعد هذه البعثة. أما من حيث كونها صفة، فقد يوصف بها بلد غير إسلامى، وقد يوصف بها شخص مسلم توجد فيه صفات الجاهلين، فهو جاهل وإن كان من أهل الإسلام،

بدليل قول النبـى ﷺ:(أربـع فـى أمتـى مـن أمـر الجاهليـة لا يـتركونـهن: الفخر بالأحساب والطعن فى الأنساب، والاستسـقاء بـالنجوم، والنياحـة. وقوله ﷺ لأبى ذر لما عير رجلا بأمه: إنك امروء فيك جاهلية».

فالعرب على هذا كانوا قبل الإسلام جاهليين فـى زمـن جـاهلى وهـم كانوا على هذا الـرأى جـاهليين، أى غـير عـالمين، أو غـير متبعيـن مـا يقتضيه العلم فهل كان العرب كذلك حقا؟

إننا لا نريد أن نفصل فى القول فى الإجابـة علـى هـذا السـؤال، لأن البحث كله إجابة عليه بالنفى.

هذا هو ما يمكن أن يقال عن (الجهـل) الـذى وصـم بـه العـرب قبـل الإسلام إذا فسر الجهل بأنه صفر العلم. ولكن إذا فسر هذا الجهـل بأنـه صفر الحلم كان ذلك تفسيرا سليما صحيحا مطابقـا تمامـا لحـال العـرب قبل بعثة الرسول ﷺ، فالحلم سيد الأخلاق، وتندرج تحته جميع الخصـال الحميدة، وأرقى درجات السلوك الإنسانى الحكيم. والجهـل الـذى ينـافى الحلم معناه: السفه والحمق والتهـور وعـدم القـدرة علـى ضبـط النفـس، وسرعة الانفعال، واشتداد الغضب، والاندفاع فى غير تريث ولا تفكير، وهذه كلها كانت صفات منتشرة بين العرب قبل الإسلام، فكـان العربـى يثور لأتفه الأسباب ويشعل نار الحـرب إذا توهـم إسـاءة، أو ظـن ظنـا، ولو خطأ، دون أن يتريث، أو يتحرى الحقيقة. وقد ورد اسـتعمال لفظـة (الجهل) ومشتقاتها فى هذا المعنى كثيرا، فمن ذلـك قولـه تعـالى: ﴿وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما﴾[١٤]، وقول الرسول ﷺ: ﴿إذا كان أحدكـم صائما فلا يرفث ولا يجهل﴾، وقول عمرو بن كلثوم[١٥]:

ألا لا يجهلـن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

فالجهل هنا يقصـد بـه السـفه والحمـق والتهـور وعـدم ضبـط النفـس وفقدان سيطرة العقل وعدم السلوك الحكيم.

ولكن لا ينبغي أن يغيب عن البال أن ذلك كان حال القوم في مجموعهم، لأنه لم يكن كل واحد منهم موصوفا بهذه الصفات التي تتنافى مع العقل والحكمة والاتزان والروية، فقد كان هناك أفراد اشتهروا بالعقل السوى والرأى الصائب، وبعد النظر، وحسن السلوك والسيرة، وكانت سمتهم الظاهرة الحكمة، حتى أن العرب اتخذوهم حكاما، يستشيرونهم فى شئونهم ويحكمونهم فى أمورهم، ومن هؤلاء، الأفعى بن الأفعى الجرهمى، وهو الذى حكم بين بنى مرار فى ميراثهم، وأكثم بن صيفى حكيم تميم وعالمها بالأنساب، وحاجب ابن زرارة التميمى كذلك، وكان على معرفة تامة بأخبار العرب وأحوالها وأنسابها، وهو من مشاهير الفصحاء والبلغاء، وكذلك الأقرع بن حابس التميمى، وهاشم بن عبد مناف القرشى، وعبد المطلب بن هاشم، وضمّرة بن ضمرة النهشلى، وكان ذكيا فطنا قوى العقل والتفكير خبيرا بأحوال العرب وأنسابهم ... وغيرهم.

واختلف الباحثون فى تحديد العصر الجاهلى، فمنهم من قال: أنه العصر الذى خلا من الرسل بين عيسى ومحمد، ومنهم من قال – وهو الحكم بن عيينة – أن الجاهلية كانت بين آدم ونوح، وهى ثمانمائة سنة. وقال ابن عباس: ما بين نوح وإدريس. ويرى بعض المفسرين أن المراد بالجاهلية فى قوله تعالى: ﴿وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى﴾، الزمن الذى ولد فيه إبراهيم عليه السلام، حيث كانت المرأة تلبس الدرع من اللؤلؤ، غير مخيط الجانبين، فتمشى وسط الطرفين لتعرض نفسها على الرجال. وروى عن ابن خالويه أن هذا اللفظ فى الإسلام أطلق على الزمن الذى كان قبل البعثة(٢٦).

ويرى نيكلسون أن الجاهلية تشمل فى الحقيقة، كل الفترة من آدم إلى محمد، ولكنها قد تستعمل فى دائرة محددة للإشارة إلى عصر ما قبل الإسلام للأدب العربى.

ويرى بعض الباحثين، أن الفترة التى سبقت ظهور الإسلام - وتقدر بنحو قرنين من الزمان - هى التى يطلق عليها العصر الجاهلى، أما ما سبق ذلك من أحداث، فتسمى (تاريخ العرب قبل الإسلام)[٦٧].

ومن الملاحظ أن الباحثين فى تاريخ مصر والشرق الأدنى القديم قد اعتادوا أن يتوقفوا فى دراستهم عند بداية عصر الأسكندر المقدونى (٣٥٦-٣٢٣ق.م) بسبب التغيرات الحضارية والسياسية التى حدثت فى الشرق الأدنى القديم منذ تلك الفترة، غير أن الأمر جد مختلف هنا فى بلاد العرب، فالأسكندر المقدونى - وكذا خلفاؤه من الأغريق - فضلا عن الرومان من بعدهم - لم يكتب لهم نجاح بعيد المدى أو قصيره فى السيطرة على جزيرة العرب، ومن ثم فقد بقى هذا الجزء من العالم العربى القديم، بعيدا عن قبضة اليونان والرومان، رغم المحاولات المتكررة التى بذلها هؤلاء وأولئك لانضواء الجزيرة العربية تحت لواء مقدونيا أو روما أو بيزنطة، كما أن الحضارة اليونانية - والرومانية من بعدها - وإن كتب لها بعض النجاح فى أطراف الجزيرة العربية، فقد فشلت تماما فى أن تنتشر بين ربوعها، هذا فضلا عن أن العرب القدامى إنما احتفظوا بلغتهم العربية - اللغة السامية الأم - بعيدا عن سيطرة اللغات الهندو - أوروبية، حتى جاء الإسلام، فكانت لغة القرآن ورسول الحضارة الإسلامية إلى العالمين[٦٨].

وهكذا فإن التاريخ العربى القديم، إنما يبدأ منذ عصور ما قبل التاريخ، وينتهى فى بداية القرن السابع الميلادى حيث يبدأ التاريخ الإسلامى، يوم بعث محمد ﷺ رسولا ومبشرا برسالة الإسلام.

ثالثا: مصادر التأريخ للتربية الجاهلية

يعتمد الباحث على عدة مصادر يستقى منها كافة المعلومات المتوافرة عن أحوال العرب فى العصر الجاهلى، من هذه المصادر:

١ - الكتب المقدسة والشروح والتفاسير:

وأقدم هذه الكتب، التوراة، وفيها شيء كثير عن أحوال الأمم العربية في سفر التكوين أول أسفارها الذى ذكر الكثير من أخبار (سام) وأولاده وقصة إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام، كما جاء ذكر بلقيس ملكة سبأ وقصتها مع سليمان في سفر الأيام الثانى، وقد وردت فى التلمود إشارات للعرب كذلك سواء التلمود الفلسطينى وقد تعاونت على تحبيره المدارس اليهوديةAcademies ويسمى أيضا التلمود الأورشيلمى أو التلمود البابلى الموضوع في العراق[٦٩]، هذا وإن للشروح والتفاسير المدونة على التوراة والتلمود قديما وحديثا، وكذلك للمصطلحات العبرانية القديمة على اختلاف أصنافها أهمية كبيرة فى تفهم تاريخ الجاهلية.

وعلى أية حال، فعلينا حين نتعامل مع التوراة كمصدر تاريخى، أن نتخلص من الهالة التى أسبغها عليها المؤمنون بها، وأن ننظر إليها كما ننظر إلى غيرها من المصادر التاريخية، ولا يهمنا هنا أن تكون التوراة كتابا مقدسا أو لا تكون، فذلك شأن من يريدون أن يروها فى نصها الراهن على هذا النحو أو ذاك، ولكن الذى يهمنا هنا ألا تكون كتاب تاريخ يحاول فرض مضمونه على الحاضر والمستقبل كما حاول فرضه على الماضى، وإذا كان يعزى للتوراة من قيمة تاريخية لا يجد له سندا، إلا فيما يزعم لها من قداسة، فالذى لا شك فيه أن هناك ثمة علاقة بين قيمة التوراة ككتاب تاريخ، وقيمتها ككتاب مقدس، ذلك أنه كلما تدعمت قيمتها ككتاب مقدس تضاءلت الريبة فى صدق ما تضمنته من وقائع وسهل وصول هذه الوقائع إلى يقين الناس على أنها من حقائق التاريخ التى لا ينبغى الشك فيها[٧٠].

أما القرآن الكريم، فهو أصدق المصادر المقدسة[٧١]، وقد جاء فيه ذكر بعض القبائل البائدة كعاد وثمود اللتين انفرد بذكرهما دون بقية الكتب المقدسة، كما جاء فيه بعض أخبار ملوك اليمن كقصة ملكة سبأ

وقصة إسماعيل جد العرب العدنانية ومسألة سيل العرم وغير ذلك. وقد أيدت الكشوف الحديثة صحة ما ورد عن مساكن ثمود وسيل العرم وغيرها. والتفسير مصدر هام أيضا ففى كتب التفسير ثروة تاريخية قيمة تفيد الباحث فى تدوين هذا التاريخ تشرح ما جاء مقتضبا فى كتاب الله، وتبسط ما كان عالقا بأذهان الناس عن الأيام التى سبقت الإسلام وتحكى ما سمعوه، وما وعوه عن القبائل العربية البائدة التى ورد لها ذكر مقتضب فى السور، وما ورد عندهم من أحكام وآراء ومعتقدات.

وقد أكد طه حسين أن مرآة الحياة الجاهلية يجب أن تلتمس فى القرآن، وذلك لأنه ليس من اليسير أن نفهم أن الناس قد أعجبوا بالقرآن حين تليت آياته عليهم إلا أن تكون بينهم وبينه صلة، هى هذه الصلة التى توجد بين الأثر الفنى البديع وبين الذين يعجبون به حين يسمعونه أو ينظرون إليه[٧٢]. وليس من اليسير أن نفهم أن العرب قد قاوموا القرآن وناهضوه وجادلوا النبى فيه، إلا أن يكونوا قد فهموه ووقفوا على أسراره ودقائقه. وليس من اليسير، بل ليس من الممكن أن نصدق أن القرآن كان جديدا كله على العرب، فلو كان كذلك لما فهموه ولا دعوه، ولا آمن به بعضهم ولا ناهضه وحاول فيه بعضهم الآخر. إنما كان القرآن جديدا فى أسلوبه، جديدا فيما يدعو إليه، جديدا فيما شرع للناس من دين وقانون، ولكنه كان كتابا عربيا، لغته هى اللغة الأدبية التى كان يصطنعها الناس فى عصره، أى فى العصر الجاهلى. وفى القرآن رد على الوثنيين فيما كانوا يعتقدون من الوثنية، وفيه رد على اليهود، وفيه رد على النصارى، وفيه رد على الصابئة والمجوس. وهو لا يرد على يهود فلسطين، ولا على نصارى الروم، ومجوس الفرس، وصابئة الجزيرة وحدهم، وإنما يرد على فرق من العرب كانت تمثلهم فى البلاد العربية نفسها. ولولا ذلك لما كانت له قيمة ولا خطر، ولما حفل به أحد من أولئك الذين عارضوه وأيدوه، وضحوا فى سبيل تأييده ومعارضته بالأموال والحياة.

وكان العرب كغيرهم من الأمم القديمة وككثير من الأمم الحديثة منقسمين إلى طبقتين طبقة المستنيرين الذين يمتازون بالثروة والجاه والذكاء والعلم، وطبقة العامة الذين لا يكادون يكون لهم حظ من هذا كله، والقرآن شاهد بهذا(٧٣).

فالقرآن يحدثنا عن أولئك المستضعفين الذين كفروا طاعة لسادتهم وزعمائهم لا جهادا فى الرأى ولا اقتناعا بالحق، والذين سيقول يوم يسألون: ﴿ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا﴾. والقرآن يحدثنا عن جفوة الأعراب وغلظتهم وإمعانهم فى الكفر والنفاق وقلة حظهم من العاطفة الرقيقة التى تحمل على الإيمان والتدين، أليس هو الذى يقول: ﴿الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله﴾، أليس قد شرع للنبى ﷺ أن يتألف قلوب الأعراب بالمال؟

كذلك حدثنا القرآن عن أن العرب كانوا على اتصال بمن حولهم من الأمم، بل كانوا على اتصال قوى قسمهم أحزابا وفرقهم شيعا(٧٤)، وذلك على نحو ما نرى فى سورة الروم.

٢- المؤرخون اليونانيون والرومان:

وتشمل هذه الكتابات - على ما فيها من أخطاء - على معلومات تاريخية وجغرافية عن بلاد العرب قبل الإسلام، وعن أسماء لقبائل عربية كثيرة، لولاها لما عرفنا عنها شيئا. ويبدو أن أصحاب هذه الكتابات قد استقوا معلوماتهم من الجنود اليونان والرومان الذين اشتركوا فى الحملات التى وجهتها بلادهم إلى بلاد العرب. ومن السياح اللذين اختلطوا بقبائل عربية وأقاموا بين ظهرانيها، وبخاصة فى بلاد الأنباط، ومن التجار والبحارة الذين كانوا يتوغلون فى تلك البلاد، وتعد الإسكندرية من أهم المراكز التى كانت تعنى عناية خاصة بجمع المعلومات عن بلاد العرب، وعن عادات سكانها، وما ينتج فيها لتقدمها إلى من يرغب فيها من تجار المتوسط، وقد استقى كثير من كتاب

الاغريق والرومان معارفهم عن بلاد العرب من هذه المصادر التجارية العالمية(٧٠).

على أن ما يجب علينا ملاحظته أن هؤلاء الكتاب الكلاسيكيين إنما كانوا يحكمون على ما يرونه ويسمعونه من وجهة نظرهم هم، وحسب عقليتهم وإدراكهم وتأثرهم بعادات بلادهم وديانتها، فضلا عن أنهم لم يكونوا يعرفون لغة البلاد التى كانوا يصفونها أو يتحدثون عن تاريخها، ومن ثم فقد اعتمدوا – كما أشرنا – على أقوال محدثيهم، وجلهم من مستوى لا يزيد عنهم كثيرا فى معرفته لتلك اللغات، أضف إلى ذلك أن كثيرا منهم قد أساءوا فهم ما رأوه، أو ذهب بهم خيالهم كل مذهب فى تفسير أو تعليل ما سمعوه أو وقعت عليه أبصارهم(٧١).

وقد جاء ذكر العرب عرضا فى تاريخ هيرودوت (٤٨٠–٤٢٥ق.م) أثناء كلامه عن حرب قمبيز والمصريين فى القرن السادس قبل الميلاد وأشار (ارملستينى) (المتوفى سنة ١٩٤ق.م) و (ديودورس الصقلى Diodorus Siculus ٤٠ ق.م) إلى العرب فى كتبهم، وأفرد (استرابون) اليونانى المتوفى سن ٢٤م فصلا فى مؤلفه الجغرافى ذكر فيه مدن العرب وقبائلهم وشيئا عن أحوالهم التجارية والاجتماعية(٧٢)، وخصص (بطلميوس) Claudius Ptolemaes الجغرافى الشهير الذى مات سنة ١٤٠م جزءا من كتابه ذكر فيه قبائل العرب ومدنها وحدد موضعها بالدرجات، كما شرح الكثير من أحوال العرب التجارية وغيرها، وفصل ما أجمله سابقوه تفصيلا.

وقد استقى هؤلاء ومن شابهم معارفهم من الرجال الذين اشتركوا فى الحملات التى أرسلها اليونانيون أو الرومان إلى بلاد العرب، ومن السياح الذين اختلطوا بقبائل العرب أو أقاموا مدة بين ظهرانيهم، ولا سيما فى بلاد الأنباط، ومن التجار وأصحاب السفن الذين كانوا يتوغلون فى البحار وفى بلاد العرب للمتاجرة، وتعد الإسكندرية من أهم المراكز التى كانت تعنى عناية خاصة بجمع الأخبار عن

بلاد العرب وعادات سكانها وما ينتج فيها لتقديمها إلى من يرغب فيها[٧٨]، ومن هنا يجب أن تؤخذ هذه المعلومات بحذر وتمحيص شديدين.

٣ - النقوش والكتابات:

كذلك تعتبر النقوش عماد البحث فى تاريخ هذه الفترة، فهى تحل محل المصادر الأرشيفية فى سرد وقائع تاريخ العرب قبل الإسلام، إذ هى الكتابة الموجودة على الآثار[٧٩]. فقد عرف النقش - منذ قديم الزمان - فى مواطن استقرار العرب بخطوط الجزيرة العربية القديمة مثل: الخط السبىء والحيرى أو ما يعرف عند العرب بالخط المسند فى اليمن، حيث كان أكثر النقوش القديمة مكتوبة به، والخطوط اللحيانية والثمودية والصفوية والآرامية والنبطية والعبرانية فى الشام، وأغلبها يشبه الكتابة الكوفية فيما بعد. أما عن النقوش القديمة بالعربية قبل الإسلام، فهذه نادرة، وليس لدينا منها غير أربعة نقوش، أقدمها وهو الأهم - نقش (نمارة) الخاص بقبر إمرىء القيس، وهو مكتوب بالخط النبطى.

وأغلب الكتابات الجاهلية التى عثر عليها، هى فى أمور شخصية فى الغالب، مثل إنشاء بيت، أو بناء معبد، أو بناء سور، أو شفاء من مرض، ولذلك انحصرت فوائدها فى نواح معينة، فى مثل الدراسات اللغوية، وأقلها النصوص التى تتعرض لحالة العرب السياسية، أو الأحوال الاجتماعية أو العلمية أو الدينية أو النواحى الثقافية والحضارية الأخرى، ولهذا بقيت معارفنا فى هذه النواحى ضحلة غير عميقة[٨٠].

وقد ألمح المسعودى للمناهج الجاهلية فى تدوين الحوادث، فقال "وكانت العرب قبل ظهور الإسلام تؤرخ بتواريخ كثيرة، فأما حمير وكهلان ابنا سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بأرض اليمن فانهم كانوا يؤرخون بملوكهم السالفة من التبابعة وغيرهم"[٨١]. ثم ذكر أنهم أرخوا أيضا بما كان يقع لديهم من أحداث جسيمة فى نظرهم. وقال

الطبرى، عن العرب أنهم "لم يكونوا يؤرخون بشيء من قبل ذلك غير أن قريشا كانوا – فيما يذكر – يؤرخون قبل الإسلام بعام الفيل وكان سائر العرب يؤرخون بأيامهم المذكورة، كتأريخهم بيوم جبلة وبالكلاب الأول والكلاب الثانى"[٨٢].

٤ –الآثار:

وهى التى وصفها ابن خلدون بأنها تكون على نسبة قوة الدولة "والسبب فى ذلك أن الآثار إنما تحدث عن القوة التى بها كانت أولا وعلى قدرها يكون الأثر"[٨٣] مما يدل على أهميتها فى فهم تاريخ العرب، ويشير الجاحظ[٨٤] إلى أن العرب فى جاهليتها كانت تحتال فى تخليدها بأن تعتمد فى ذلك على الشعر الموزون والكلام المقفى، وكان ذلك هو ديوانها، أما العجم، فكانوا يقيدون مآثرهم بالبنيان، ثم أن العرب أحبت أن تشارك العجم فى البناء وتتفرد بالشعر، فبنوا غمدان وكعبة نجران[٨٥]

وكانت بلاد العرب وحضرموت أهم أجزاء بلاد العرب التى كثر مرتادوها من علماء الآثار والتى كثرت دراساتهم فيها، ولا غرو فهى غاصة بآثار الحضارتين المعينية والسبئية ولم يكن نصيب الشمال من اهتمام علماء الآثار بأقل من نصيب الجنوب وذلك على الرغم من أن وسائل البحث العلمى ومسهلاته لم تكن ميسورة لدى هؤلاء العلماء، فلقد كشف العلامة (دوتى) Doughty سنة ١٨٧٦عددا من المقابر النبطية المحفورة فى مدائن صالح ورسمها كما كشف Buttoh سنة ١٨٧٧ مقابر نبطية أخرى أثناء فحصه عن مناجم الذهب فى مدين وعثر بعض الكاشفين على مقابر رومانية فى حدود الحجاز الشمالية[٨٦]، أما أثار بابل وآشور فهى كثيرة.

٥ – جهود المستشرقين:

وكان للجهود المضنية التى بذلها المستشرقون أثرا عظيما فى الكشف عن جوانب لا يستهان بها من تاريخ العرب فى العصر

الجاهلى، بل لا نبالغ إذا قلنا، أن قد كان لهم فضل كبير فى(علمنة) تأريخ هذه الفترة بعد أن كان يختلط بالأساطير والخرافات. ومن أوائل الجهود التى بذلت فى هذا المضمار، تلك البعثة الدانمركية التى تكونت فى أواخر سنة ١٧٦٠م وبالرغم من أن أربعة من الباحثين لقوا حتفهم، إلا أن النتائج التى وصلت إليها هذه البعثة كانت أعظم نتائج علمية جاءت بها بعثة أوروبية من اليمن[٨٧].

ويمضى الزمن، وتخطو هذه الدراسات خطوات واسعة، وذلك بفضل الرحالة الألمانى (أدولف فون فريده) Adolph V. Wrede عام ١٨٤٣. وقررت أكاديمية الفنون الجميلة Academie des Inscription et belles letters بفرنسا، إرسال الأستاذ المستشرق يوسف هلفى Jacob Halevy فى بعثة إلى بلاد اليمن، فكشف عن نقوش هامة جمعها من سبعة وثلاثين مكانا، ونشرها عام ١٨٧٢[٨٨].

كذلك أقدم المستشرق النمساوى بفينا (ادوارد جلازر) عام ١٨٨٠ على رحلة من قبل الأكادمية الباريسية، ثم برحلات أخرى فى سنوات تالية، وقام بعمل جليل، ففى مأرب استطاع أن يرسم تخطيطا لآثار القنوات القديمة وسدود مياهها العظيمة ونسخ جلازر الكتابات التى كانت على السدود وقد أتت هذه الرحلة أكلها وعادت على العلم بما يقرب من أربعين نقشا سبئيا عدا القطع الأثرية الأخرى والنقود والخواتيم وما اليها[٨٩]. إلى غير هذه من الجهود.

٦ – المؤرخون العرب:

لم يكتب مؤرخو العرب تاريخا خاصا لبلاد العرب قبل الإسلام، ولم يتجاوز كل ما كتبوه أن يكون مقدمات لتواريخهم المفصلة الدقيقة للعصر الإسلامى، وحتى هذه المقدمات فإنها لم تكن مفصلة ولا دقيقة، وأوجه الخلاف بين المؤرخين فى أسماء الدول والملوك وحوادث التاريخ ومدد الحكم كثيرة، وفى بعض الحالات يظهر التناقض بينها[٩٠]

ويصعب الأطمئنان إلى ما ورد لديهم من أخبار وروايات عن الجاهلية إلا إذا وقفنا بها إلى حدود القرن السادس الميلادى أو القرن الخامس على أكثر تقدير، أما ما روى على أنه فوق ذلك، فإننا لا نتمكن من الاطمئنان إليه لأنه لم يرد به سند مدون ولم يؤخذ من نص مكتوب، وإنما أخذ من أفواه الرجال ولا يؤتمن على هذا النوع من الرواية، لأننا حتى إذا سلمنا أن رواة تلك الأخبار كانوا منزهين عن الميول والعواطف، وأنهم كانوا صدوقين فى كل ما رووا، وكانوا أصحاب قدرة فى النقد والتمييز بين الصحيح والفاسد، فإننا لا نتمكن من أن نسلم أن فى استطاعة الذاكرة أن تحافظ على صفاء الرواية، وأن تروى القصة وما فيها من كلام وحديث بالنص والحرف حقبة طويلة[٩١].

٧- الأدب العربى:

فقد بينت الدراسات العلمية الحديثة للأدب خطأ تلك النظرة التى كانت ترى أن الأديب يجب أن يروى طائفة جيدة من مختار المنثور والمنظوم، وأن يلم بهذا المنثور والمنظوم من لغة وتاريخ وقصص ونسب بشرحه وتفسيره ونقده لكى يكون أديبا، وأن النظرة السليمة، هى أن الأديب مرآة صافية وضاءة أمينة لما فى عصره إن كان أديبا منشئا وليس المختار من المنظوم والمنثور إلا صورا لألوان من حياة الأفراد والجماعات، وفيها القوى وفيها الضعيف، فيها الجيد وفيها الردىء، فيها الرضى وفيها البغيض، ومن هنا فدارسو الأدب الآن لا يقنعون بهذه الصورة يحفوظونها ويستظهرونها ويلقون عليها أبصارهم متعجلين ولا ينعمون، وإنما يسعون إلى أن يتعرفوا ما وراء هذه الصور ويتعمقوا حقائقها ويعرفوا - إلى أقصى حدود المعرفة - دقائق هذه الحياة النفسية التى اضطربت بها الأفراد والجماعات فأنشأت ما أنشأت من نثر ونظم[٩٢].

ولقد وقر فى أذهان الدارسين السابقين أن الشعر القديم من لوازم الحياة العربية، وجد منذ وجدت، إلى درجة أن لفظة (عربى) باتت ترادف عندهم لفظة شاعر، فالعربى شاعر بطبيعته وسليقته، وقد أضحى الشعر مع الزمن ديوان هؤلاء العرب الذين يخلدون فيه مآثرهم، ويسجلون فيه أخبارهم، وهو علمهم الذى ليس لهم علم أصح منه كما يقول عمر بن الخطاب، وقد كانت القبيلة من العرب، إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها، وصنعت الأطعمة، واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر، كما يصنعون فى الأعراس، ويتباشر الرجال والولدان، لأنه حماية لأعراضهم، وذب عن أحسابهم، وتخليدا لمآثرهم، وإشادة بذكرهم، وكانوا لا يهنئون إلا بغلام يولد، أو شاعر ينبغ أو فرس تنتج كما قال ابن رشيق[٩٣].

وإذا كان الشعر العربى فى الجاهلية قد أحتل هذه المنزلة السامية فى نفوس العرب، وكانت القطع الرائعة فيه تحظى بالعناية والاحترام، وكان أصحابها يلقون منهم مهابة وإجلالا، كان طبيعيا أن تكون الروائع الأدبية محلا للادعاء، فيدعى أكثر من واحد أنها له، وكانت القبائل العربية تعتز مما لها من نتاج أدبى، وتتيه على غيرها بالكثير المحفوظ لها منه، ويعتز السادة بما قيل فيهم وفى أسلافهم من روائع القول وفصيح البيان، فتسابق الكل فى جمع ما كان لهم ولذويهم وأسلافهم من آثار. وأحس الرواة هذا الاهتمام من الجميع، فتسابقوا هم كذلك فى الجمع والرواية، وتناسوا فى الإكثار من ذلك ليفوق كل منهم سواه فى الحظوة والمنزلة والمكافأة. وبطبيعة الحال نتوقع أن يتطرق إلى الأدب شىء من الدخيل، أو ما يظن أنه دخيل[٩٤].

ولم تكن هذه الملاحظة لتغيب عن الثقات وتنبيهاتهم، وكان محمد ابن سلام المتوفى سنة ٢٣١هـ أول من درس قضية الانتحال وآثارها فى كتابه (طبقات فحول الشعراء) إذ أورد فيه كثيرا من الملاحظات والآراء التى تدل على دراسة وتحقيق[٩٥].

وفى العصر الحديث، خصص (مرجليوث) بحثا مطولا لدراسة أصول الشعر الجاهلى، نشره فى مجلة الجمعية الملكية الآسيوية سنة ١٩٢٥، وقد ذهب فى هذا البحث، كما ذهب فى دراسات أخرى غيره إلى تأكيد شكه فى صحة ما يروى من نصوص الشعر الجاهلى، وهى نصوص يرى أنها مصنوعة بعد ظهور الإسلام على نمط لغة القرآن[٩٦].

والحق أن مرجليوث جانبه الصواب فى دعواه، ولذلك هب كثير من المستشرقين يردون عليه مثل بروينلش ولايل[٩٧].

وقد فجر الدكتور طه حسين فى أواخر العشرينات من القرن الميلادى الحالى قنبلة خطيرة شكك بها فى الأدب الجاهلى مؤكدا أن الكثرة المطلقة مما نسميه أدبا جاهليا ليست من الجاهلية فى شىء، وإنما هى منحولة بعد ظهور الإسلام، فهى إسلامية تمثل حياة المسلمين وميولهم وأهواءهم أكثر مما تمثل حياة الجاهليين.

يقول طه حسين فى كتابه (فى الشعر الجاهلى): "إن الكثرة المطلقة مما نسميه شعرا جاهليا ليست من الجاهلية فى شىء، وإنما هى منتحلة مختلقة بعد ظهور الإسلام، فهى إسلامية تمثل حياة المسلمين وميولهم وأهواءهم أكثر مما تمثل حياة الجاهليين. وأكاد لا أشك فى أن ما بقى من الشعر الجاهلى الصحيح قليل جدا لا يمثل شيئا ولا يدل على شىء أو لا ينبغى الاعتماد عليه فى استخراج الصورة الأدبية الصحيحة لهذا العصر الجاهلى"[٩٨].

وقد أحدث هذا الكتاب ضجة عنيفة حينئذ بسبب ما ورد فيه تشكيكا فى النصوص القرآنية الخاصة بإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، فألف بعض الباحثين كتبا فى الرد عليه، منها:

١- النقد التحليلى لكتاب (فى الأدب الجاهلى)، لمحمد أحمد الغمراوى.

٢- نقد كتاب (فى الشعر الجاهلى)، لمحمد فريد وجدى.

٣- الشهاب الراشد، لمحمد لطفى جمعة.
٤- نقض كتاب (فى الشعر الجاهلى)، لمحمد الخضر حسين.
٥- تحت راية القرآن، لمصطفى صادق الرافعى.

وكان واضحا تأثر طه حسين فى رأيه بآراء الذين يطعنون فى أصالة الأدب الجاهلى من المستشرقين، وعلى الأخص مرجليوث.

وتتبع الآراء التى ذكرها طه حسين والمناقشات التى أعقبتها فى الكتابات المضادة أمر عسير فى هذا الجزء، فضلا عن أنه يخرجنا عن طريق الدراسة الحالية.

لكن ربما كان من المفيد الإشارة إلى كتاب تميز بقدر كبير من المنهجية العلمية من المناقشة وخاصة وقد بعدت السنون عما أثاره كتاب طه حسين من ردود فعل كان من الطبيعى أن تشوبها مسحة انفعال، هذا الكتاب هو (مصادر الشعر الجاهلى) لناصر الدين الأسد الذى أقام فكرته على أساس أن الذين يتشككون فى صحة ما لدينا من تراث الجاهلية الشعرية ينطلقون من الشك فى صحة روايته لاعتمادها على المشافهة فى العصر الجاهلى وانقطاعها ما بين الجاهلية والعصور الإسلامية التالية، كما يعتمدون على ما أثير حول أمانة الرواة فى القرنين الثانى والثالث من شكوك، ولغة الشعر الجاهلى وبعض معانيه الإسلامية، ومن ثم فإن المؤلف سعى إلى تأصيل (مصادر الشعر الجاهلى) التى وصل إليها عن طريقها هذه الكثرة من القصائد ومن ثم فإن التصور العام يتلخص فى أن المؤلف قد عمد إلى إثبات اتصال رواية هذا الشعر ما بين الجاهلية والإسلام وتأصيل مناهج الرواة المسلمين فى جميع الأشعار الجاهلية ونقدها وتدوينها.

أما بالنسبة للطريق التى وصل بها الشعر الجاهلى إلى العصر الذى دون فيه تدوينا مستفيضا، فكانت هذه الكتب التى بين أيدينا ابتداء من القرن الثانى للهجرة، فتجمع الآراء قديما وحديثا - أو تكاد - على أن

الرواية الشفهية كانت الطريق الأولى لحفظ هذا الشعر، فلم تكن الكتابة وسيلة أساسية فى هذا الشأن، فابن سلام والجاحظ مثلا، لا يريان العربى يقيد شعره أو يدونه، حتى أن العرب عندما استقروا فى الأمصار، بعد أن هدأت الفتوح لم يؤولوا فيه، إلى كتاب مكتوب ولا ديوان مدون حسب رأى ابن سلام[٩٩]. وإذا كان بعض الدارسين المحدثين قد أبدوا تحفظا على مثل هذا التعميم، فإن بعضهم الآخر جرى فى الشوط إلى منتهاه، فنفى أن تكون هناك وسيلة أخرى لتحمل هذا التراث، فإذا كان يمكن تقسيم تاريخ رواية الشعر الجاهلى إلى ثلاث مراحل متعاقبة يقود أولها إلى آخرها، وهى، مرحلة (الإنشاد) فى العصر الجاهلى، ومرحلة (التجميع) فى صدر الإسلام والعصر الأموى، ومرحلة (التدوين) فى العصر العباسى، فإن المرحلة الأولى توصف بأنها "تلك الفترة الغامضة من تاريخ هذا الشعر، فترة العصر الجاهلى التى كانت الرواية الشفوية فيها وسيلة الجاهليين إلى رواية أشعارهم وحفظها، وعن طريق هذه الرواية الشفوية وحدها وصل إلينا قدر كبير من قصائده ومقطعياته ..."[١٠٠].

وقد جمع اللغويون فى البصرة والكوفة ما بقى من الأشعار القديمة لمن بعدهم من الأجيال، طورا فى دواوين لأفراد الشعراء، وطورا فى مجموعات شعرية لقبائل أو طبقات معينة، وأخيرا فى مختارات ومنتخبات[١٠١].

وأقدم ما بقى من مجموعات القصائد الكاملة هو الاختيارات التى جمعها حماد الراوية وسماها على غرار عناوين الكتب الأخرى المعلقات، وزعم المتأخرون أنها سميت معلقات لأنها كانت معلقة على الكعبة لعلو قيمتها، ولكن هذا التعليل مشكوك فيه.

وإلى جانب مجموعة حماد الصغيرة المنتقاة، وضع معاصره ومنافسه (المفضل بن محمد بن يعلى الضبى) - متوفى سنة ١٦٤هـ/٧٨٠م - اختيارات أوسع وأغزر، وسميت فيما بعد بالمفضليات.

وهناك المجموعة الأخرى وهى: جمهرة أشعار العرب، قد جمعت فى أواخر المائة الثالثة للهجرة، وهى مجموعة سباعية تشتمل على سبعة أقسام، ويسمى جامعها أبازيد القرشى(١٠٢).

وقد دارت مناقشات مستفيضة حول نظرية طه حسين، ليس هنا مكان عرضها، ولكن ما نريد أن نخرج منه، نتيجتها، وهى أننا يجب أن نقبل على هذا الأدب بحذر شديد، ومما يجنب الزلل حقا، ألا نعتمد على هذا المصدر وحده، وإنما نلجأ إلى المصادر الأخرى التى ذكرناها وبمقابلة هذه بتلك، نستطيع – قدر المستطاع – أن نخرج بأحكام نطمئن إليها ولو مؤقتا إلى أن تظهر أدلة ووثائق أخرى تجعلنا نغير هذه الأحكام.

رابعا– أصل التربية العربية

ليست التربية شيئا آخر غير الحياة، والباحث فى أصل أمة من الأمم هو باحث فى أصل تربيتها وموطنها وكيف نشأت، ومن ثم فإننا إذ نبحث عن أصل العرب وموطن البشرية الأول، إنما نبحث بالتالى عن أصل التربية العربية ومنشأها، لا، بل نكون بذلك قد وضعنا أيدينا على أصل التربية على وجه العموم.

لقد وجد العرب فى ديارهم قبل أن يعرفوا باسم العرب بين جيرانهم، وكانت لهم لغة عربية يتكلمونها وتمضى على سنة التطور عصرا بعد عصر، إلى أن تبلغ الطور الذى عرفناه أيام الدعوة الإسلامية. وهذه هى القاعدة العامة فى تسمية الأمم وفى تطور اللغات، فليس العرب بدعا فيها بين أمم المشرق والمغرب.

فالهند – مثلا – كانت عامرة بسكانها قبل أن يسمى نهر ما بنهر (الهندوس)، وقبل أن يطلق اسم هذا النهر على شبه الجزيرة كلها.

والحبشة كانت عامرة بقبائلها المتعددة، قبل أن يسميها العرب بهذا الاسم، ويقصدون به بلاد الأحباش، أى السكان المختلطين، وقبل أن يسميها اليونان باسم (أثيوبية) أى بلاد الوجوه المحترقة، وقبل أن يسميها العبرانيون باسم بلاد الكوشيين لأنهم ينسبون أهلها إلى كوش ابن حام بن نوح(١٠٣).

وكانت بلاد السكنداف معمورة قبل أن يسميها أهل الجنوب بلاد (النورديك) أى الشماليين .. وهكذا.

وكل هذه الأمم كانت لهم لغات يتكلمون بها قبل ألفى سنة، ولا يتكلمها اليوم أبناؤهم على النحو الذى كان يفهمه آباؤهم، ولا يشذ عن ذلك أمة من الأمم ولا لغة من اللغات(١٠٤).

وقد مضى على العرب أكثر من ألفى سنة وهم معروفون بهذا الاسم الذى يطلقونه على أنفسهم ويطلقه عليهم غيرهم، ولا يزال أصل التسمية وتاريخ اطلاقها غير معروفين على التحقيق إلى اليوم.

هل أطلق عليهم اسم العرب لأنهم كانوا يسكنون موقع الغرب من أمة أخرى فحل فيها حرف العين محل حرف الغين كما يحدث فى بعض اللهجات؟

هل أطلق عليهم نسبة إلى يعرب بن قحطان أو نسبة إلى (عربة) من أرض تهامة كما يقول البعض؟ أن مؤرخى العرب يختلفون فى ذلك كما يختلف غيرهم(١٠٥).

نذكر هذه الخلافات لنقول أن وجود العرب فى ديارهم سابق لها متقدم عليها، وأن الثقافة العربية ينبغى أن تنسب إلى أمتها، قبل أن تسمى بهذا الاسم أو بذاك من الأسماء المختلفة عليها، فلا اختلاف على نسبة الثقافة إلى الأمة كائنا ما كان الاسم الذى عرفت به عند جيرانها،

وعند سائر الأمم التى تتحدث عنها، وتختار لها اسمها على حسب مصادره ومناسباته فى عرفها[١٠٦].

العرب إذن أمة أقدم من إسمها الذى تعرف به اليوم، لأنها على أرجح الأقوال أرومة الجنس السامى التى تفرع منها الكلدانيون والآشوريون والكنعانيون والعبرانيون وسائر الأمم السامية التى سكنت بين النهرين وفلسطين وما يحيط بفلسطين من بادية وحاضرة، وقد تتصل بها الأمة الحبشية بصلة النسب القديم مع اختلاط بين الساميين والحاميين. فهذه الأمم كلها تتكلم بفرع من فروع لغة واحدة هى أصل اللغات السامية، ويدل على تلك اللغة، إشتراك فروعها فى بنية الفعل الثلاثى الذى انفردت به بين لغات العالم بأسره وتشابه الضمائر والمفردات وكثير من الجذور والمشتقات، فضلا عن التشابه فى ملامح الوجوه وخصائص الأجسام، قبل أن يكثر التزواج بينها وبين جيرانها من الأمم الأسيوية أو الأفريقية[١٠٧].

وقد أخذ من أطلق التسمية (السامية)، تسميته هذه من التوراة[١٠٨] أخذها من اسم (سام بن نوح) جد هذه الشعوب الأكبر، كما هو وارد فيها، وأول من أطلقها وأذاعها بين العلماء علما على هذه الشعوب، عالم نمساوى إسمه (أوغست لودفيك شلوتزر) August Lufwig Schloetzer أطلقها عام ١٧٨١م فشاعت منذ ذلك الحين، وأصبحت عند العلماء والباحثين فى موضوع لغات الشرق الأدنى علما للمجموعة المذكورة من الشعوب. وقد أخذ (آيشورن) Eichorn هذه التسمية وسعى لتعميمها بين العلماء علما على الشعوب المذكورة[١٠٩].

وتساءل العلماء الباحثون فى الأجناس البشرية: من أين جاء الساميون الأول آباء الشعوب السامية؟ وأين كان موطنهم الأول وبيتهم القديم الذى ضاق بهم فى الدهر الأول، فغادروه إلى بيوت أخرى؟ أما أجوبتهم، فجاءت متباينة غير متفقة لعدم اهتدائهم حتى الآن إلى دليل مادى يشير إلى ذلك الوطن، أو يؤيد نظرية وجود مثل هذا الوطن،

فقامت آراؤهم على نظريات وفرضيات وبحوث لغوية وعلى آراء مستمدة من الروايات الواردة فى التوراة عن أصل البشر وعن أبناء نوح والأماكن التى حل بها هؤلاء الأبناء وأحفادهم ثم أحفاد أحفادهم، وهكذا على نحو ما تصوره مخيلة العبرانيين(١١٠).

فالتوارة تروى أن سفينة نوح عليه السلام قد رست بعد انحسار الطوفان على جبل (أراراط) فى هضبة أرمينيا(١١١)، ومن ثم تفرق أبناء نوح، فسارت (يافث) إلى الشرق، (وسام) إلى الجنوب، وسار (حام) إلى الغرب ومن ثم ذهب البعض إلى القول بأن بابل كانت مستقرا أول لبنى سام بعد تزاوجهم من أرمينيا.

ويرى آخرون أنه فى الوقت الذى دخل فيه الساميون العراق، كانت تلك البلاد آهلة بالسومريين المتمدينين، وأن الساميين فى سوريا أنشأوا مدنية أقدم من مدنية سامیی العراق، وأذن فبلاد كنعان هى المهد الأول للأمم السامية، أما البعض الآخر، فيعتقد أن الجنس السامى، وكذلك الحامى، كانا فى العصور القديمة فى أفريقيا، واعتمد على الصلات اللغوية بين اللغات السامية والحامية.

وإذا كان لنا أن نقدم مثالا لهذا الرأى، نجد د.أحمد كمال زكى، يبدأ أولا فيطلق اسم العرب القدماء على تلك السلالات جميعا كنعانية أمورية كانت أو أكادية أو بابلية أو حتى صفوية معينية، حتى من خرجوا منها إلى أفريقية وأطلق عليهم اصطلاح الحاميساميين Chamito Semites -. ويتوقف من هنا – فى نظره – الجدل الدائر حول: من يكون قاهر السومريين: أهم سكان الجبال فى نجد، وقد سماهم حمزة الأصفهانى بالأرمان أم الكنعانيون الذين هم أرمان أيضا ونزحوا إلى الغرب؟(١١٢).

إن السومريين أنفسهم – كما يرى باحثنا – يجيبون عن هذا السؤال، بتسمية من أتوهم وزاحموهم فى أرضهم بالأموريين، أى الغربيين،

وأمورو عندهم تعنى الغرب وإلى ذلك أشار كونتنو Conteneau، وهو يأخذ دليلا على سلامة التسمية المقترحة أن عدة من الباحثين كنولدكه وبارتون G. A. Barton فى كتابه عن أصول اللغتين السامية والحامية يرون أن أفريقية هى مهد الساميين، وذلك بناء على التشابه اللغوى الكبير بين السامية والحامية، ومن ثم لا يبرر أى اختلاف بينهما إلا لهجيا.

ومن ناحية أخرى، يرى باحثنا أن رحلة إبراهيم الخليل من حران إلى مكة عبورا بمصر، وكذلك رحلة ذى القرنين والخضر ثم رحلة الجرهمى التائه، وأخيرا رحلة جلجاميش والرحلات الجماعية التى يحفظها التاريخ لقبائل إياد وخزاعة وقضاعة، إنما كانت تتم فى أقليم يتم التخاطب فيه بسهولة بين أهله كافة، وكانت شائعة فيهم آلهة وثنية واحدة قيل أنها من تراث هذا الشعب أو ذاك، بل قيل أنها أتت من وادى النيل فيما أثبتته كتابات بلوتارك وثنى عليها مؤلفو كتاب (تاريخ العرب القديم) المنشور عام ١٩٥٨.

ولا يشكل أية صعوبة فى نظر باحثنا الاتفاق على أن كلمة العرب - من حيث هى مصطلح متميز - لم تظهر فى التاريخ إلا حديثا نسبيا، وذلك لأول مرة على نقش الملك الآشورى شلمنصر الثالث المتوفى سنة ٨٢٤ ق.م، يذكر فيه مملكة عربية يحكمها الملك جندبو. وفى عصر خلفه سناحريب Senacherib هوجمت مملكة حزائيل العربية أيضا بين سنتى ٦٨٨ و ٦٨١ق.م، فهرب حزائيل إلى أدوماتو - أدوم- بالنقب ولم يعد إلى عرشه إلا بعد أن أعلن ولاءه فى نينوى للملك Asarhaddon أسرحدون بن سناحريب الذى توفى سنة ٦٦٩ق.م.

بل يبدو أن الملكين العربيين إنما كانا من البدو، حتى ليظن أن رسم لفظ (عربى) الذى اختلف العلماء فى كيفية النطق به - عروب، عريبى، عمريبو، عُربى، عَرُبى - إنما كان يدل على البداوة، وأيدت هذا البعد وحده، التوراة.

ومع ذلك فليس ما يضير – كما يرى – إن جعلنا كل أولئك مرادفا أو قرينا لكلمة (عرب)، فمن قبل، أطلق التلمود كلمة (طى) التى وردت فى نصوص آرامية – Tayayo و Taiy خاصة بقبيلة طيئ فقط – على العرب جميعا(١١٣).

وأخيرا هناك الرأى الذى يقول أن أواسط الجزيرة العربية منذ عصور ما قبل التاريخ كانت آهلة بالسكان، وأن منها ابتدأت هجرة الساميين إلى أطراف الجزيرة وما وراءها(١١٤). وممن يؤيد هذا الرأى، جورج سميث Goerge Smith إذ يذكر فى كتابه (الجغرافية التاريخية للأرض المقدسة) أن الشام هو الطرف الشمالى للوطن السامى الأكبر، وهو جزيرة العرب. وآخر معضدى هذا الرأى أيضا، الأستاذ فلبى Philby الذى أصدر كتابا عن عصر ما قبل الإسلام سنة ١٩٤٧ فقد ذكر فى فاتحة هذا الكتاب وعنوانه Background of Islam ما نصه: "إلى أن يثبت أن الساميين جاءوا إلى بلاد العرب من بلاد غيرها، يلزمنا أن نعتبر جزيرة العرب الوطن الأصلى للساميين ولعله من الممكن تحديد هذا الوطن فى القسم الجنوبى من هذه الجزيرة".

ونحن إذ نرجح هذا الرأى الأخير إنما نعتمد فى ذلك على الأدلة الآتية:

١- أن التحول من معيشة الرعاة إلى معيشة الحرث والزرع والإقامة فى المدن، طور من أطوار التاريخ المعهودة، وليس من أطواره المعهودة أن يتحول الناس إلى معيشة الرعاة الرحل ببوادى الصحراء بعد الإقامة فى الحواضر والبقاع المزروعة.
٢- أن الجزيرة العربية فى عزلتها المعروفة – أشبه المواقع بالمحافظة على أصل قديم وهى كذلك أشبه المواقع أن تضيق فيها موارد الغذاء عن سكانها فيهجروا إلى أودية الأنهار القريبة.
٣- إن اتجاه الهجرة من ناحية البحرين وناحية الحجاز متواتر فى الأزمنة القريبة والبعيدة وأقربها ما حدث بعد الإسلام فى وقت

واحد من زحف العرب على العراق وزحفهم على الشام فى عهد أبى بكر. وليس لدينا ما يمنع أن يكون التاريخ الحديث دليلا على التاريخ القديم، ولا سيما إذا خلا التاريخ كل الخلو من رواية يقينية أو ظنية تومىء إلى هجرة النهريين وسكان الأودية إلى الجزيرة العربية فى زمن بعيد أو قريب.

إن معظم سطح الجزيرة صحراء بها حافة ضيقة من الأرض التى تصلح للسكن ويحيط البحر بهذه الحافة نفسها، فإذا ما زاد عدد السكان عن طاقة الأرض لاحتمالهم كان على الفائضين أن يبحثوا لهم عن مدى حيوى يعيشون فيه[١١٠]، ولم يكن باستطاعتهم التوسع فى وسط البلاد وهو صحراء، ولا اجتياز البحر حين لم يكن فى تلك الأزمان من وسائل لذلك. فلم يبق إلا أن يسلكوا طريق الساحل الغربى من الجزيرة نحو الشمال حيث يتفرع عند شبه جزيرة سيناء إلى وادى النيل وقد سلك هذا الطريق أو طريق أفريقية الشرقية مهاجرون ساميون حوالى سنة ٣٥٠٠ ق.م، واستقروا فى مصر مع سكانها الحاميين، وفى تلك الغضون أى فى أواسط الألف الرابع قبل الميلاد، اندفعت إلى الشمال موجة أخرى من المهاجرين سلكت طريقا شرقيا موازيا للآخر واستقرت فى وادى الرافدين الذى كان يسكنه فى ذلك الزمن شعب عريق المدنية هم السومريون.

وحوالى منتصف الألف الثالث ق. م، حدثت هجرة سامية أخرى حملت الأوربيين إلى الهلال الخصيب، وكان بين العناصر التى تألفت منها هذه الموجة الجديدة، الكنعانيون، وقد حلوا غربى الشام وفلسطين بعد ٢٥٠٠ ق.م والساحليون الذين سماهم الأغارقه، الفينيقين[١١١].

وبين سنتى ١٥٠٠ و ١٢٠٠ ق.م، تسرب العبرانيون إلى جنوب الشام أى فلسطين، وتسرب الآراميون (السريان) إلى الشمال، إلى سهل البقاع وحوالى سنة ٥٠٠ ق.م نزل الأنباط الأرض الواقعة إلى الشمال

الشرقى من شبه جزيرة سيناء وجاء القرن السابع للميلاد فإذا نحن أمام موجة جديدة هى آخر الهجرات، وقد جرت تحت راية الإسلام(١١٧).

وهكذا ترجح بحوث متعددة فى حضارة الجزيرة العربية، وفى الأدب الجاهلى، وفى الشعر العربى، وفى اللغة وخطوطها، وفى الأديان وقصص الأنبياء، وفى الملاحة العربية ونصيب السواحل القريبة منها أن سكان المناطق المتوسطة من الجزيرة كانوا مع الطليعة التى أسست الحياة الإنسانية ومهدت السبيل فى البر وفى البحر للحضارة العربية(١١٨).

ففى وادى القرى وسواحل البحر الأحمر، وفى اليمامة وسواحل الخليج، عاشت شعوب عاد، وثمود، والعماليق، والدادانيون، والمدينيون، والكنعانيون، وطسم، وجديس وغيرها من الأمم الغابرة وكل هذه الأمم اعتبرت من الأمم البائدة، ومن هذه الأمم أمم يرجع تاريخها إلى ما قبل الألف الثالثة قبل الميلاد، مثل: الكنعانيين الذين عاشوا فى اليمامة وعلى شواطئ الخليج قبل هجرتهم إلى سورية، ومثل الشعوب الإرمية والعمليقية التى عاشت فى وادى القرى وفى مكة والمدينة قبل أن يهاجر إبراهيم إلى سوريا، ويرفع قواعد البيت الحرام فى الحجاز. ولكل من هذه الأمم آثار كشف التنقيب عن بعضها فى اليمامة وفى وادى القرى ولا يزال بعضها دفينا فى جوف الصحراء الصامتة.

ونحن إذا تأملنا بالأدلة التى تؤكد أن الوطن الأول للجنس السامى العربى هو قلب الجزيرة العربية، وأن العرب الذين عاشوا فى نجد والحجاز منذ العصر الحجرى كانوا قد سبقوا سكان الواديين - فى رأى البعض - (النيل والفرات) فى استئناس الحيوانات واستنبات الحبوب، وأن العرب الذين أسسوا الدول الإرمية والعمليقية فى العراق وفى سورية، وفى مصر، كانوا أصحاب حضارة ولغة وعقائد بدليل الحضارة العربية فى العراق التى تغلبت على الحضارة السومرية،

وبدليل الحضارة العربية فى مصر التى تبدو واضحة فى لغة الفراعنة وفى آثار دلتا النيل وصحراء سيناء، ونحن إذا رجعنا هذه الأدلة، لا نكون خياليين إن قلنا، أن ماضى العرب القديم لم يكن مظلما كما صوره الكثير من المؤرخين.

وإذا كان ما سبق قد لا يثور حوله خلاف كبير، فإن الخلاف قد يزيد بالنسبة لأمر آخر هو تحديد زمن الأحداث وعصور الأنبياء والملوك، وأن الذى أعجز كثيرين هو معرفة المدى الذى بلغته الحضارة العربية فى قرونها الأولى، فقد يثبت تاريخ دولة ما عند مؤرخ بنص من النصوص، فيؤكد ذلك المؤرخ، أن تاريخ الدولة يبدأ بموجب النص الذى وصل إليه فى عام كذا قبل الميلاد أو بعده، ويعثر مؤرخ آخر على نص غير الذى عثر عليه غيره، فيحدد تاريخا آخر(١١٩).

وإذا أردنا أن نحدد التاريخ الحقيقى لقلب الجزيرة العربية، فليس لدينا دليل أقوى وأثبت من البيت الحرام، الأثر الخالد على مر الأجيال.

ويرجع العرب أصلهم إلى ذرية إبراهيم، وقحطان وإسماعيل هما جدا العرقين الذين يعمران جزيرة العرب، ويسكن أحدهما جنوبها ويسكن الآخر شمالها، ويسميان عادة بالعرب المتعربة، والعرب المستعربة، وهذا كان تجاه العرب العاربة اللذين يجئ فى الصف الأول منهم قوم (عاد) والعمالقة، فيرى فريق أن هؤلاء من ذرية سام ويرى فريق آخر أنهم من ذرية حام، واستقر العرب المتعربة أو بنو قحطان باليمن فأقاموا فيها دولة سبأ ودولة حمير، وداوم سكان البرارى على التكلم بلغة الحجاز ونجد التى هى لغة العرب العاربة، وكان أهل المدن فى اليمن يتكلمون بلغة حمير التى تعلمها بنو قحطان من أجدادهم، وكان ظهور العرب المستعربة بعد بنى قحطان بزمن طويل(١٢٠).

وتتعدد روايات مؤرخى الإسلام فى تفسير الظروف التى لابست هجرة اسماعيل إلى مكة ونزوله فيها على أمه وأبيه وهى فلاة، لا تنبع فيها قطرة ماء[١٣١]، ولكنهم يتفقون على أن إبراهيم عليه السلام ما كاد يودع إسماعيل هذه القفار حتى توجه يدعو الله: ﴿ربنا انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم﴾، كما يتفقون على أن إسماعيل عليه السلام ما كاد يرهقه العطش حتى ظهر لأمه نبع زمزم فشربت وأروته.

وجاء إبراهيم عليه السلام ليتفقد ابنه ويبلغه أن الله يأمر ببناء البيت الحرام ويتفقا على رفع قواعده حيث بدت لهم علامات خاصة فى القطعة المختارة للبناء على خطوات من بئر زمزم[١٣٢] ﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم﴾.

ولم يكد بنو إسماعيل يزيدون عددا حتى انفصل بعضهم عن بعض، فأسفر ذلك عن ظهور قبائل كثيرة مستقلة ذات نظم متماثلة، بدلا من قبيلة واحدة، ومن هذه القبائل من اختارت لها مستقرا، ورأى أكثرها العيش تحت الخيام فى الصحراء مفضلا البداوة على غيرها.

هوامش الفصل الأول

١-غوستاف لوبون، حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٥٦، ص٨٧.
٢-المرجع السابق. ٣- المرجع السابق، ص٨٨.
٤-أمين مدنى، التاريخ العربى وبدايته، تهامة، جدة، ١٩٨١، ص٥٦.
٥-ول ديورانت، قصة الحضارة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٧١، جـ٢، ص٤٣.
٦-محمد بيومى مهران، تاريخ العرب القديم، دار المعرفة الجامعية،الإسكندرية، ١٩٨٨، ص١٣.
٧-رواه الطبرانى عن ابن عمر، وروى الترمذى مثله وقال حديث حسن.
٨-الممتحنة/٤.
٩-محمد بيومى مهران، ص١٥.
١٠- البقرة/١٢٦. ١١- البقرة/١٢٩.
١٢- جورجى زيدان، العرب قبل الإسلام، دار الهلال، بدون تاريخ، القاهرة، ص١٠٧.
١٣- محمد أسعد طلس، تاريخ الأمة العربية، عصر الانبثاق، مكتبة الأندلس بيروت، ١٩٥٧، ص١٤٢.
١٤- أحمد فخرى، مصر الفرعونية، الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٢، ص٣٧.
١٥- أنيدلا مونت ميدوكروفت، هبة النيل، تاريخ مصر القديمة، ترجمة على فخرى، دار إحياء الكتب العربية - القاهرة، بدون تاريخ ص٢٢.
١٦- جواد على، المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٩، جـ١، ص١١٠.
١٧- جورجى زيدان، العرب قبل الإسلام، ص١٧.
١٨- المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ١، ص١١٠.
١٩- محمد بيومى، تاريخ العرب القديم، ص٦.
٢٠- صحيح مسلم ٧٨/١ (باب كون الإسلام يهدم ما قبله، وكذلك الهجرة والحج).
٢١- نوح/٢٣. ٢٢- فصلت/٣٧. ٢٣- النجم/١٩-٢٠.
٢٤- محمد بيومى مهران، ص٨.
٢٥- المرجع السابق، ص٩.
٢٦- دائرة المعارف الإسلامية، مادة (علم التاريخ)، جـ٤، ص٤٩١.
٢٧- أمين مدنى، التاريخ العربى ومصادره، دارالمعارف، القاهرة، ١٩٧١، جـ٢، ص٢٩
٢٨- دائرة المعارف، جـ٤، ص٤٩٢.

٢٩- عبد الرحمن بن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر، دار الكتاب اللبنانى، بيروت، ١٩٥٦، م٢، ق١، ص١١.
٣٠- المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ١، ص١١٨.
٣١- صحيح مسلم، (طبعة الحلبى)، جـ١، ص٢٢٩٨.
٣٢- الخطيب البغدادى، تقييد العلم، حققه يوسف العش، دار إحياء السنة النبوية، المكان غير مذكور، ١٩٧٥، ص٥٢.
٣٣- المرجع السابق، ص٥٥.
٣٤- ابن عبد البر، مختصر جامع بيان العلم وفضله، المكتبة العلمية، المدينة المنورة، بدون تاريخ، جـ١، ص٧٥.
٣٥- المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ١، ص٥٢.
٣٦- المرجع السابق، ص١١٦.
٣٧- محمد كرد على، الإسلام والحضارة الغربية، لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٨، جـ١، ص٥.
٣٨- عباس محمود العقاد، ساعات بين الكتب، النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٠، جـ١، ص١٠٢.
٣٩- المرجع السابق.
٤٠- ديتلف نيلسن وآخرون، التاريخ العربى القديم، ترجمه واستكمله د. فؤاد حسنين على، النهضة المصرية، ١٩٦٨، ص٢٤٦.
٤١- ناصر الدين الأسد، مصادر الشعر الجاهلى، وقيمتها التاريخية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٩، ص١٣.
٤٢- سبأ/١٥. ٤٣-سبأ/١٨. ٤٤- سبأ/٤٥.
٤٥- الشعراء/١٢٨-١٣٤. ٤٦- الشعراء/١٤٦-١٤٩. هضيم: لطيف لين.
٤٧- العنكبوت/٣٨. ٤٨-الفرقان/٤٠. ٤٩- طه/١٢٨.
٥٠- الروم/٩. ٥١- غافر/٢١. ٥٢- آل عمران/١٥٤
٥٣- المائدة/٥٠. ٥٤-الأحزاب/٣٣. ٥٥- الفتح/٢٦.
٥٦- الطبرى، جامع البيان عن تأويل آى القرآن، حققه محمود محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، جـ٧، ص٣٢.
٥٧- المرجع السابق، جـ١٠، ص٣٩٤.
٥٨- المرجع السابق، (طبعة الحلبى ١٩٥٤)، جـ٢٢، ٤، ٥.
٥٩- المرجع السابق.
٦٠- على الجندى، تاريخ الأدب الجاهلى، الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٩، جـ١، ص١٣.
٦١- السيد محمود شكرى الألوسى، بلوغ الإرب فى معرفة أحوال العرب، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ١٣٤٢هـ، جـ١، ص١٦.
٦٢- المرجع السابق، ص١٧.

٦٣- الأنعام/١٤٠. ٦٤- الفرقان/٦٣.
٦٥- على الجندى، طبعة دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٥، ص١١.
٦٦- عبد الله عبد الجبار، ومحمد عبد المنعم خفاجى، قصة الأدب فى الحجاز فى العصر الجاهلى، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ١٩٨٠، ص١١٣.
٦٧- المرجع السابق، ص١١٤.
٦٨- محمد بيومى مهران، ص٢٢.
٦٩- المفصل، ص٥٦.
٧٠- محمد بيومى مهران، ص٣٠.
٧١- محمد مبروك نافع، تاريخ العرب، عصر ما قبل الإسلام، مطبعة السعادة بمصر، ١٩٥٢، ص١.
٧٢- طه حسين، فى الأدب الجاهلى، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٥، ص٧١.
٧٣- المرجع السابق، ص٧٢. ٧٤- المرجع السابق، ص٧٤.
٧٥- محمد بيومى محمد مهران، ص٣٢.
٧٦- المرجع السابق، ص٣٣.
٧٧- محمد مبروك نافع، ص٤.
٧٨- المفصل، جـ١، ص٥٦.
٧٩- عبد المنعم ماجد، التاريخ السياسى للدولة العربية، الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٥، جـ١، ص١٥.
٨٠- المفصل، جـ١، ص٤٤.
٨١- المسعودى، التنبيه والإشراف، دار الصاوى، القاهرة، ١٩٣٨، ص١٧٢.
٨٢- الطبرى، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٧، جـ١، ص١٩٣.
٨٣- مقدمة بن خلدون (طبعة المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة)، ص١٧٧.
٨٤-الجاحظ، الحيوان،تحقيق عبد السلام هارون،القاهرة ١٩٣٨-١٩٤٧،جـ١، ص٧٢.
٨٥- كعبة نجران، بيعة بناها بنو عبد المداد بن الديان الحارثى، على بناء الكعبة وعظموها مضاهاة للكعبة، وكان فيها أساقفة معتمون، وهم الذين جاءوا إلى النبى ﷺ.
٨٦- نافع، ص ٦-٨.
٨٧- نيلسن، ص٢-٣.
٨٨- المرجع السابق، ص١٢. ٨٩- المرجع السابق، ص٢٠.
٩٠- نافع، ص٥.
٩١- المفصل، جـ١، ص ٧٣، ٧٤.
٩٢-مقدمة طه حسين لـ(فجر الإسلام)، تأليف أحمد أمين، النهضة المصرية ١٩٦٥
٩٣-على العتوم، قضايا الشعر الجاهلى،مكتبة الرسالة الحديثة،عمان،١٩٨٢، ص١٤.
٩٤- على الجندى، (١٩٨٥)، ص١٧٤.

٩٥- المرجع السابق، ص١٧٥.
٩٦- إبراهيم عبد الرحمن، الشعر الجاهلى، قضاياه الفنية والموضوعية، مكتبة الشباب، القاهرة، ١٩٨٤، ص١١٥.
٩٧- شوقى ضيف، العصر الجاهلى، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٢، ص١٦٧.
٩٨- طه حسين، فى الشعر الجاهلى، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٢٦، ص٧.
٩٩- على العتوم، ص٦٥.
١٠٠- إبراهيم عبد الرحمن، ص٧٥.
١٠١- كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربى، ترجمة عبد الحليم النجار، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٧، جـ١، ص٦٧.
١٠٢- المرجع السابق، ص ص٧٢، ٧٤، ٧٥.
١٠٣- عباس محمود العقاد، الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين، وزارة الثقافة والارشاد القومى، القاهرة، سلسلة المكتبة الثقافية (١)، د.ت، ص٨.
١٠٤- المرجع السابق، ص٩. ١٠٥- المرجع السابق، ص١٠.
١٠٦- المرجع السابق، ص١١.
١٠٧- عباد محمود العقاد، أثر العرب فى الحضارة الأوربية، دار المعارف، ١٩٦٤، ص٥.
١٠٨- سفر التكوين، الإصحاح العاشر.
١٠٩- المفصل، جـ١، ص٢٢٣.
١١٠- المرجع السابق، ص٢٢٩.
١١١- سفر التكوين، الإصحاح الثامن.
١١٢- أحمد كمال زكى، الشعر العربى وملحمية الساميين، مجلة (فصول)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، م١٤، ع٢، صيف ١٩٩٥، ص٧.
١١٣- المرجع السابق، ص٨.
١١٤- نافع، ص١٠،١١.
١١٥- فيليب حتى وآخرون، تاريخ العرب (مطول) دار الكشاف، بيروت، ١٩٦١، جـ١، ص١٠.
١١٦- المرجع السابق، ص١١. ١١٧- المرجع السابق، ص١٢.
١١٨- أمين مدنى، ص٢٨٧.
١١٩- المرجع السابق، ص٢٨٩.
١٢٠- ل.أ. سيديو، تاريخ العرب العام، نقله إلى العربية عادل زعتير، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٦٩، ص٣٠.
١٢١- أحمد السباعى، تاريخ مكة، دار مكة للطباعة والنشر، مكة، ١٩٧٩، ص١٨.
١٢٢- المرجع السابق، ص١٩.

الفصل الثانى

الأبعاد الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع العربى فى الجاهلية

دراسة الأبعاد الاقتصادية والاجتماعية، دراسة للتربية:

عندما يكتب مؤرخ التربية عن الأبعاد الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع الذى يؤرخ لتربيته، فإن هدفه وفلسفته تختلفان إلى حد كبير عن هدف وفلسفة من يكتب عن هذه الأبعاد من مؤرخى الأدب أو الفن أو الدين أو غير ذلك من الجوانب، فمؤرخو هذه الجوانب يعتبرون هذه الأبعاد بمثابة (المقدمات) أو(الخلفية) وهذا يضعها – على أهميتها – فى مرتبة ثانية من تأريخ الجانب الذى يؤرخون له. أما دراسة هذه الأبعاد بالنسبة لمؤرخ التربية، فإنها لا تعد مجرد (مقدمات) و(خلفيات)، أنها أساسيات، ذلك أن التحليل الحقيقى لمعنى التربية، يجعلها – كما سبق أن أشرنا – تكاد تكون مرادفة لمعنى (الحياة) فالبيئة بمعناها الواسع تحتوى العديد من المقومات التى تؤثر على سلوك الإنسان فتكسبه معانيه وفلسفته وتشكل دوافعه وترسم أهدافه، ومن ثم فهى (تربية)، وهذا هو ما نريد إبرازه ونقصد تأكيده لأنه حقيقة، والحقيقة لا تحتاج إلى تأكيد، وإن احتاجت أحيانا إلى (إشارة).

وإذا كان هذا يصدق عامة على كافة العصور وفى كل المجتمعات فهو أصدق فى المجتمع الذى نؤرخ له وفى العصر الذى نكتب عنه، ففى مجتمعات عديدة، وفى عصور مختلفة، تميز جزء معين من التربية، أصبحنا نطلق عليه (التعليم)، وهو ذلك التأثير المنظم المقصود على سلوك الإنسان والذى يتم فى أماكن معينة وعلى أيدى متخصصين وفقا لقواعد ونظم تتفق عليها، أما فى مجتمعنا الجاهلى، فقد كانت (التربية) بمعناها الواسع هى القائمة.

ومن ثم فإن هؤلاء الذين ينتقدون التوسع بعض الشيء في الكتابة عن الأبعاد الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع عند التأريخ لتربيته، لا يضعون أمام أعينهم هذا الفرق بين مجتمع وعصر، لم يعرف التعليم فيه بالمعنى السابق، وإنما عرف التربية بمعناها المرادف للحياة، وبين مجتمع وعصر عرف التعليم المنظم بجانب التربية، هذا بالاضافة إلى أن المجتمعات القديمة لم تعرف التخصص بحيث يصعب على الباحث دراسة جانب من حياتها دون الآخر، بعكس المجتمعات الحالية التى عرفت التخصص بحيث لا يصعب دراسة جانب، بل شريحة من جانب دون أخرى.

وفى ضوء هذا نستطيع أن نتقدم لعرض الأبعاد الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع العربى فى العصر الجاهلى فى الخطوط الموجزة الآتية:

التكوين السياسى:

لم تكن بلاد العرب فى العصر الجاهلى دولة عربية بالمعنى الذى نفهمه الآن من الدولة، فإن الدولة State من حيث هى نظام منفصل عن الجماعة ومستقل عنها فى وظيفته، ومن حيث أن لهذا النظام سلطانا يخضع له الناس لم يكن موجودا فى بلاد العرب، وإنما كانت الدولة عندهم هى الجماعة فى جملتها، ولم تكن هيئة لها نظامها الخاص ولا كانت لها أرض محدودة، فليس هناك موظفون يديرون شئون الجماعة بالمعنى الذى نعرفه فى الدولة بل كان هناك كيان اجتماعى طبيعى بالغ درجة النماء عرف باسم (القبيلة)(١).

أما مفهوم الأمة عندهم، فلم تكن تتميز عن الأسرة إلا أنها أكبر، وكانت اللحمة التى تؤلف بين أفرادها هى نفس اللحمة التى تربط بين أفراد الأسرة وتعنى لحمة الدم(٢). وكانت كل قبيلة بمثابة دولة مستقلة لها كيانها الخاص الذاتى،شعبها يتكون من أفرادها فقط، لها وطنها

وحرمها الذى تحافظ عليه وتدافع عنه وتحميه، وذلك كان يسمى (الحمى). وهذا الحمى، كان حرما للقبيلة لا ينبغى أن يمسه أو يقترب منه أجنبى، مثله مثل حدود الدولة فى عصرنا الحاضر. وكان أفراد القبيلة يتعاونون ويتساندون فى الحفاظ على شرف القبيلة وحماها، وهم متساوون فيما بينهم، ولا يعتبر غيرهم أعلى منهم، أو حتى مساويا لهم، ولا يدينون بالطاعة إلا لرئيس قبيلتهم. كانت وطنية قبلية لا وطنية شعبية، كما كانت الحرية التى يتغنون بها ويتمسكون حرية شخصية لا حرية اجتماعية، وكان على القبيلة فى مجموعها أن تحمى كل فرد من أفرادها وتدافع عنه ظالما أو مظلوما[٣].

وقد وجد نظام حضرى قام فى أطراف الجزيرة العربية، فقد قامت ممالك اليمن فى الجنوب، كما قامت مملكة غسان فى الشمال الغربى، ولكن القبيلة كانت وحدة النظام السياسى والاجتماعى فى هذه الممالك، فلم تنصهر الجماعة فيها فى شعب واحد كالشعب المصرى مثلا وإنما ظلت القبائل وحدات قائمة متمسكة بكيانها[٤]، وذلك لشدة (العصبية) القائمة بين أفراد كل قبيلة، وهكذا يمكن القول أن هذه (العصبية) قد ساعدت إلى حد كبير على عدم تكوين مجتمع واحد كبير، وكان على رأس كل قبيلة أو رهط مجلس مؤلف من رؤساء الأسر أو رؤساء الرهط تبعا لمقياس القبيلة، وإلى هذا المجلس تعود مناقشة جميع القضايا التى تهم القبيلة[٥]، وإلى هذا يشير زهير بن أبى سلمى إذ يقول مقول فى مدح هرم بن سنان[٦]:

وفيهم مقامات حسان وجوههم	وأندية ينتابها القول والفعل
وإن جئتهم ألفيت حول بيوتهم	مجالس قد يشفى بأحلامها الجهل

وكان لكل مجلس رئيس هو شيخ القبيلة، وهو شخصية فذة يختارها الجميع ليكون المعبر بلسان جماعتهم والمنفذ لإرادتهم، فكانت أوامره مستمدة من مداولات المجلس وهو بعبارة أوضح منفذ، مزود بسلطة ايحائية، وعليه بعد استشارة القدماء والذوات أن يقود جماعته إلى

المعارك وأن يستقبل الوفود، وأن يشرف على مفاوضات الصلح والمخالفات وإشهار الحرب وإضافة الضيف ...[٧].

ولم تكن رئاسة القبيلة على هذا وراثية، ويفلسف ابن خلدون هذا الوضع فيقول أن الرياسة تأتى من قوة العصبية وشرف النسب والخلال الكريمة وهذه خلال تضعف من الابن إلى الحفيد، حتى إذا كان الرابع، قصر عن طريقتهم جملة وأضاع الخلال[٨].

وإلى هذا يشير عامر بن طفيل أحد سادات العرب في الجاهلية:

وأنى وإن كنت ابن سيد عامر وفارسها المشهور فى كل موكب
فما سودتنى عـامر عن وراثة أبى الله أن أسمو بـأم ولا أب
ولكننى أحمى حمـاها وأتقى أذا ها وأرمى من رمـاها بمنكبى[٩].

ولم يكن هناك إطلاقا أى منهج منظم للإدارة والقضاء كذلك كالذى نعرفه عن فكرة الحكومة فى العصر الحديث[١٠].

وكما يتجلى المظهر الديمقراطى فى اختيار شيخ القبيلة وهو رأس حكومتها، كذلك يتجلى فى رقابة الجماعة على هذا الرئيس، وهذه الرقابة تتمثل فيما يسمونه (مشيخة القبيلة) أو مجلسها الذى يجمع رجالها بفضائلهم الذاتية.

ولقد كانت مشيخة القبيلة هى الركن السامى حقا فى نظام القبيلة العربية، إذ أن سلطة رئيس القبيلة كانت محدودة بواسطة هذا المجلس الذى يمثل الرأى العام فى القبيلة[١١].

وكانت مشيخة القبيلة تتألف من أصحاب الرأى فيها، وهنا نجد الكفاية والفضائل الذاتية هى المرجع، فشاعر القبيلة من أفراد هذا المجلس، بل هو فى مقدمة رجاله، إذ أنه هو الذى يتغنى بمناقب القبيلة، ويرثى موتاها، ويهجو أعداءها، ويدافع عنها بلسانه، وسلاحه هذا

أمضى من سلاح السيف وأفتك فى الخصم من السهام، ولذلك كانت القبيلة تفرح إذا نبغ فيها شاعر وتعتز به وتحفظ شعره، وكانوا يجعلون موهبة الشعر من صفات الكمال، فالرجل إذا كان شاعرا شجاعا، كاتبا سابحا راميا دعى الكامل لوجود هذه الخصال فيه، وكذلك الخطيب، وهو لسان القبيلة فى منافراتها ومناظراتها. ثم حكامها الذين يفصلون فى الأقضية بين الناس ويحكمون بينهم إذا تشاجروا فى الفضل والنسب والمواريث والدماء. ثم كان من رجال المجلس، الشجعان المشهورون بالفروسية، وبعض الأفراد من أصحاب المكانة كالكاهن والعراف والقصاص، هذا بالاضافة إلى شيوخ العشائر وكبار السن فى القبيلة ممن اكتملت لهم تجارب الحياة. كل هؤلاء يمثلون مشيخة القبيلة، ومن اجتماعهم تكون السلطة التى يرجع إليها سيد القبيلة.

ومن دراسة نظام الحكم فى القبيلة نستطيع أن نستنتج الآتى[١٢]:

١- أن الحاكم والرئيس كان يتحدد بمحض اختيار القبيلة ولا يجبر عليهم إجبارا إلا فى ظروف معينة، لأننا نجد أنواعا من الرئاسة الإجبارية، كما يحدث فى تعيين ملوك الغساسنة بالشام أو المناذرة بالحيرة، فكان كسرى، مثلا، يعين الأخيرين.
٢- أن اختيار الحاكم بناء على صفات بطولية موجودة فى هذا الرجل، صفات أخلاقية شرفية، وليس لمجرد عصبية معينة.
٣- أن هذا الاختيار لا يحد من الحرية الشخصية للبدوى، لأن الحياة فى الصحراء تفرض المساواة، فإن كانت الشعوب تفخر بقوميتها، فإن سكان الصحارى من البدو يحق لهم أن يفخروا بحريتهم الشخصية، وهذه الحرية الشخصية لا تتعارض مع الخضوع لهذا الرئيس، لأن العلاقة هنا بين الحاكم والمحكوم ليست علاقة سيد بمسود، بل علاقة تبعية واحترام وتقدير وتنظيم.
٤- من هذا الوضع نشأ البطل، سواء فى أفراد المجتمع أنفسهم، أم فى الرئيس أو الحاكم، نشأ البطل العربى فى ظل النظام والقيود، لأن الفوضى لا تنتج أبطالا، بل همجا برابرة، ولذا كان الرئيس بطلا

بصفاتـه واسـتحقاقه، وكـان المرءوس بطـــلا بصفاتــه واســتحقاقه بالخضوع والتقيد بالنظام القبلى[١٣].

ولم يكن هذا النظام متحجرا دكتاتوريا، فبما أن الأفراد هم الذين يعينون رؤساءهم، فالحاكم هو أول خاضع للقانون، وفى حالة طغيانه أو جبروته أو انحرافه عن سنن ذلك القانون القبلى يحاسب ويعزل وأحيانا يقتل كما حدث لحجر أبى أمرئ القيس فى بنى أسد، وليس بغريب إذن أن يكون عصيان الحاكم الطاغى مفخرة، فيقول عمرو بن كلثوم[١٤].

وأيـــــــام لنا غر طـــوال | عصينا الملك فينا أن ندينا
إذا ما الملك سام الناس خسفا | أبينا أن يقر الخسف فينـا

ويمدح الأعشى هوذة بن على الحنفى بقوله:

إلى ملك كهلال السمـــا | ء أزكى وفاء ومجـــــدا وخيرا
طويل النجاد رفيع العمـــا | د يحمى المضـــاف ويعطى الفقيرا
أهوذ وأنت امروء ماجد | وبحرك فى الناس يعلوا البحورا

ومن خلال حديث الخنساء عـن أخيهـا (صخـر) الذى فقدتـه، نلمس مجموعة الصفات التى تجعل من العربى سيدا فى قبيلته، فهى تقول[١٥]:

وإن صخرا لوالينا وسيدنا | وإن صخرا إذا نشتو لنحار

فهى بعد أن تتحدث عن وجدها على أخيها، قالت أنه كان مولاهم يرعاهم، وكان سيدا كريما، وهو الذى إذا ما أقبل الشتاء واستقر كل فرد فى بيته يعيش مما جمع، وإبان تشتد على الناس وطأة الحاجة إلى الطعام نرى صخرا يبذل المعروف ويطعم الناس. يضاف إلى هذا أنه فى حالتى السلم والحرب:

وإن صخرا لمقدام إذا ركبوا | وإن صخرا إذا جاعوا لعقار

نراه شجاعا يتقدم الصفوف فى الغارات والحروب، ومطعما للناس إذا جاعوا واشتد بهم البلاء، ينحر لهم من نعمه ما يغنيهم من جوع، فهو مثل أعلى:

وإن صخرا لتأتم الهداة به ... كأنه علم فى رأسه نار

بلغ من السمو وكريم الخصال ونبل الأخلاق ما جعله مشهورا فى موضعه، شهرة تجذب الناس إليه، مثله كمثل العلم أى الجبل الذى توقد على قمته النيران ليهتدى بها السارى فى الصحراء، الذى يتحسس الطريق فى دجى الليل فى بيداء لا أنيس فيها ولا طارق، فتكون النار هدى لمن ابتغى الهداية، فكذلك صخر يتخذه كل باغ لملاذ وطالب النجاة ولقد فتن هذا المعنى الناس على مر العصور والأزمان، وبلغ الاعجاب به جدا أن ذهب مثلا(١٦).

ويصور شعر الأفوه الأودى واسمه (صلاءة بن عمرو) شدة حرص القبيلة على أن يكون لها سيد يجمع أمورها ويقودها إلى ما فيه عزها ورفعتها(١٧):

والبيت لا يبتنى إلا لـه عَمَدُ ... ولا عماد إذا لم ترس أوتـاد

فإن تَجمّع أوتـاد وأعمـدة ... وساكن بلغوا الأمر الذى كادوا

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ... ولا سراة إذا جهالهم سـادوا

تبقى الأمور بأهل الرأى ما صلحت ... فإن تولت فبالأشرار تنقـاد

إذا تولى سراة القوم أمرهـم ... نما على ذاك أمر القوم فازدادوا

وللزعماء فى المجالس القبلية أثر خطير فى الحياة، فبحنكتهم السياسية وبحكمتهم وكناياتهم تقرر الأمور، ورب كلمة من زعيم أو هفوة منه تثير حربا أو تسبب كارثة له ولقبيلته أو للحلف الذى يتزعمه، ذلك أن أعصاب رجال البادية مرهفة حساسة تثيرها الكلمة ولاسيما إذا كانت تتعلق بالشرف والجاه(١٨).

وشيخ القبيلة إذا كان ضعيفا أثر ضعفه فى قبيلته، وإذا كان قويا أثرت قوته فى القبيلة، وقد تقوم الزعامة بما تعجز عنه الكثرة وبما يندر به عدد القبيلة، ولهذا تكون مكانة القبيلة أو الحلف بمكانة الرئيس، ولهذا أيضا نجد قبائل تظهر فجأة فتجتاح القبائل الأخرى وتتزعمها، ونجد قبيلة تتضاءل وتنهار فجأة فتتجزأ وتذوب أو تذبل لأن زعيمها ضعيف الشخصية خائر القوى.

شرائح التركيب الاجتماعى:

أولا: أقسام العرب: اتفق الرواة وأهل الأخبار، أو كادوا يتفقون على تقسيم العرب من حيث القدم إلى ثلاثة أقسام كبرى، سماها بعض المؤرخين، طبقات، وهى:

١- **العرب البائدة،** وإذا كان جمهرة المؤرخين المستشرقين يعتقدون أن هذه الطبقة ليست من التاريخ فى شىء، وأنها جزء من الميثولوجيا العربية أو التاريخ الأسطورى، إلا أن الكشوف الحديثة مكنت العلماء من الحصول على بعض المعلومات عنها، وقد انفرد القرآن الكريم بذكر قوم (عاد) ونبيهم هود عليه السلام[١٩] و(ثمود) وهم قوم صالح عليه السلام، وقد ورد ذكرها فى القرآن[٢٠]. وقد ذكر الطبرى أن أمرهم عند العرب فى الشهرة فى الجاهلية والإسلام كشهرة إبراهيم وقومه[٢١].

ولابد من التنبه إلى أننا لانعنى بالعرب البائدة والعرب الباقية، أن أقواما قد انقرضوا فلم يبق منهم أحد، وأن أقواما لم يكونوا ثم نشأوا من جديد، وإنما ما نعنيه أن قوما قد قل عددهم بالكوارث أو بالذوبان فى آخرين، لسبب أو لآخر، ومن ثم يتوقف تاريخهم وتبطل حضارتهم مع أن بقاياهم ما تزال موجودة، ولكنها بدون قيمة حضارية، والتاريخ فى حقيقته إنما هو تطور الحضارة، وعلى أية حال، فتلك تسمية ابتدعها

الكتاب العرب، ذلك لأنه من المعروف أن شيئا لن يبيد ما دام قد ترك من الآثار ما يدل عليه، وهى دون شك المصدر الأساسى للتعرف على الحضارات السابقة، وربما كان المقصود بلفظة (بائد) عدم وجود أحد من العرب ينتسب إلى هذه القبيلة أو تلك عند كتابة المؤرخين الإسلامية لتاريخ ما بعد ظهور الإسلام[٢٢] وأهم القبائل البائدة:

١- عاد: وينظر الإخباريون إلى قوم عاد، على أنهم أقدم الأقوام العربية البائدة، حتى أصبحت كلمة (عادى) و (عادية) إنما تستعملان للأشياء البالغة القدم، وحتى أصبح القوم إذا ما شاهدوا آثارا قديمة لا يعرفون تاريخها أطلقوا عليها صفة (عادية).
٢- ثمود: وقد ذكرت ثمود فى القرن الثامن ق.م فى الكتابات الآشورية وظلت حتى القرن الثالث بعد المسيح مستخدمة فى شمال بلاد العرب فى تيماء ومدائن صالح وجبيل والجوف وتبوك وجبل رَم وقدس[٢٣].
٣- طسم وحديس، وينسب الإخباريون طسما وحديس إلى (لاوذ بن إرم بن سام بن نوح)، مع قليل أو كثير من التعديل فى هذا النسب كالعادة، وأن موطنهما كان فى منطقة اليمامة[٢٤].
٤- أميم، وعليها اختلاف، ويقول البعض أنها لحقت بأرض (وبار) فى بلاد الفرس وهلكوا بها، وهى بين اليمامة وشحر[٢٥].
٥- عبيل: ويقولون أنهم الذين اختطوا مدينة يثرب، إلا أن العماليق طردوهم منها، ومن ثم نزلوا فى مكان بين مكة والمدينة حيث اجتحفهم سيل فذهب بهم وسمى المكان (الجحفة)[٢٦].
٦- جرهم، نزلوا بين مكة ويثرب، ثم هلكوا بوباء تفشى منهم.
٧- العمالقة، عرب صرحاء، من أقدم العرب زمانا، ولسانهم هو المضرى، كان موطنهم أرض تهامة.
٨- حضورا، يقال أنهم كانوا يقيمون بالرس وجهات القصيم، كما ذكر الإخباريون أنهم من نسل قحطان.

٩- مدين، هو قوم شعيب، موطنهم إلى الشرق والجنوب الشرقى من العقبة[٢٧].

٢- العرب العاربة، وتعرف أيضا بعرب الجنوب وأكثر ما توصف به فى كتب مؤرخى العرب هو القحطانية نسبة إلى جدها الأول قحطان ويؤكد فلبى Philby أن عرب الجنوب لم يجيئوا من مكان آخر، وأنهم الأصل فى العرب([٢٨]) ويظهر أن اسم (قحطان) تحريف لاسم (يقطان) الذى يرد اسمه فى سفر التكوين من التوراة "ابن عامر بن سالخ بن أوفخشذ بن سام بن نوح"[٢٩] ومن أبناء قحطان، (يعرب) الذى ينسب أهل الأخبار إليه نشوء العربية، فيقال أنه تعلمها من العرب البائدة الذين كان معاصرا لهم، فالتواتر أن أوائل قحطان أدركت أواخر عاد وثمود.

وهم يعرفون بعرب اليمن أو اليمنيين، لأنهم كانوا يسكنون اليمن، ويقال أن قحطان أول من اتخذ صنعاء اليمن دارا للملك وكان ملكه حوالى سنة ١٨٤٥ ق.م.

وقام بالملك بعده بنوه وأبناؤهم، فملك بعده ابنه يعرب ثم ابنه يشجب ثم ابنه عبد شمس الملقب بسبأ وإليه تنسب الدولة السبئية، ويمتد عصرها بين ٧٥٠ و ١١٥ ق.م على وجه التقريب فى الحقبة الثانية من هذه الدولة أصبحت مأرب عاصمة المملكة، وكان بها السد المشهور.

وكان لسبأ أولاد كثيرون أشهرهم حمير وكهلان، ومن أولاد حمير التبابعة، وهؤلاء كانوا ملوكا فى عصور متعاقبة، ولم يكن الملك منهم يسمى تبعا إلا إذا ملك اليمن والشحر وحضرموت، وإلا سمى ملكا[٣٠]؟

وكان منهم بلقيس صاحبة الصرح التى وردت قصتها مع سيدنا سليمان عليه السلام فى القرآن.

٣- العرب المستعربة، ويعرفون أيضا بعرب الشمال أو العرب العدنانية نسبة إلى عدنان من سلالة إسماعيل عليه السلام وأمه المصرية، هاجر. وقيل لهم (المستعربة) لأنهم انضموا إلى العرب العاربة وأخذوا العربية منهم، ومنهم تعلم إسماعيل الجد الأكبر للعرب المستعربة، فسار نسلهم من ثم من العرب واندمجوا فيهم[٣١].

وكانوا يسكنون فى الحجاز ونجد، وتمتد عشائرهم وقبائلهم إلى باديتى الشام والعراق، وقد ظلوا يعيشون معيشة صحراوية بدوية تعتمد فى أكثر الأحيان على رعى الإبل والأغنام، ولم تهيئ لهم الحياة الاستقرار فى سكنى دائمة، إلا حيث توجد بعض الواحات فى الحجاز. ويظهر أنهم أنشأوا فى بعض الأزمنة مملكة لهم بالجوف (دومة الجندل) فى أقصى الشمال بين العراق والشام، وقد خضعت لنفوذ الآشوريين إذ نرى ملوكهم يفخرون بالانتصار عليها، كما نراهم يفخرون بالانتصار على الثموديين فى شمالى الحجاز حيث كانوا يقيمون فى العُلا والحِجر (مدائن صالح). وقد اتخذ (نابونيد) آخر ملوك دولة بابل الثانية أو الحديثة تيماء حاضرة له من سنة ٥٥٠ إلى سنة ٥٤٥ ق.م، مما يدل على أنه كان بها حضارة زاهية[٣٢].

و(النبط) شعب عربى أسس فى القرون الأخيرة ق.م مملكة فى شمال البلاد العربية وجنوب فلسطين وبلاد الشام، كانت حاضرتهم (بطر) Petra أى الصخرة[٣٣].

ولما دالت دولة النبط فى مستهل القرن الثانى الميلادى حملها اللحيانيون الذين كانوا ينزلون فى دادان (العلا الحالية)، وهم عرب شماليون.

وعاد العرب الشماليون إلى الظهور في مملكة تدمر شمالى بادية الشام فى أثناء القرنين الثانى والثالث الميلاديين، وكانت السيادة لهم، وإن كان أكثر السكان آراميين.

هذا من حيث تكوين العرب بصفة عامة على أساس (زمنى). ولما كانت المنطقة العربية من الاتساع، بحيث يعسر الكتابة عن (اجتماعيتها) ولما كانت (القبيلة) هى الوحدة الأساسية للتنظيم السياسى والاجتماعى، كان تشريح (القبيلة) اجتماعيا بديلا يفيد إلى حد كبير.

ثانيا: شرائح التركيب القبلى: والقبيلة هى جماعة من الناس، ينتمون أو يزعمون أنهم ينتمون إلى جد واحد مشترك انحدروا منه، ويسكنون عادة فى منطقة واحدة، ومن الصعب تحديد عددها[٣٤] وليست (القبيلة) هى وحدة المجتمع فقط، بل توجد شرائح أخرى مثل (شعب) و(عمارة) و(بطن) و(فخذ) و(عشيرة) و(رهط)[٣٥]. وقد حملت كثرة أسماء الحيوانات فى تسمية القبائل (أسد – ثعلبة – ثور – جحش – حمامة – عنزة) المستشرق الانجليزى روبرتسون سميث إلى الاعتقاد بأنها مظهر من مظاهر الطوطمية التى كانت سائدة قبل الإسلام عند العرب.

وقد انقسمت القبيلة إلى ثلاث طبقات اجتماعية:

١– طبقة الأحرار أو (الصلبية) وهم منحدرون من أصل واحد مشترك هو الجد الأعلى للقبيلة، لذا كانوا يعتبرون أنفسهم متساوين، نظريا على الأقل، وكانت هذه الطبقة تتمتع بحقوق مدنية كثيرة، يقابلها كثير من الواجبات، نظمها القانون العرفى[٣٦].

فإذا حدث لسبب من الأسباب أن تصرف (الحر) فى انفصالية فردية خارج النظام الجماعى، أو سلك سلوكا معيبا من شأنه أن يسئ إلى سمعة القبيلة بين القبائل، كان من حق القبيلة أن تتحلل من العقد

الاجتماعى القائم بينه وبينها فتهدر حقوقه عليها، وتتخلى عن حمايته ونصرته، فتطرده من حماها وتعلن بين القبائل أنها خلعته، أو بعبارة أخرى سحبت منه الجنسية القبلية، كما نقول للأفراد، فإن الخليع يخرج من حمى قبيلته ليجد نفسه فى موقف ضيق ووضع شاذ، فلقد سحبت منه الجنسية القبلية وأصبح فردا منفصلا عن قبيلته فى مجتمع لا يؤمن بالانفصالية الفردية. وفرص الحياة فى الصحراء محدودة، ومن المستحيل أن يعيش الفرد فيها إلا مرتبطا بجماعة، ولا يرى الخليع فى هذه الحالة أمامه إلا أحد طريقين: إما أن يلجأ إلى قبيلة أخرى يعيش فى حماها جارا لها أو مولى من مواليها، وإما أن يلجأ إلى الصحراء ليتخذ من الغزو والسلب وقطع الطرق وسيلة للحياة وأسباب الرزق، معتمدا على قوته الشخصية فى فرض نفسه وإثبات وجوده فى مجتمع قطع كل صلة بينه وبينه(٣٧).

٢- **طبقة الأرقاء**، فلم تكن قبيلة تخلو من الرقيق من الرجال والنساء، البيض والسود.والمصدر الأصلى للرقيق، هو الحرب، فالقبيلة التى تنتصر على الأخرى تأخذ الأسرى وتستعبدهم. وقد سلبت الأرستقراطية العربية هذه (الطبقة) كل ما يمكن أن يكون لهم من حقوق، وفرضت عليهم من الواجبات ما أرهق كواهلهم وأهدر إنسانيتهم وضيقت عليهم النطاق فى حياة مهينة ذليلة على هامش المجتمع، ولم تكن الحرب وحدها سببا للرق، فقد جاء فى بعض الكتب أن عوائل باعت أولادها من ذكور وإناث من الفقر. وقد وجد الرقيق فى كل مكان فى جزيرة العرب لاسيما فى المستوطنات الزراعية والقرى ومواضع التجار والتعدين، لحاجة هذه المواضع إلى الأيدى العاملة، وإلى ما يدافع عنها، حتى أنهم كانوا يقذفون بالعبيد فى الحروب للدفاع عنهم(٣٨).

٣- **المَوَالي**: وكلمة (مَوْلى) كلمة مرنة فى اللغة، تسع معان كثرة، ولكن الاصطلاح حدد معناها. والمقصود من الموالى هم: الجار والحليف والمعتق، وذلك أنه إذا سلك فرد من قبيلة مسلكا شائنا يضر بسمعة قبيلته، خلع، ولما كان لا يستطيع أن يعيش مفردا، فإنه يلجأ إلى قبيلة أخرى يتصل بها ويعيش فى حماها على أساس الموالاة بالجوار. والحليف، رجل حر، انضم إلى قبيلة غير قبيلته فمركزه يلى الحر وكذلك كانت تقوم المحالفات بين القبائل، ولعبت هذه المحالفات دورا كبيرا فى تكوين القبائل العربية. والمعتق، عبد أعتقه سيده لسبب من الأسباب، هو يلى الحليف فى درجته الاجتماعية[٣٩].

ومن الأحرار والموالى، ظهرت فئات كونت ثروات ضخمة، وقد أشار أهل الأخبار إلى رجال جاهليين ومخضرمين، كان كل واحد منهم يملك عشرات الألوف من الدراهم، أى النقود عدا الإبل والمزارع والأملاك، وكان استعمال الأغنياء لآنية من الذهب والفضة فى أكلهم وشربهم معروفا فى مكة[٤٠] ويفهم من القرآن الكريم أن بين الجاهليين من كان يكنز الذهب والفضة ولا يعطى منها شيئا للفقراء ونجد السور المكية الأولى تصور أغنياء قريش، أناسا متغطرسين غلاظ الأكباد يرون أنفسهم فوق الناس.

الصعاليك: وهم جماعة فقراء من قبائل شتى جمعت بينهم روابط الثورة والتمرد والحاجة وندرة المال الذى منه كثير فى يد غيرهم، فخرجوا على قبائلهم وتحللوا من نظمها، وأنكرهم قومهم وأخذوا هم أنفسهم بالإغارة والنهب وسلب القبائل والأفراد مالهم ثم توزيعها فيما بينهم، وكانوا رجالا أشداء عدائين، يسبقون الخيل، خبيرين بدروب الصحراء ومجاهلها، كراما، حديدى الإرادة، حسنى الحيلة للخلاص إذا أسروا، نذكر منهم ممن كان يعيش فى منطقة الحجاز (الشنفرى) و(تأبط شرا)، فهؤلاء وزملائهم مثلوا الخروج على النظام القبلى،

وجعلوا همهم الحصول على المال ولو قتلوا أصحابه، لا يبالون فى هذا قرابة وقد طرحوا عن كواهلهم تقاليد العرب إلا ما ارتضوه لأنفسهم[٤١].

لهذا يروع المتأمل لأدبهم وأخبارهم وأحاديثهم وحكاياتهم شعور حاد لديهم بالفقر، وإحساس مرير بوقعه على نفوسهم، وشكوى صارخة من هوان منزلتهم الاجتماعية، وعدم تقدير قبائلهم لهم ولمواهبهم وكفاءتهم، وعجزهم عن الأخذ بنصيب كريم من الحياة الحرة الكريمة، كما يأخذ سائر أفراد قبائلهم، لا لأنهم هم أنفسهم عاجزون، وإنما لأن نظام أو قانون الهيئة الاجتماعية فى عصرهم قد حرمهم من تلك العدالة الاجتماعية التى يطمح إليها كل فرد كريم فى مجتمعه وجردهم من كل الوسائل المشروعة التى يواجهون بها الحياة، ومن ثم لم يكن أمامهم إلا أن يشقوا لأنفسهم – بأنفسهم – طريقا وعرا فى زحمة حياة لا ترحم[٤٢].

وعلى الرغم من تعدد طوائف الصعاليك وتعدد وسائلهم، فإن الذى يعنينا هنا هذا الفريق من الصعاليك الذى صور فى سلوكه عن موقف فروسى نبيل، أو إحساس مرير بالقهر الاجتماعى، لا عن نزعة شريرة دموية حاقدة، فتفرض نفسها بقوة (السيف عادة) وتحدى المجتمع، يغتصب منه ما يراه أنه حقه المغتصب أو المسلوب، فمضى هذا الفريق خلف أولئك الأغنياء المترفين، ولاسيما البخلاء منهم، وتربصوا بالقوافل التجارية التى تسيل بها شعاب الجزيرة العربية، ينهبون ويسلبون، ولا يتورعون عن قتل من يعترض طريقهم، وآلوا على أنفسهم أن يثأروا من مجتمعهم، وأن يفرضوا وجودهم عليه، وأن يسعوا إلى تحقيق صورة من صور العدالة الاجتماعية بين طبقات هذا المجتمع بعد ذلك، وبذلك تكون الصعلكة نزعة إنسانية قبلية، وضريبة يدفعها القوى للضعيف، والغنى للفقير، وفكرة اشتراكية تشرك الفقراء فى مال الأغنياء، وتجعل لهم فيه نصيبا، بل حقا يغتصبونه إن لم يؤد إليهم، وتهدف إلى تحقيق لون من العدالة الاجتماعية والتوازن

الاقتصادى، ولعل خير من يمثل هذا الاتجاه، هو أبو الصعاليك العرب عروة بن الورد[٢].

الاقتصاد الجاهلى:

شح الطبيعة: لعل الطبيعة لم تبخل على شعب مثلما بخلت على الشعب العربى فى شبه الجزيرة حتى أننا نستطيع القول، أن هذه الأرقام الضخمة المذهلة التى تذيعها الأنباء أحيانا عن ثروة العرب الحاليين فى هذه المنطقة، إنما هو تعويض عن آلاف من السنين، أمسكت فيها الطبيعة يدها عن الناس. فإذا ما قارنا المساحة الشاسعة التى عليها شبه الجزيرة، بكمية المياه الشحيحة التى كانت بها، لعرفنا كيف أدى هذا إلى أسوأ الآثار فى شكل تكوين المجتمع العربى، إذ لم يسمح بظهور المجتمعات الكثيفة الكبيرة، والمجتمعات الكثيفة الكبيرة، هى المجتمعات الخلاقة التى تتعقد فيها الحياة وتظهر فيها الحكومات المنظمة للعمل وللإنتاج وللتعامل بين الناس. ثم أن هذا، جعل المجتمعات المذكورة مجتمع مستوطنات، رزقها من زراعتها الصغيرة، ومن رعاية الماشية، وصار اقتصادها من ثم اقتصادا بدائيا لا تعقيد فيه ولا تطوير، يحول المواد الأولية إلى مواد أخرى أفيد منها وأكثر ربحا تفيد المجتمع وتعود عليه بأرباح طائلة من بيع المنتجات فى الأسواق.

على أننا نستطيع القول، أن هذا هو شأن كل مناطق شبه الجزيرة، وإنما تباينت اقتصادياتها بين حضر ومدر بحيث يصدق هذا الذى نقوله على اقتصاديات (البدو) ولكنه غير ذلك بالنسبة للحضر.

ولقد كان الجاهليون مثل غيرهم من الشعوب السامية نشطون فى عالم التجارة، والتجارة تكاد تكون الحرفة الوحيدة عند العرب التى لم ينظر العرب إليها وإلى المشتغل بها نظرة استهجان وازدراء وانتقاص، بل اعتبرت عندهم من أشرف الحرف قدرا ومنزلة. ونظر إلى التاجر

نظرة تقدير وتجلة، مع أنها حرفة مثل سائر الحرف، فيها من الحيل والخداع واللعب على الناس ما فى أى حرفة أخرى لكن، ظروفا طبيعية جعلت العرب تجارا فى الغالب فرفعوا التجارة على غيرها من الحرف وقدموها عليها فى المنازل والدرجات، وقد بقيت على هذه المنزلة والدرجة فى الإسلام كذلك، وأشير إلى شرفها وسمو منزلتها فى كتب الحديث، مما يدل على ما كان للتجارة من منزلة فى نفوس الناس(٤٤).

كان الملوك تجارا يبيعون ويشترون وكان رؤساء المعبد تجارا يتاجرون باسم معابدهم، ويكسبون من الضرائب التى تقدم للمعابد كسبا فاحشا، وكان أصحاب الأملاك ورؤساء العشائر تجارا كذلك، يتاجرون بما يقدم إليهم من هو دونهم فى المنزلة من حاصل الغلة، ويتاجرون بما يستوردونه من الخارج، من أفريقية أو من الهند.

وفى اللهجات العربية ألفاظ ومصطلحات كثيرة لها صلة بالتجارة وبالتعامل، وهى من اللغات العالمية الغنية فى هذه المادة، وكثرة هذه الألفاظ دليل على حذق هؤلاء الناس بالتجارة وعلى وجود عقلية تجارية لديهم(٤٥).

والتجارة هى التى نقلت بعض الكتابات الشمالية إلى العربية الجنوبية، وأدخلت الكتابة الثمودية والكتابة النبطية إلى اليمن، وأصحاب الكتابتين من الشعوب المقيمة فى العربية الشمالية كما هو معروف، فكتاباتهم لم تأت إلى هنا قافزة متخطية المسافة، بل جاءت مع أصحابها التجار الذين قصدوا هذه الأماكن للاتجار، ومن بينهم من سكن فيها واختلط بأهلها ومات فيها، وقد كتبوا فيها الكتابات التى عثر عليها بعض العلماء فى أماكن متعددة من خرائب اليمن(٤٦).

١- اقتصاديات الحضر: فقد عاش أهل المدن والقرى على موارد ثابتة من الرزق كالزراعة والتجارة: والأولى تزدهر حيث الأرض الخصبة، والمياه الغزيرة اللازمة للإنبات والزرع والسقى والاستثمار. وهذه توجد فى الجهات التى تسقط فيها الأمطار بكثرة، أو تفيض فيها العيون والآبار بوفرة وهذه الأماكن توجد فى الجنوب والشرق وواحات الحجاز مثل يثرب والطائف ووادى القرى ودومة الجندل وتبوك وخيبر وقد كانت اليمن جنة وارفة الظلال حتى أجمع المؤرخون على امتداح غنى اليمن(٤٧) وسموها بالأرض السعيدة.

ومن أهم الآيات التى تبين غنى المناطق الحضرية وخاصة فى الجنوب هو (سد مأرب) فقد كانت من عجائب الفن الهندسى وكان فيه كما فى غيره من مبانى سبأ العامة من الرقى الهندسى، ما ينم عن مجتمع محب للسلام عريق الحضارة لا فى الأمور التجارية فحسب، بل فى الأعمال الفنية الرائعة أيضا(٤٨). وقد عرفت بلاد اليمن قديما بتجارة العطور والبخور والطيوب والمر والصمغ والكافور(٤٩).

وفى بداية القرن السادس الميلادى، تبدو مكة ممسكة بزمام التجارة فى بلاد العرب، تنعقد فيها وحولها أعظم أسواق العرب التجارية والأدبية فى موسم الحج من كل عام، وقوافلها التجارية تجوب أطراف شبه الجزيرة العربية تحمل التجارة بين الشرق والغرب متجهة إلى اليمن وإلى الحبشة وإلى العراق(٥٠) وفى هذا يقول سبحانه وتعالى: ﴿لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف، فليعبدوا رب هذا البيت، الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف﴾.

وكانت يثرب تقع فى منطقة خصيبة تسيل فيها الوديان بما يغذى هذه المنطقة بالمياه الكافية لقيام زراعة جديدة فيها إلى جانب الآبار والعيون التى كثرت فى منطقتها والتى حفرها السكان للانتفاع بمياهها للشرب وللسقى، ولذلك عمل أهلها بالزراعة وكانت خصوبة التربة

تغنيهم عن الضرب فى الأرض ابتغاء الرزق بوجه الاجمال. وقد وردت آيات قرآنية كثيرة تشير إلى جنات النخيل والأعناب والزروع الأخرى(٥١). بل يمكن القول بأن مجتمعا مدنيا كمجتمع يثرب لابد أن تقوم فيه صناعة لسد حاجة السكان بما يحتاجون إليه من صناعات هى من مستلزمات الحياة الزراعية ومستعملات السكان اليومية.

٢- اقتصاديات البدو: أما المناطق البدوية كتهامة ونجد وصحراء النفود وبوادى الشام والدهناء والبحرين، فقد اعتمد أهلها على رعى الأغنام والأنعام والانتقال بها وراء الكلأ والماء. وقد كانت الإبل - ولونها كلون الصحراء - هى الحيوان العزيز الذى اتخذه الإنسان فى مثل هذه البيئة، فيأكل لحمه ويشرب لبنه(٥٢) ويصنع من شعره مسكنه وأثاثه ومتاعه وملابسه، ولكن المجاعة وانقطاع المطر، كانت تهدد العربى وأسرته فى كل وقت، بحيث أنها كانت تدفعه أحيانا إلى أكل نحاتة قرون الخراف وظلافها(٥٣) أو أن يفتح عرقا فى جمل ليشرب دمه، وأحيانا أخرى إذا زاد به الجوع، ربط حجرا على بطنه، وكان بعض الأعراب يذبحون الكلاب كقبيلة أسد، أو يأكلون لحوم الناس كقبيلة هزيل أو يأكلون الجراد كقبيلة طئ، كما أن بعض الأعراب كانوا يأكلون الحيات والعقارب والجعلان والخنافس وحتى القمل.

وفى كثير من الأحيان كان بعضهم يتربص ببعض، إذ كانت حياتهم حياة حربية دامية وقد تحولت هذه الحياة الحربية من بعض وجوهها إلى مصدر من مصادر رزقهم إذ كانوا يتخذون الغزو وسيلة من وسائل عيشهم، وهو عيش مشوب بالضنك والشظف وهذا الصراع العنيف الذى كانوا يخوضونه ضد مخاطر الصحراء ومن يترصدهم من الأعداء(٥٤).

وما كان البدو يفكر فى الاشتغال بمورد ثابت يربطه بمكان لا يبرحه طوال حياته وتستره حيطانه عن نور الفضاء، واتساعه الفسيح

الأرجاء، ومن ثم أنف الاشتغال بالزراعة أو الصناعة، فترك ذلك لغيره ممن يعتبرهم أقل من البدو أنفة وكبرياء. وكان مبدؤه فى ذلك "الذل بالمحراث، والمهانة بالبقر والعز بالابل، والشجاعة بالخيل"[٥٥].

ولم يكن فيهم من الأغنياء إلا قلة، وكانت الغالبية فقراء ومعظمهم فقراء مدقعين ومن هنا شاع السلب والنهب وقطع الطرق خصوصا فى متاهات هذه الصحراء الواسعة وبين مرتفعاتها ومنحدراتها ومنحنياتها، حيث تضل الطريق وتعمى السبيل حتى على كثير ممن لديهم خبرة بطرقاتها ودروبها، ومن ثم وجدت جماعة الصعاليك[٥٦].

وقد انعكس الوضع الاقتصادى على شعر الجاهليين، إذ سبب فى حدة التنافس والصراع والتربص، بفعل عاملين رئيسيين: مادى، وأدبى، فهو إما طمع فى إبل أو مرعى أو بئر أو حمى أو فرس أو متاع ما، وإما رغبة فى رياسة أو أخذ بثأر أو اعتزاز بنفس أو مفاخرة بقوة، أو غضب لجار أهين أو عهد نقض أو مجاراة لسفيه.

تلك الأسباب تركت الجزيرة العربية دائمة الغارات أو الحروب لا تعدم فى ناحية من نواحيها غارة مشنونة، أو صراعا بشعا يستمر أياما بل شهورا، وصارت حياة الناس رخيصة تذهب بسبب كلمة أو هفوة أو بلا سبب سوى السفاهة والعبث، وأيام العرب الكبيرة كثيرة تجاوزت الألف بكثير سوى المناورات الصغيرة[٥٧].

ويجب أن نشير إلى أن أشعار الأيام وحوادثها قد دخلها التزيد والمبالغة استجابة لدواعى العصبية وما تقتضيه طبيعة القصص من تهويل وتجميل، ومع ذلك فثمة قسط يمكن أن يوصف بالصحة استنادا إلى الطابع الفنى الجاهلى، أو صحة روايته أو اتصاله بما يؤيده من أخبار وشواهد وثيقة.

وشعر الأيام فنون شتى تشمل الفخر والحماسة والمديح والرثاء ووصف المعارك الحربية والإشادة بشجاعة الشجعان وصبرهم وثباتهم سواء كانوا من قوم الشاعر أو من أعدائهم وغير ذلك من المعانى، إلا أن هذه الألوان جميعها تخضع لهدف رئيسى واحد هو مكانة القبيلة وقوتها ونفوذها وسلطانها بين القبائل الأخرى، فهو إذن – مع بعض التجاوز – شعر السياسة الخارجية للقبيلة.

ومن الشعر المصور لحالة بؤس، ما قاله وهب بن عبد قصى فى إحضار هاشم من الشام البُرّ، وإطعام قومه الثريد فى السنين العجاف[٥٨]:

تحمل هاشم ما ضاق عنه	وأعيا أن يقوم به ابن بُيض
أتاهم بالغرائر مُتْأَقات	من أرض الشام بالبر النفيض
فأوسع أهل مكة من هشيم	وشاب الخبز باللحم الغريض
فظل القوم بين مكللات	من الشيزى وحائرها بغيض[٥٩].

فالشاعر يقرر أن هاشما فاق ابن بيض فى الكرم، وابن بيض، تاجر مكثر من عاد، عقر ناقته على ثنية فسد بها الطريق ومنع الناس من سلوكها.

الفكر الدينى:

الدين هو الاعتقاد بكائنات غيبية ذات قوى مؤثرة والقيام بطقوس وعبادات لها، وهو يتوقف على مستوى التعليم لدى الناس، فيلاحظ أن العربى القديم مثله فى ذلك مثل أى إنسان بدائى، ينخفض مستواه التعليمى إلى حد كبير بحيث يخلط بين الواقع والتخيل، فلا يميز تمييزا دقيقا بين ما يراه حقيقة وما يتصوره[٦٠].

وكان العرب فى الجاهلية على أديان ومذاهب: كان منهم من آمن بالله وآمن بالتوحيد، وكان منهم من تعبد للأصنام، زاعمين أنها تنفع

وتضر، وأنها هـى الضـارة النافعـة[١١] وكـان منهـم مـن دان بالنصرانيـة واليهوديـة، ومنهـم مـن دان بالمجوسـية ومنهـم مـن توقـف، فلـم يعتقـد بشىء، ومنهم من تزندق ومنهم من آمن بتحكم الألهة فـى الإنسـان فـى هذه الحياة وببطـلان كل شـىء بعد المـوت، فـلا حسـاب ولانشـر ولا كتاب، ولا كل شىء مما جاء فى الإسلام عن يوم الدين[١٢].

وهكذا نجد أننا حين نضم ما ورد من أخبـار وإشـارات دينيـة قليلـة بعضهـا إلـى بعـض نلاحظ فـى حياة الجاهليـة أشـكالا متناقضـة مـن العبادات – وهى أشكال كانت، فيمـا يظـن، مراحـل تطـور متصـل فـى تاريخ الفكر الدينى الجاهلى أدى أوله إلى آخره. ونستطيع أن نـرد هـذا التاريخ إن صح هذا الوصف إلى شكلين أو مرحلتيـن مختلفتيـن، نطلـق علـى المرحلـة الأولـى منهمـا مرحلـة (الشـرك) أو عبـادة الظواهـر والكائنات، والثانية، مرحلة التجريد، أو الاتجاه إلى التوحيـد، وقـد رمـز الجـاهليون فـى هـاتين المرحلتيـن عـن آلهتهـم بالأوثـان التـى تعـددت واختلفت من قبيلة إلى أخرى، ومن منطقة إلى منطقة غيرها، سواء فى مرحلة (الشرك) أو مرحلة (التجريد) مما كـان لـه أثـره فـى أن تعـرف هذه العبـادة بـالرغم مـن اختـلاف مفهومهـا وتطورهـا مـن مرحلـة إلـى أخرى بـ(عبادة الأوثان)[١٣].

ومن الملاحظ إن القرآن الكريم والحديث النبـوى الشـريف قـد ذكـرا هذه العبادة، كمـا ألحت فـى الإشـارة إليهـا أخبـار المفسـرين واللغوييـن إلحاحا شديدا يحمل من ليست له معرفة واسعة وعميقة بتاريخ الجاهليـة على الاعتقاد بأن (الوثنية) كانت ديانتهم الوحيدة، والذى يهمُنا ايضاحـه أن (عبادة الأوثان) تلك قد انتقلت إلى العرب من الأمم المجاورة، وأنهـا قد تطورت كما قلنا، لتصل فى نهاية العصر الجاهلى، أو ما يعرف بالجاهلية المتأخرة، إلى صورة أقرب ما تكون إلى التوحيد، على النحـو الذى جاء فى الديانات السماوية، مما يحملنا على القول بتأثر الجـاهليين

فى عباداتهم، وفى أطوارها المختلفة بديانات الأمم الأخرى المجاورة، سواء أكانت هذه الديانات وثنية مشركة أو سماوية موحدة(١٤).

وقد روى ابن الكلبى أن الذى جنح بالعرب إلى عبادة الأوثان والحجارة أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن إلا احتمل معه حجرا من حجارة الحرم تعظيما للحرم وصبابة بمكة، فحيثما حلوا وضعوه، وطافوا به كطوافهم بالكعبة، وهم يعظمون الكعبة ومكة، ويحجون ويعتمرون على إرث إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، ثم سلخ بهم ذلك إلى أن عبدوا ما استحبوا، ونسوا ما كانوا عليه، فعبدوا الأوثان وعادوا إلى ما كان يعبده قوم نوح، وأشركوا وإن دانوا بالربوبية، وجعلوا ملك الأصنام بيده تعالى: ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾ أى ما يوحدونني إلا جعلوا معى شريكا من خلقى.

ولكن ما الأنصاب؟ وما الأصنام؟ وما الأوثان؟

الأنصاب حجارة كانت تنصب حول الكعبة فيهل عليها، والأصنام والأوثان بمعنى واحد: ما عبد من دون الله، وإن كان الكلبى يذهب إلى أنه إذا كان من خشب أو فضة على صورة إنسان، فهو صنم، وإذا كان من حجارة فهو وثن(١٥).

وإذا كان البعض يذهب إلى أن البدوى لم يكن يهتم بالدين، لأن حياته القاسية فى الصحراء لاتتفع مع الحياة الروحية، والدليل على عدم اهتمامه بالدين، أن الشعر الذى تركه لنا فى المعلقات، لانجد فيه أى أثر للدين،كما أننا لم نسمع عن حدوث حروب بين القبائل وبعضها بسبب الدين، على كثرة هذه الحروب(١٦)، لكن الحقيقة التى أجمع عليها مؤرخو الأديان أنه ليست هناك أى جماعة إنسانية ظهرت دون أن تفكر بالفطرة فى الدين(١٧) لتعلل مصير الإنسان وتقلب ظواهر الكون.

ويذكر(الكلبى) أن العرب كانوا على دين واحد، وهو الذى بشر به إبراهيم عليه السلام، وهو دين يدعو إلى التوحيد ثم بعث الله الدين من

جديد فى تلك الصورة المتطورة التى نشهدها فى الإسلام، بيد أن العرب - مثل غيرهم - قد ضلوا الطريق وانحرفوا عن الحق وتعبدوا الأصنام التى اتخذوها أولا وسيلة للتقرب إلى الله، ثم نسوا الأصل وتعبدوا الفرع، ومن أوائل الذين نشروا عبادة الأصنام فى الجزيرة العربية(عمرو بن لحى)[٦٨].

ويلاحظ أن القران الكريم يقدم عن الدين الجاهلى صورة تختلف تماما عما تقدمه كتب التاريخ والأدب، والمعلومات التى فيه، قلما يقدم الشرح والمفسرين عنها معلومات إضافية مكملة، ففى القرأن آيات كثيرة تذكر بصراحة أن المشركين كانوا يعبدون الله. ﴿قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون؟ سيقولون لله أفلا تذكّرون. قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم، سيقولون لله قل أفلا تتقون؟ قل من بيده ملكوت كل شيء وهو- يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون؟ سيقولون لله. قل فأنى تسحرون﴾[٦٩]. ويقول أيضا: ﴿ولئن سألتهم: من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر؟ ليقولن الله فأنى يؤفكون﴾[٧٠] غير أنهم ﴿وجعلوا لله أندادا ليضلوا عن سبيله، قل تمتعوا، فإن مصيركم إلى النار﴾[٧١] و﴿وجعلوا لله شركاء، قل سموهم﴾[٧٢].

وقد انتشرت اليهودية فى جزيرة العرب قبل ظهور الإسلام ولاسيما فى اليمن كما انتشرت فى وادى القرى وخيبر وتيماء ويثرب حيث أقامت قبائل بنى قريظة وبنى النضير وبنى قينقاع، وكذلك انتشرت المسيحية فى قبائل تغلب وغسان وقضاعة فى الشمال وفى بلاد اليمن فى الجنوب وقد دخلت بلاد العرب بفضل جهود أباطرة الدولة الرومانية الشرقية فى القرن الرابع الميلادى، إلا أنها لم تجذب إليها أنصارا كثيرين منهم ، كذلك عمل الأحباش على نشرها من الجنوب[٧٣].

ووجد فى بلاد العرب بيوت عرفت ببيوت الله أوالبيوت الحرام يقصدها الحجاج فى مواسم معلومة تشترك فيها القبائل من سكان البقاع

العربية ويتعاهدون على المسالمة فى جوارها، وقد اجتمع لبيت مكة من هذه البيوت الحرام مالم يجتمع لبيت آخر فى أنحاء الجزيرة لأن مكة كانت ملتقى طرق القوافل بين الجنوب والشمال، والشرق والغرب وأهم من هذا وذاك ﴿أن أول بيت وضع للناس الذى بمكة مباركا وهدى للعالمين﴾[٧٤] والحج إلى الكعبة فرض إلهى قديم معترف به وممارس منذ زمن بعيد، يتداول العرب خبر اتصاله بإبراهيم وإسماعيل اللذين قاما ببناء البيت الحرام[٧٥] وكان للحج ارتباط كبير بالحياة الاجتماعية والاقتصادية عندالعرب.

ويظهر أنه كانت عندهم طقوس كثيرة فى نذورهم وقرابينهم، وقد هدمها الإسلام هدما، وأيضا كانت هناك شعائر وطقوس كثيرة فى الحج نفسه لعل أهمها التلبية، يقول ابن حبيب "وكانوا يلبون إلا أن بعضهم كان يشرك فى تلبيته، وكان نسك قريش لإساف (صنم) يقول: لبيك اللهم لبيك، لا شريك لك إلا شريك هو لك: تملكه وما ملك. وكان لكل قبيلة بعدُ تلبية"[٧٦].

وكانت هناك جماعات تقوم على سدانة بيوتهم المقدسة، ويسمونها الحجابة، وكانت فى مكة لبنى عبد الدار، وبجانب هؤلاء السدنة كهان كانوا يدعون معرفة الغيب وأنه سخر لهم طائف من الجن يسترق لهم السمع فيعرفون ما كتب للناس فى ألواح الغد[٧٧].

ولعل فى كل ما قدمنا ما يدل على أنهم كانوا يؤمنون إيمانا واسعا بالأرواح وأنها تحل فى كل ما حولهم من مظاهر الطبيعة، وكان منها أرواح خيرة هى الملائكة وأرواح شريرة هى الشياطين، وفى القرآن الكريم ﴿وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون﴾[٧٨].

وهؤلاء الوثنيون كانوا ينكرون الرسل وأن هناك إلها واحدا، قال عز وجل: ﴿وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر

كذاب، اجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجاب، وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتهم إن هذا شيء يُراد، ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة. إن هذا إلا اختلاق﴾[٧٩]. وكانوا لا يؤمنون ببعث ولا نشور، قال سبحانه وتعالى: ﴿وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين﴾[٨٠].

أما الصابئة، فهم الذين كانوا يعبدون الكواكب، وهم يعتقدون في الأنواء، ويقولون إن أول من دان بذلك من العرب قبائل سبأ الحميرية، إذ كانوا يعبدون الشمس[٨١].

هوامش الفصل الثانى

١- أحمد إبراهيم الشريف، مكة والمدينة فى الجاهلية وعهد الرسول، دار الفكر العربى، القاهرة، ١٩٦٩، ص٢٣.
٢- يوليوس فلهوزن، تاريخ الدولة العربية من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية، ترجمة محمد عبد الهادى أوب ريدة، لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٨، ص ٣-٤.
٣- على الجندى، جـ١، ٩٤، ٩٥.
٤- مكة والمدينة، ص٦٤.
٥- بلاشير، تاريخ الأدب العربى، ترجمة إبراهيم الكيلانى، دمشق، ١٩٥٦، جـ١، ص٣٥.
٦- ديوان زهير بن أبى سلمى، شرح كرم البستانى، دار صادر، بيروت، ١٩٦٤، ص٦٢.
٧- بلاشير، ص٣٦.
٨- مقدمة ابن خلدون، ص١٣١، ١٣٦(طبعة المكتبة التجارية).
٩- المسعودى. مروج الذهب، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ١٩٦٤، جـ٢، ص٥٥.
١٠- سير توماس أرنولد. الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرون، النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٠، ص٥١-٥٢.
١١- مكة والمدينة، ص٢٦.
١٢- صلاح عبد الحافظ، الزمان والمكان وأثرهما فى حياة الشاعر الجاهلى وشعره، دار المعارف، الإسكندرية، ١٩٨٢، جـ١، ص٩٩.
١٣- المرجع السابق، ص١٠٠.
١٤- المرجع السابق، ص١٠٠.
١٥- محمد جابر عبد العال الحينى، الخنساء، شاعرة بنى سليم، وزارة الثقافة والإرشاد القومى، القاهرة، سلسلة أعلام العرب (٢٥)، يناير ١٩٦٤، ص١٦٤.
١٦- المرجع السابق، ص١٦٥.
١٧- على العتوم، ص٣٥٧.
١٨- مكة والمدينة، ص٢٩.
١٩- الأعراف/٦٥-٧٢. هود/٥٠-٦٠. المؤمنون/٣١-٣٤. الشعراء/١٢٣-١٤٠.
٢٠- الشمس/١-١٥. الحاقة/٤٠٥. القمر/٢٣-٣٢. النجم/٥٠-٥١ الخ.
٢١- الطبرى، جـ١، ص٢٣٢.
٢٢- محمد بيومى مهران، ص١٦٣.

٢٣- خليل يحيى نامى، العرب قبل الإسلام، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٦، ص٢٧.
٢٤- محمد بيومى مهران، ص١٦٧.
٢٥- على الجندى، ص٢٣.
٢٦- محمد بيومى مهران، ص١٧٥.
٢٧- على الجندى، ص٢٣
٢٨- نافع، ص٤٢.
٢٩- المفصل، جـ١، ص٣٥٤.
٣٠- على الجندى، ص٢٤.
٣١- المفصل، جـ١، ص٣٧٥.
٣٢- شوقى ضيف، العصر الجاهلى، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٢، ص٣٠.
٣٣- خليل يحيى نامى، ص١٦.
٣٤- صالح أحمد العلى، محاضرات فى تاريخ العرب، مكتبة المثنى، بغداد، ١٩٦٠، جـ١، ص١٢٧.
٣٥- ماجد، ص٤٧.
٣٦- مكة والمدينة، ص٢١.
٣٧- المرجع السابق، ص٣٤.
٣٨- المفصل، جـ١، ص٤٥٧.
٣٩- المصباح المنير، صححه مصطفى السقا، مطبعة البابى الحلبى، القاهرة، بدون تاريخ، جـ٢، ص٣٩.
٤٠- مكة والمدينة، ص٤٩.
٤١- قصة الأدب فى الحجاز فى العصر الجاهلى، ص٤٢٥.
٤٢- محمد رجب النجار، حكاية الشطار والعياريين فى التراث العربى، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة (٤٥)، سبتمبر ١٩٨١، ص١١٠.
٤٣- المرجع السابق، ص١١١.
٤٤- جواد على، الفصل الثامن والتسعون، ص٢٢٧.
٤٥- المرجع السابق، ص٢٢٨..
٤٦- المرجع السابق، ٢٤٢
٤٧- المسعودى، مروج الذهب، جـ٢، ص ١٨٠-١٨١.
٤٨- فيليب حتى، جـ١، ص٧٢.
٤٩- السيد عبد العزيز سالم، تاريخ العرب قبل الإسلام، مؤسسة الثقافة الجامعية، القاهرة، ص٢٨.
٥٠- مكة والمدينة، ص٢٠٤.
٥١- البقرة/٢٦١،٢٦٤،٢٦٦. الأنعام/٩٩، ١٤١. الكهف/٣٣-٣٤.

٥٢- الجاحظ، البخلاء تحقيق محمد على الزغبى، مكتبة العرفان، بيروت، جـ٢، ص١١٠.
٥٣- المرجع السابق، ص١١١.
٥٤- شوقى ضيف، العصر الجاهلى، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٠، ص٧٨.
٥٥- بلاشير، تاريخ الأدب العربى، ص٣٣.
٥٦- على الجندى، ص٨٩.
٥٧- قصة الأدب فى الحجاز فى العصر الجاهلى، ص٤٣٢.
٥٨- على العتوم، ص٣٦٣..
٥٩- الغرائر: الجوالق، متأفات: مملوءات، البر النفيض: القمح الكثير الجيد، اللحم الغريض: اللحم الطرى، حاترها: أطرافها.
٦٠- صالح العلى، ص١٦٧.
٦١- أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله النجيرمى الكاتب، إيمان العرب فى الجاهلية، تحقيق محب الدين الخطيب، القاهرة فى ١٣٨٢هـ، ص١٢ وما بعدها.
٦٢- المفصل، جـ٦، ص٣٤.
٦٣- إبراهيم عبد الرحمن، ص٤٠.
٦٤- المرجع السابق، ص٤١.
٦٥- أحمد محمد الحوفى، الحياة العربية، من الشعر الجاهلى، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٧٢، ص٣٨٣.
٦٦- محمد نعمان الجارم، أديان العرب فى الجاهلية، القاهرة، ١٩٢٣، ص٤.
٦٧- عبد المنعم ماجد، ص٥٦.
٦٨- الكلبى، كتاب الأصنام، تحقيق أحمد زكى، الدار القومية، القاهرة، ١٩٦٥، ص٨.
٦٩- المؤمنون/٨٤-٨٩.
٧٠- العنكبوت/٦١.
٧١- إبراهيم/٣٠.
٧٢- الرعد/٣٣.
٧٣- حسن إبراهيم، تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى، النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٤، جـ١، ص١٧٣.
٧٤- آل عمران/٩٦.
٧٥- مكة والمدينة، ص١٧٣.
٧٦- شوقى ضيف، ص٩٣.
٧٧- المرجع السابق، ص٩٤.
٧٨- الزخرف/١٩.
٧٩- ص/٥
٨٠- الأنعام/٢٩.
٨١- على الجندى، ص٧٥.

الفصل الثالث

التفاعل بين الثقافة العربية والثقافات الأخرى

لم يكن الجاهلى ليستطيع أن يعيش بمعزل عن العالم الخارجى، كما أن العالم الخارجى كذلك كان يهمه أن يكون على صلة به، فضرورات الحياة دائما تقتضى ذلك فى جميع العصور والأحوال، فلدى كل من الجانبين ما يحتاج إليه الأخر، ومن ثم كان لابد من الاتصال الخارجى تبعا لاحتكاك المصالح وتبادل المنافع[1].

ومن هذا الاتصال ينتج التفاعل بين الثقافة العربية والثقافات الأخرى من فارسية وفرعونية ويونانية ورومانية وغيرها.

قنوات التفاعل:

أما كيف تم الاتصال والتفاعل بين الثقافة العربية وغيرها، فهذا ما يمكن بيانه من خلال الإشارة إلى أهم قنوات الاتصال فى ذلك الوقت وهى:

١- التجارة: فقد كان فى شبه الجزيرة العربية منتجات وبخاصة فى الجنوب وعلى الشواطىء، وهذه لابد من تصريف ما يفيض منها عن حاجة السكان فى مناطق الإنتاج كما كان العرب محتاجين إلى كثير من منتجات البلاد الخارجية، هذا إلى أن البلاد العربية بحكم موقعها الجغرافى عامل اتصال بين بعض الأمم الذين لايمكن اتصالهم إلاعن طريق بلاد العرب ومن ثم نشطت التجارة فى شبه الجزيرة منذ القدم، ووجدت مراكز تجارية هامة فى الشمال والجنوب والوسط ومن الشاطىء وعبرتها القوافل التجارية طولا وعرضا، صيفا وشتاء، تنقل

الحاصلات الخاصة باليمن وغيرها من البلاد العربية، وتجارات الهند والحبشة والشام إلى شبه الجزيرة وخارجها، وبالعكس.

ويصعب علينا أن نظن أن التبادل والاتصال اقتصر على السلع المادية وحدها، وإنما تعداه إلى الجوانب الثقافية وهذا طبيعى فالرحلات إلى الأمم المتمدنة تجعل دائما تحت أعين الراحلين مدنية جديدة يقتبسون منها على قدر استعداداتهم. بل لا نستطيع أن نصدق أن قافلة كبيرة كهذه تنتقل بتجارتها العظيمة لتتعامل مع أمة أجنبية من أن يكون فيها أفراد يعرفون لغة الذين يتعاملون معهم ويكونون واسطة للتعارف بينهم[٢].

٢- المدن العربية المجاورة للفرس والروم: فجزيرة العرب تقع بين حضارتين عظيمتين وهما الحضارة الفارسية والحضارة الرومانية وتجاور الحضارة المصرية القديمة، وقد حاول الفرس والروم أن يخضعوا العرب لحكمهم اتقاء لغزوهم وسلبهم، ولكنهم كانوا يعدلون عن ذلك نظرا لما يستلزمه فتح جزيرة صحراوية من ضحايا فى الأنفس والأموال، ولأن طبيعة المعيشة العربية جعلتهم لا يخضعون لقوة واحدة إذا تغلب عليها المحارب خضعت له الأمة، بل هناك عصابات وقوات متعددة لابد لإخضاع البلاد من الاستيلاء عليها جميعا، ولم يكن هذا الأمر سهلا، ومن هنا اتجه تفكير الفرس والروم إلى أن خير وسيلة لدفع شر العرب، أن يساعدوا بعض القبائل المجاورة على أن يستقروا على التخوم يزرعون ويتحضرون، ثم يكونوا رداء لهم يصدون غارات البدو الذين يغزون وينهبون، فتكونت إمارة الحيرة على تخوم الفرس وإمارة الغساسنة على تخوم الرومان[٣] ولذا عرف الغساسنة (بروم العرب) نسبة إلى حلفائهم الروم، أى البيزنطيين الذين حلوا مكان الرومان فى هذه المنطقة، فامتدت مملكتهم من بادية الشام حتى دمشق[٤].

٣- اليهودية والنصرانية: فقد جذبت اليهودية العرب أكثر من المسيحية، فهاجر عدد كبير من اليهود بعد إخماد الثورات التى قامت فى وجه الامبراطور (هارديان) ملتجئين إلى جزيرة العرب، واختلطت كثير من القبائل العربية بهم واعتنقوا ديانتهم وكانت هذه القبائل أكثر القبائل إخلاصا لهذه العقيدة(٥).

ولم تنتشر المسيحية انتشارا واسعا كما هو المتوقع رغم أنها ديانة سماوية تدعو إلى مبادئ سامية، وهى بديهية أفضل من الديانات السائدة بين العرب كالوثنية وعبادة النجوم والكواكب، والبعض يفسر ذلك بعدة تفسيرات، أولها اقتران المسيحية بالنفوذ الأجنبى الاستعمارى الرومانى والحبشى، فقد عمل الروم والأحباش على نشر المسيحية كوسيلة لتدعيم نفوذهم السياسى والاقتصادى والاجتماعى، ومن الأسباب أيضا أن العقائد المسيحية بالنسبة للعربى معقدة لا يستطيع فهمها بسهولة كما أنها تقيد حريته وهو يقدس الحرية قبل كل شىء، إلى جانب تعدد المذاهب المسيحية والصراع العنيف بينها(٦).

٤- الغزوات الاستعمارية: كذلك تعرضت المنطقة لعدد من الغزوات الاستعمارية التى حملت معها بطبيعة الحال ثقافتها، من ذلك الغزو الحبشى لليمن فى عام ٥٢٥م بتشجيع من الدولة البيزنطية. ولما أراد سيف بن ذى يزن إخراج الأحباش استعان بالفرس الذين تم لهم بالفعل فتح اليمن وطرد الأحباش وكان من شروط الفرس، أن يتزوج الفرس من نساء اليمن ولا يتزوج اليمنيون من نساء فارس(٧).

وفى الفترة من القرن الأول قبل الميلاد إلى أوائل القرن الأول بعد الميلاد، حاول الرومان الاستيلاء على المملكة التى كونها الأنباط جنوب الشام عدة مرات، إلى أن استطاعوا ذلك فى عهد (تراجان)(٨) إلى غير ذلك من غزوات.

المؤثرات الثقافية:

فإذا أردنا أن نلقى نظرة على الثقافات التى اتصل بها العرب وتفاعلوا نجد أنها تتلخص فيما يلى:

الثقافة المصرية القديمة: على الرغم من أن الجزيرة لم تقع تحت سلطان الثقافة التى ترعرت وازدهرت فى وادى النيل، فإنها لم تستطع أن تتخلص من تأثيرها[٩]. على أن ثقافة الجزيرة فى قرارتها كانت ثقافة محلية صرفة حاكت الثقافات التى نشأت على سواحل البحار. ولقد عثر(بترى) سنة ١٩٠٠على قطعة من العاج فى ضريح ملكى للسلالة الفرعونية الأولى فى أبيدوس تحمل اسم رجل سامى من النوع الأرمناوى كتب عليها (أسيوى) ويمثل الرسم رجلا ذا لحية حليق الشاربين ولعله من عرب الجنوب، وهناك نقش بارز أقدم عهدا من هذا يعود إلى السلالة الأولى أيضا نرى فيه زعيما يدويا ناحل البدن يتزر بمئزر وهو يزحف متذللا أمام آسره المصرى الذى هم بهراوة ينوى بها سحق رأسه[١٠].

ولقد ذكر هيرودت أن سيزوستريس، والأولى أن يقال (سنوسرت) الأول (١٩٨٠- ١٩٣٥ق.م) من الأسرة الثانية عشر قد افتتح الأمصار المتاخمة للخليج العربى، ولعلها الشقة الأفريقية من البحر الأحمر. بيد أن الأمر امتد أيضا للشق الأسيوى إذ تذكر النصوص المصرية القديمة أنه فى عهد الأسرة الخامسة المصرية، قاد الملك (ساحورع) من ملوك القرن السادس والعشرين قبل الميلاد أول حملة بحرية فى البحر الأحمر إلى أرض البخور أو بلاد (بنط) التى كان يظن أنها بلاد الصومال الحديثة فحسب، ولكن ثبت أخيرا أن لفظ (بنط) كان يدل على الأرض الواقعة على الطرف الجنوبى للبحر الأحمر، أو على جانبى باب المندب بشقيه الأفريقى والأسيوى[١١] وقد أيد هذا الرأى، البحوث التى قامت كلية الأداب بالجامعة المصرية (القاهرة الآن) عام ١٩٣٧،

كما أيدته أيضا بحوث الأستاذين زانجتروفون وسمز والتى نشرت فى كتاب (فى أعالى اليمن) لمؤلفه(**هيوسكوت**) (طبع لندن سنة ١٩٤٢) وفى خريطة رسمت للامبراطورية المصرية القديمة فى أقصى نفوذها وضع (نافع) و(الرشيدى) بلاد (**بنط**) على جانبى باب المندب[١٢]

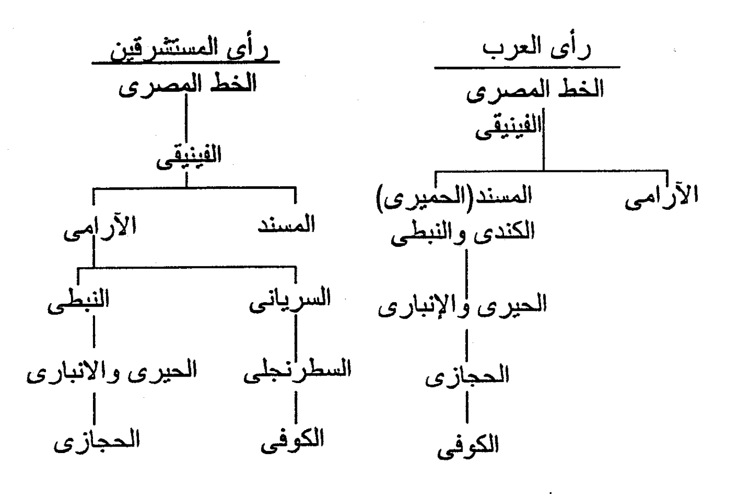
ولما قام قمبيز الثانى(قمباس) **Combyses** بغزو مصر عام ٥٢٥ق.م وطلب معونة العرب، أمدوه بالجمال وبالماء وساعدوه مساعدة كبيرة لولاها لما تمكن من الوصول إلى مصر[١٣]. وأشار هيرودت إلى وجود فرقة عسكرية من العرب فى الجيوش الفارسية التى كانت بمصر، كان على رأسها قائد فارسى دعاه (أرسامس) **Arsames** وقال أنه أحد أولاد (دارا). ويظهر أن هؤلاء الجنود هم من عرب مصر أى من العرب القاطنين هناك، ولعلهم من سكان الأرض المحصورة بين النيل والبحر الأحمر، وقد كان العرب ينزلون هذه المنطقة والمنطقة شرقى النيل وجنوب البحر المتوسط المتصلة بطور سينا منذ القديم، فالعرب كانوا من قدماء سكان مصر، لا كما يتصور بعضهم من أنهم دخلوا مصر فى الفتح وأنهم لذلك غرباء لاصلة هناك بينهم وبين المصريين قبل الإسلام. والمعروف أن الهكسوس الذين حكموا مصر، كانوا من العرب فى رأى كثير من العلماء، بل فى نظر قدماء المصريين كما حكى ذلك، الراهب المصرى المؤرخ (مانيتو) **Manetho** فى كتابه المؤلف باليونانية فى القرن الثالث قبل الميلاد[١٤].

وقد أدى ضعف حكومة البطالمة إلى توسع القبائل العربية وتوغلها فى طور سيناء وفى المناطق الشرقية من مصر الواقعة على الضفاف الشرقية لنهر النيل مما حمل بعض الكتبة الكلاسيكيين على إطلاق لفظة (العربية)عليها دلالة على توغل القبائل العربية فيها بالطبع. وإلى عهد البطالمة ترجع الكتابات العربية المعروفة بالمسند التى عثر عليها فى الجزيرة بمصر، وقد كتبت فى السنة ٢٢من حكم بطليموس بن بطليموس، ويصعب تعيين زمان هذه الكتابات وزمان بطليموس هذا،

وعثر على كتابات أخرى موضع (قصر البنات) على طريق (قنا) وفى منطقة (إدفو) ووجود كتابات المسند فى مصر يدل على الصلات الوثيقة التى كانت بين العربية ومصر[١٥].

ومن الثابت أن أول الخطوط المعروفة وأقدمها هو الخط المصرى القديم وهو مبدأ سلسلة الخط العربى. وقد استمد الفينيقيون منه خطهم الفينيقى والفينيقيون هم سكان ساحل الشام، وكانوا يترددون على مصر للتجارة وغيرها كما خضعوا لحكم الفراعنة قديما، وعن الخط الفينيقى أخذت أمم كثيرة أصول خطوطها كالآراميين (سكان فلسطين والشام والعراق) وكالحميريين (سكان اليمن)[١٦].

فسكان اليمن من معينيين ثم سبأيين ثم حميريين قد أخذوا خطهم عن الفينيقيين وأدخلوا عليه شيئا من التضيح والتحوير فسمى بالخط المسند أو الحميرى. وهذا محل اتفاق بين المؤرخين من العرب والمستشرقين، وبعد ذلك يختلف الفريقان اختلافا كثيرا ، كما تبين لنا من الرسم التالى[١٧].



الثقافة اليونانية والرومانية: ولم تكن فتوحات الاسكندر التى قذفت بالإغريق والرومان إلى ساحات واسعة من أسيا حدثا سياسيا فحسب، بل هى فصل من فصول كتاب التاريخ البشرى نقرأ فيه أخبار التقاء العالمين الشرقى والغربى وجها لوجه، ونزعة الغرب فى السيطرة على الشرق، وتأثر الحضارات والثقافات بعضها ببعض[١٨]. وقد جاءت فتوحات الاسكندر بعلماء من اليونان إلى البلاد العربية الشرقية ولا سيما مصر، فأفادوا واستفادوا، وصارت الإسكندرية بصورة خاصة وبعض مدن الشام ملتقى الثقافات وبقيت الإسكندرية تقوم بهذا الدور حتى ظهور الإسلام[١٩].

وقد بنى الاسكندر مدينة Harax على ملتقى نهر (كارون) بدجلة وأسكنها أتباعه وجنوده، كما بنى مدنا أخرى، وقد كان من المحبين لبناء المدن، وبنى خلفاؤه مدنا جديدة فى الشرق وحمل الفرس عددا من أسرى الروم وأسكنوهم فى ساحل الخليج وفى مواضع أخرى. وطبيعى أن تترك سكنى هؤلاء فى الشرق أثرا ثقافيا[٢٠]. وقد عثر على كتابات يونانية فى مواضع متعددة من الخليج تتحدث عن وجود اليونان فى هذه الأماكن[٢١]، واكتشفت بعثة دانمركية فى جزيرة صغيرة من جزر الخليج هى جزيرة (فيلكا) من جزر الكويت كتابة يونانية على حجر من أيام خلفاء الاسكندر وعثر عليه عام ١٩٣٧ كتبها أحد المواطنين الاثينيين[٢٢].

والمتأمل فى الآثار الباقية للأنباط، يلمس تأثر فن البناء النبطى بالفن الهلينستى، من ذلك آثار المسرح الذى يفضى إلى سهل فسيح تتناثر فيه الكهوف الطبيعية أو المحفورة فى الصخر، وبعض هذه الكهوف واجهات منقوشة فى مدينة البتراء، وكذلك بناء يعرف بالدير، وهو بناء ضخم يزدان بواجهة من الطراز الهيلينستى يرجع إلى القرن الثالث الميلادى[٢٣].

ويظهر التأثر بالنظم الاغريقية فى تنظيمات (تدمر) وخاصة تلك الأسماء اليونانية لمجالسها،وكانت اللغة اليونانية سائدة فيها إلى جانب اللغة الآرامية وآثار معبد (بل) أو (بعل) تعتبر أروع الآثار التدميرية، أما عناصره المعمارية كالأعمدة والتيجان فقد اتبعت الأسلوب الرومانى[٢٤].

وتذكر بعض الروايات أن (الزباء) استقدمت مشاهير رجال الفكر اليونانى الرومانى إلى عاصمتها مثل الفيلسوف الشهير (كاسيوس لونجنيوس) Cassius Longinus (٢٢٠-٢٧٣م) وكان فيلسوفا على مذهب الافلاطونية الحديثة ومن أصدقاء الفيلسوف فورفوريوس Phorphyrios وجعلته مستشارا لها، فأخلص فى مشورته، ومثل الكاتب (كليكراتس الصورى) و(لوبوكوس البيرونى) اللغوى الفيلسوف و(بوسانياس الدمشقى المؤرخ و(نيكوماخوس) Nicomachus من زمرة الكتاب المؤرخين المتضلعين بالاغريقية، ومن الفلاسفة ولابد أن يكون لهؤلاء أثرهم[٢٥].

وقد لعبت المسيحية دورا كبيرا فى نشر الثقافة اليونانية والرومانية بين العرب إذ كانت قبل دخولها جزيرة العرب تحمل فى ثناياها شيئا من الثقافة اليونانية كما هو الشأن فى اليهودية، فإنها أحدى الديانات التى ولدت فى الشرق وانتشرت فى الامبراطورية الرومانية - معهد الثقافة اليونانية - وكانت الإسكندرية هى المركز الجغرافى لمزج الدين بالفلسفة. وفى العصور المسيحية الأولى، كان كثير من آباء الكنيسة فلاسفة قبل أن يكونوا رجال دين لأنهم رأوا من الضرورى أن يؤيدوا أنفسهم وعقائدهم أمام الوثنيين، فلجأوا إلى الفلسفة يستمدون منها التعليل والبرهان فتسربت إلى النصرانية فلسفة أرسطو وأفلاطون وغيرهما. وقد امتاز الشرق بأن أنشئت فيه مدارس لاهوتية متأثرة بالفلسفة اليونانية للأكاديميات اليونانية وأشهر تلك المدارس، مدرسة الإسكندرية

التى كانت فى بدء القرن الثالث للميلاد، وأنشأ ملكيون عام ٢٧٠م مدرسة أنطاكية، وأنشئت فى نصبيين مدرسة أخرى عام ٢٩٧م(٢٦).

وكانت أنطاكية بمثابة حلقة الاتصال بين العالم القديم والعالم الحديث، لذلك كانت مركز الثقافة الحضارية: الاغريق، والشرقية، وأنها كانت تزخر بالاغريق المستشرقين والشرقيين المتأغرقين بين جميع الطبقات، وعلى مختلف درجات التعليم، فقد أصبحت تشتمل ليس على مجرد المذاهب الدينية الاغريقية القديمة الراسخة لعبادة (زيوس) و(أبولو)، وباقى جمهرة هذه الآلهة، بل تشتمل كذلك على المذاهب السورية لعبادة (بعل) Baal والإله الأم فضلا عن الديانات ذات الأسرار بعقائدها عن الخلاص وعن الموت والبعث ووعودها لما بعد الحياة(٢٧).

كذلك شهدت التغييرات التى عرفت بها الحقبة الأخيرة من العصر الهيلينستى حينما كانت المذاهب الدينية والفلسفية القديمة آخذة فى التحول إلى معتقدات فردية، تبعا لانصراف الناس إلى التماس العزاء الدينى عن مشاكلهم ومطامعهم الشخصية، وأصبح مثلها مثل المراكز الأخرى التى كانت قد ازدهرت فيها الديانة والفلسفة الهيلينيستيان، وكان من دعاتها الأول: القديسان (نيقولاوس)، و(برنابا).

وكان اتصال العرب بالروم منفذا لكلمات يونانية ولا تينية دخلت اللغة العربية، كالفردوس، والقسطاس، والدرهم، والدينار، والبطريق، والأوقية، والقيراط، والقسطل، والترياق، والصراط(٢٨).

واستورد العرب السيوف أحيانا من بلاد الروم، ونسبوها إليها، قال عامر المحاربى:

تراوح بالصخر الأصم رءوسهم إذا القلع الرومى عنها تثلما(٢٩)

وأثرت صلة العرب بالروم فى خيالهم، فمثلا علقمة بن عبدة يشبه استدعاء الظليم النعامة برطانة الروم:

يوحى إليها بانقاض ونقنقة   كما تراطن فى أفدانها الروم[٣٠].

وطرفة يشبه مرفقى ناقته القويين بقنطرة الرومى قد دعمها وشدها:

كقنطرة الرومى أقسم ربها   لتكتفن حتى تشاد بقرمد

ورأت امرأة الزبير فقالت: من هذا الذى كأنه أرقم يتلمظ؟ ورأت عليا فقالت: من هذا الذى كأنه كسر ثم جبر ورأت طلحة فقالت: من هذا الذى كأن وجهه دينار هرقلى؟[٣١].

وكان النساطرة على الأخص أكثر إلماما بعلوم اليونان، وقد ترجموا كثيرا من الكتب اللاهوتية والفلسفية، كما اشتهروا بالطب والعلوم الطبيعية وكان من رجال الدين والنساطرة أطباء فى بلاد فارس، ومنهم كثيرون انتشروا فى الحيرة،ولعل هذا هو السبب فى أنه بعد أن ضعف شأن الحيرة، وانتشار الإسلام فى هذه البقاع، كان أول حامل للواء العلم فى الإسلام، (البصرة والكوفة) لجوارهما الحيرة. وكانت أول كتب استخدمت لبث الثقافة اليونانية، هى المكتوبة باللغة السريانية والتى خلفتها المدارس النسطورية. وعلى العموم، فقد كان هؤلاء النساطرة هم الصلة بين اليونان والعرب[٣٢].

ثم أن الدنانير الهرقلية كانت ترد على أهل مكة فى الجاهلية[٣٣] ومن هنا جاء تشبيه امرأة عربية طلحة بأنه دينار هرقلى[٣٤].

وبعض العرب تزوجوا روميات، فمثلا أبو الروم بن عمير بن هاشم بن عبد مناف أمه أمة رومية[٣٥] ونجد فى الجزيرة أشخاصا من الروم، وأسماء رومية مثل زنيرة الرومية التى أعتقها أبو بكر[٣٦] والأزرق غلام الحارث بن كلدة[٣٧]، وأبى الروم وأبى رومى[٣٨].

الثقافة الفارسية: وقد تم الاتصال بهذه الثقافة بصفة رئيسية عن طريق الإمارة العربية التى تكونت على تخوم فارس السابق الإشارة

إليها وهى إمارة (الحيرة)، فقد كانوا هم الصلة بين الفرس وعرب الجزيرة يحملون إليهم التجارة الفارسية، ويبيعونها فى أسواقهم، ويبشرون بالفرس ومدنيتهم، وفى عهد يزدجرد الأول (٣٩٩-٤٢٠م) أرسل الملك أكبر أبنائه (بهرام) إلى عرب الحيرة لينشأ بينهم، ويتعلم الصيد وينعم بجودة الهواء، وذلك فى عهد النعمان الأول، وكان بهرام جور هذا يعرف العربية كما يعرف اليونانية[٣٩]، وقد نازعه على الملك أخوه بعد وفاة يزدجرد، فعاونه العرب وتعصبوا له[٤٠]، فلما اعتلى العرش لم ينس ما كان لعرب الحيرة من يد عليه، فقربهم وأعلى شأنهم وقد رضع بهرام من امرأتين عربيتين وامرأة فارسية، وتوسط عظماء الفرس وأهل البيوتات بالعرب ليتجاوز بهرام عن مساءلتهم إليه ويعفو عنهم[٤١] وأثرت التربية العربية فى بهرام، فأجاد قرض الشعر العربى والفارسى[٤٢].

وكان عرب الحيرة أرقى عقلا ومدنية من عرب الجزيرة لتحضرهم ولمجاورتهم مدنية الفرس العظيمة واتصالهم بهم اتصالا وثيقا، وكان منهم من يعرف اللغة الفارسية ويجيدها، فقد ذكر ابن خلدون، أن (عدى بن زيد) الحيرى كان من تراجمة ابرويز ملك الفرس وأن أباه زيدا كان شاعرا خطيبا وقارئا كتاب العرب والفرس[٤٣] ولا شك أن معرفة هؤلاء الحيريين للغة الفرس كانت واسطة لنقل شىء من حضارتهم وآدابهم إلى العرب.

والخط الحيرى هو أساس الخط العربى، وهو أقدم أشكال الخط العربى، وقد اشتق الخط الحيرى من الخط الآرامى[٤٤]، وذكر البلاذرى نقلا عن عباس بن هشام بن محمد الكلبى أن ثلاثة نفر من طىء اجتمعوا ببقة (بلدة بالحيرة)؛ فوضعوا الخط وقاسوا هجاء العربية على هجاء السريانية فتعلمه منهم قوم من أهل الأنبار ثم تعلمه أهل الحيرة من أهل الأنبار[٤٥]،وإن كان البعض يشكك فى ذلك[٤٦] إلا أنه يمكن التوفيق بين الرأيين[٤٧].

وأخذ فنانوا الحيرة أصول فن العمارة عن طريق الفرس بحكم مجاورتهم وتبعيتهم لهم ولكنهم طوروا فى نظام العمارة عندهم تطويرا أبعده عن أصوله الأولى.

ويحدثنا المسعودى أن (سابور بن هرمز) (٣١٠-٣٧٩م) كان قد أوقع فى العرب موقعة عظيمة[٤٨] وذلك ضمن الحملة العسكرية التى وضعها ذلك الملك للقضاء على نفوذ القبائل العربية التى كانت قد سكنت السواحل الجنوبية من إيران وأقامت بها قبل أيامه بزمن وبعد أن أثخن سابور فى العرب وأجلاهم عن النواحى التى صاروا إليها مما قرب من نواحى فارس والبحرين واليمامة، استصلح العرب وأسكن بعض القبائل تغلب وعبد القيس وبكر بن وائل كرمان وتوج والأهواز[٤٩] وقد كان ذلك بعد حربه مع الروم.

وقد بقى الفرس فى اليمن حتى ظهور الإسلام، وكانت للفرس قوة فى عمان عند ظهور الإسلام، وكانت البحرين تخضع لحكم الساسانيين فى ذلك الوقت كذلك[٥٠].

وقلد المناذرة حكام فارس فى الكثير من شئون حياتهم، فكانوا يلبسون التيجان ولعلهم كانوا يقيمون ستارة تحجبهم عن زوارهم. واتخذوا لهم حجابا، وقد امتدت إليهم بعض الأديان الفارسية، فقد حاول (قباذ) نشر الديانة المزدكية، ولما حاول المنذر مقاومته، أقصاه عن الملك وأتى بالحارث الكندى مكانه كى يعينه هذا على نشرها، ولكن ذلك لم يدم، إذ أن أنوشروان أعقب قباذ فاضطهد المزدكية وأعاد المنذر إلى العرش. ومن المحتمل أن الزرادشتية كانت موجودة خاصة بين الجالية الفارسية وربما دان بها سكان الحيرة[٥١]. وذكر الطبرى أن أردشير بنى بالبحرين مدينة سماها (فنياذ أردشير) وقال إنها مدينة (الخط)[٥٢] أما سابور الأول (٢٤١-٢٧٢م) وهو ابن الملك أردشير مؤسس الدولة الساسانية فقد ذكر أنه تلقن درسا مهما فى السلوك من أذينة ملك تدمر عندما تمكن من القيصر (فالريان) Valerian وأسره

وانتصر على جيشه[٥٣] وكان من العداء الموروث بين الساسانيين والبيزنطيين أن انتقلت عداوه إلى العرب أيضا، فسار أناس مع الفرس وآخرون مع الروم وبين العربين عداوة وبغضاء، مع أنهما من جنس واحد.

وقد رحل بعض العرب إلى فارس ليتعلموا، كالحارث بن كلدة الثقفى، رحل من الطائف إلى جند يسابور وغيرها من فارس، فتعلم الطب، وضرب العود ووفد على كسرى وله معه حديث طويل[٥٤].

وكذلك رحل ابنه النضر إلى الحيرة وإلى فارس، وكان يشترى كتب الفرس ليحدث منها، ويعاند الدعوة الإسلامية[٥٥].

ورحل الأعشى إلى فارس، ومدح كسرى، وأدخل فى شعره كلمات فارسية كثيرة[٥٦].

ووفد عبد الله بن جُدعان على كسرى أنوشروان[٥٧] وكان لعبيدة ابن شرية المخضرم علم بأخبار ملوك العرب والعجم إذ يذكر ابن النديم أنه لما وفد على معاوية بن أبى سفيان سأله عن الأخبار المتقدمة وملوك العرب والعجم[٥٨].

وكانت ترد على أهل مكة فى الجاهلية دراهم الفرس البغلية والكسروية[٥٩].

وقد تسربت إلى الفارسية كلمات عربية، وتسربت إلى العربية كلمات فارسية، ورد بعضها فى شعر الأعشى، وعدى بن زيد العبادى، فمن الكلمات الفارسية: الكوز والجرة والابريق والخوان والكعك والسندسى .. الخ، من ذلك قول عدى بن زيد[٦٠]:

ثم صاروا إلى الصبوح فقامت قينـــة فى يمينها إبريق

وعرف العرب كثيرا من أخبار الفرس وقصصهم كقصة رستم واسفندياذ، وقد ذكر ابن هشام أن النضر بن الحارث كان من شياطين قريش وممن يؤذون النبى ﷺ، وكان قد قدم الحيرة وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس وأحاديث رستم وأسفندياذ، فكأنه إذا جلس رسول الله ﷺ مجلسا فذكر فيه بالله وحذر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نقمة الله، خلفه فى مجلسه إذا قام، ثم قال: أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثا منه، فهلم إلىّ ثم فأنا أحدثكم أحسن من حديثه، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم وأسفندياذ، وهو الذى قال: سأنزل مثل ما أنزل الله، وفيه نزلت ثمانى آيات من القرآن الكريم.

وعرف بعض العرب المجوسية، ودان بها بعض تميم، وسموا أبناءهم بأسماء فارسية، فالنعمان سمى ابنه قابوس، ولقيط بن زرارة التميمى سمى بنته (دختنوس) وقيل أنه تزوجها كما يفعل الفرس، وعيرته العرب ذلك.

وقد دون مؤرخو الفرس تاريخ العرب واستقى منه كثير ممن أرخوا للعرب، فالطبرى مثلا يقول: وكان أمر آل نصر بن ربيعة ومن كان من ولاة ملوك الفرس وعمالهم على ثغر العرب الذين هم ببادية العراق عند أهل الحيرة منبعا لما كان مثبوتا عندهم فى كنائسهم وأشعارهم وقد حدث عن هشام بن محمد الكلبى أنه قال: أنى كنت أستخرج أخبار العرب وأنساب آل نصر بن ربيعة ومبالغ أعمار من عمل منهم لآل كسرى وتاريخ سنيهم من بيع الحيرة، وفيها ملكهم وأمورهم كلها(١١).

الثقافة اليهودية: كان اليهود جاليات كبيرة العدد متعددة الفروع منتشرة فى أماكن كثيرة من منطقة يثرب والطريق المؤدية إلى الشام، وكانت كتل اليهود الكبرى – على ما يبدو – تتركز بالذات فى يثرب حيث كانت فيها ثلاث قبائل ربما بلغ عدد رجالها أكثر من ألفين وهى قينقاع، والنضير، وقريظة، وعلى جانبها كانت توجد بطون وعشائر

يهودية، وقد عاشت قبائل اليهود الثلاثة الكبرى فى مساكنها عيشة التكتل والأحياء الخاصة، بينما عاشت البطون الصغيرة منتشرة إلى جوارهم أو إلى جوار البطون العربية فى يثرب. وقد ابتنى اليهود الحصون والقلاع والقرى المحصنة(٦٢).

ويرى بعض الإخباريون أن ابتداء أمر اليهود بالحجاز ونزولهم وادى القرى وخيبر وتيماء ويثرب، إنما كان فى أيام (بخت نصر) فلما جاء (بخت نصر) إلى فلسطين، هرب قسم منهم إلى هذه المواضع واستقروا بها إلى مجيء الإسلام(٦٣)، أما ما ورد فى روايات أهل الأخبار عن هجرة بعض اليهود إلى أطراف يثرب وأعالى الحجاز على أثر ظهور الروم على بلاد الشام وفتكهم بالعبرانيين وتنكيلهم بهم مما اضطر ذلك بعضهم إلى الفرار إلى تلك الأنحاء الآمنة البعيدة عن مجالات الروم، فإنه يستند إلى أساس تاريخى صحيح(٦٤).

ويؤيد هذا الرأى أن اليهود أنفسهم لم يكونوا يميلون إلى نشر ديانتهم بين الأمم وفى ذلك يقول (ولفنسون) "ولا شك أنه فى مقدرة اليهودية أن تزيد فى بسط نفوذها الدينى بين العرب حتى تبلغ منزلة أرقى مما كانت عليه لو توافرت عند اليهود النية على نشر الدعوة الدينية بطريقة مباشرة، ولكن الذى يعلم تاريخ اليهود، يشهد بأن الأمة الإسرائيلية لم تمل بوجه عام إلى إرغام الأمم على اعتناق دينها وإن نشر الدعوة الدينية من بعض الوجوه، محظور على اليهود"(٦٥).

واستند اليهود على أساس أن اليهودية للعبرانيين أولاد يهوذا ابن يعقوب جنسا، وأتباع موسى دينا، وليست دينا لغيرهم من الأجناس، وأن إلههم وهو (يهوه) هو الإله الحقيقى وغيره من الآلهة إنما هو مثل له، وأن كل نداءات التوراة خاصة (بيهوه) فهى ليست دينا تبشيريا، لذلك لم يقم الأحبار بالدعوة إليها، وجانب آخر أن عدم استقرارهم السياسى: ساعدهم على عدم التبشير وزادهم تمسكا بدينهم(٦٦).

فاليهودية وجدت فى بلاد العرب نتيجة اضطهاد اليهود وترتب على ذلك أن العرب المجاورين لتلك الأقوام تهودوا دينا أو ثقافة تبعا لمجاورتهم تلك الجماعات اليهودية. وكان أهل اليهود باليمن - كما يذهب كتاب السيرة - يرجع إلى الحبرين الذين رافقا تبعا فى رحلته إلى اليمن وهدما البيت المسمى برئام. ومعنى هذا الرأى: أنه يذهب إلى أن اليهودية دخلت وفق دعوة تبشيرية، وقد نقبل أن تكون اليهودية فى عصرها الأول كان لها دعوة تبشيرية أو أنها أرادت أن ترد على الاضطهاد الوثنى لها، فبشرت لتهدم البيت الوثنى المسمى (رئام) وهذا كله إن صحت الرواية(١٧).

على أن اليهود كانوا أهل صناعة وزراعة، والعرب يحتقرون الصناعة ويزدردون الزراعة، فليس بغريب أن يغضوا عن دين الصناع والزراع، يدل على ذلك تعليل الجاحظ لتعظيم العوام للنصارى وازدرائهم لليهود فى الإسلام، وهو صالح أيضا لتعليل ضعف اليهودية عن النصرانية فى الجاهلية "ومما عظم النصارى فى قلوب العوام وحببهم إلى الطغام أن منهم كتاب السلاطين وفراشى الملوك وأطباء الأشراف والعطارين والصيارفة، (وما ترى) اليهودى إلا صباغا أو دباغا أو جماعا أو قصابا أو شعابا، فلما رأت العوام اليهودية والنصارى كذلك، توهمت أن دين اليهود فى الأديان كصناعتهم فى الصناعات"(١٨).

وكان لهم أثر سئ من الناحية العملية، لأنهم انصرفوا إلى كسب المال من طرقه المشروعة وغير المشروعة، فكانوا هم الذين يرابون ويعلمون الناس الربا، وكانوا يوقعون بين القبائل العربية، ولم يعنهم من أمر العرب المتهودين إلا أن ينتفعوا بهم لحمايتهم ولحماية متاجرهم.

وذهبت جماعة من المستشرقين إلى أن العبرانيين هم قوم أصلهم من جزيرة العرب هاجروا منها وارتحلوا عنها على طريقة الأعراب والقبائل المعروفة نحو الشمال، وجزيرة العرب لذلك هى الوطن الأم

الذى ولد فيه العبرانيون ودليلهم على ذلك هو الشبه الكبير بين حياة العبرانيين وحياة الأعراب، وأن ما ورد فى التوراة وفى القصص الإسرائيلى عن حياة العبرانيين ينطبق على طريقة الحياة عند العرب أيضا، أضف إلى ذلك أن العرب والإسرائليين ساميون وجزيرة العرب هى مهد الجنس السامى، فالعبرانيون على رأيهم من جزيرة العرب، وهم جماعة من العرب إذن إن صحت هذه التسمية. وكان العرب فى أيام تكوين العبرانيين حكومة فى فلسطين يؤثرون تأثيرا خطيرا فى الوضع السياسى هناك وقد كانوا يقطنون بكثرة فى الأقسام الشرقية والجنوبية من فلسطين وفى طور سيناء وغزة[٦٩].

وعلى الرغم مما قلناه من عدم تحمس اليهود لنشر دينهم، إلا أن هذا لم يمنع من أن يتهود بعض عرب الحجاز[٧٠]، فكان حول مكة قبائل عربية متهودة هى بطون من كنانة وبنى الحارث بن كعب وبنى كندة[٧١] وتهود قوم من غسان ومن جزام[٧٢] وهاد بنو حشنة ابن عكارمة من بلى بتيماء[٧٣] وهاد بعض الأوس والخزرج لما جاوروا اليهود[٧٤].

والذين لم يتهودوا، كانوا يتصلون باليهود، ويتأثرون بهم، فقيس ابن الخطيم يتغزل فى يهودية[٧٥] والحارث بن عباد يشبه بعيد اليهود وطبولهم[٧٦]، وكانت نساء بعض الخروج ينذرون إن ولدن ولدا أن يهودنه إذا عاش، لأن اليهود أهل علم وكتاب[٧٧].

وقد انتشرت بين العرب بعض تعاليم التوراة وما يتصل بها من شروح وأساطير سمعها العرب فى الجاهلية وسمعها المسلمون فى الإسلام[٧٨] ومما يدل على ذيوعها أن القرآن الكريم كثيرا ما يجادلهم ويدحض آراءهم.

ولا شك أن اليهود كانوا فى نظر العرب أكثر منهم ثقافة، واستنارة، لأنهم أهل كتاب، لذلك كان يقتدى بهم الأوس والخزرج فى كثير من

الأعمال[٧٩]، وكان ابـن إسـحاق صـاحب السيرة المتوفـى سـنة ١٥٠هـ يحمل عن اليهود والنصارى ويسميهم فى كتبه أهل العلم الأول[٨٠].

ويلاحظ أن يهـود الجاهليـة لـم يحـافظوا علـى يهوديتهـم وعلـى خصائصهم التى يمتازون بهـا ويحـافظون عليهـا محافظـة شـديدة، كمـا حـافظوا عليهـا فـى الأقطـار الأخـرى، فـأكثر أسـماء القبـائل والبطـون والأشـخاص، هـى عربيـة والشـعر المنسـوب إلـى شـعراء منهـم يحمـل الطابع العربى، والفكر العربى، وفى حياتهم المنسوب إلى شعراء منهم يحمـل الطـابع العربـى، والفكـر العربـى، وفـى حيـاتهم الاجتماعيـة والسياسية لم يكونوا يختلفون اختلافا كبيرا عن العرب وقد عاش اليهود فى جزيرة العرب معيشة أهلها، فلبسوا لباسهم وتصاهروا معهم[٨١].

وقد سبق أن أشرنا إلى دخول اليهودية إلى جنوب الجزيرة، وقد أخذ ساعدها يشتد حتى إذا أقبل القرن السادس للميـلاد، صـارت لهـا صولـة فى اليمن بحيث أن آخـر ملـوك حمـير وهـو ذ ونـواس، كـان يهوديـا[٨٢] وأنك لترى (خاتم سليمان الحكيم) منقوشا على جـدران بعض المسـاجد فى البلاد[٨٣]. والذى يلوح لنا أن ذا نواس كان يمثل الروح القوميـة فـى البـلاد، فـرأى فـى النصـارى مـن مواطنيـه مـا يذكـره بحكـم الأحبـاش المسيحيين البغيض، وإلى هذا العاهل تعزى مذبحة نصارى نجران فـى تشرين الأول سنة ٥٢٣م،ويقال أنه جمـع مـن نجـامنهم ثـم دعـاهم إلـى اليهودية فخـيرهم بيـن القتـل والدخـول فيهـا، فاختـاروا، القتـل، فخذلهـم أخدود النار ذات الوقود[٨٤].

وبواسطة المراكز اليهودية، تطرقت إلى مفردات اللغة العربية ألفـاظ عبرانية مثل جبريل وسوره وجبار[٨٥].

هذا وقد كان ليهود يثرب وأعالى الحجاز أثر فى الكتابة بين العـرب والحجاز كالذى نـراه فـى قـول الأخبـاريين مـن تعلـم الأوس والخـزرج الكتابة من يهود ومن تعلم زيد بن ثابت الكتابة من يهود أيضا بالعبرانية

والعربية[٨٦]، وأغلب الظن أن مراد الأخباريين من العبرانية، هو اللغة السريانية، وقد ورد فى الأخبار أيضا، أن الرسول حينما قدم يثرب، استعان بكاتب يهودى ليكتب له، ثم أمر الرسول زيد بن ثابت أن يتعلم الكتابة خوفا من غش اليهودى وتزويره.

الثقافة المسيحية: وكانت المسيحية قد انقسمت إلى جملة كنائس، أو بالأحرى جملة فرق، تسرب منها إلى جزيرة العرب فرقتان كبيرتان: النساطرة، واليعاقبة، فكانت النسطورية منتشرة فى الحيرة واليعقوبية فى غسان وسائر الشام. كذلك كانت هناك صوامع فى وادى القرى، وأهم مواطن المسيحية فى الجزيرة كان (نجران) وكانت مدينة خصبة عامرة بالسكان،وكان بنجران كعبة، قال ياقوت: (وكعبة نجران هذه – يقال بيعة بناها بنو عبد المدان بن الديان الحارثى على بناء الكعبة، وعظموها مضاهاة للكعبة وسموها كعبة نجران)، وكان نصارى نجران على مذهب اليعاقبة، وهذا يعلل اتصالهم بالحبشة "لأنهم كانوا يعاقبة أيضا، أكثر من اتصالهم بالرومان"[٨٧].

أما فى قلب الجزيرة وبخاصة مدن الحجاز التجارية، فلم تكن المسيحية مجهولة، ذلك بأن سكان هذا الأقليم كانوا على اتصال دائم بأهل الشمال، ولا شك أن الرهبان الذين كانت صوامعهم تنتشر من فلسطين وشبه جزيرة سيناء حتى قلب الصحراء كان لهم أثر عظيم فى تعريف العرب بالنصرانية. على أن الصحراء كانت ملجأ لبعض الفرق المضطهدة من الكنيسة الرسمية، ففى ناحية من نجد كشف بلى Pely عن عمود مسيحى حطمه الوهابيون[٨٨] وقد تنصر من قريش، بنو أسد ابن عبد العزى منهم عثمان بن الحويرث، وورقة بن نوفل[٨٩]،وكان ورقة قد استحكم فى النصرانية حتى علم من أهل الكتاب كثيرا[٩٠].

وفى عهد الدولة الحميرية، بدأت المسيحية تنتشر فى اليمن، وكان انتشارها تدريجيا على أيدى مبشرين مسيحين وخاصة اليعاقبة الذين

جاءوا من الحبشة وأنشأوا لهم كنائس في عدن وظفار، وربما ساعد على نشر المسيحية أيضا، الإرساليات النسطورية من الحيرة وإرساليات من سوريا، وأخذوا يبثون منها الدعاية المسيحية حتى استطاعوا أن ينصروا عددا من أهل اليمن. وفى سنة ٣٤٠م، هاجم الأحباش اليمن واستولوا عليها ووجدت المسيحية فيهم سندا قويا(٩١).

وكان ملوك الحيرة في الشطر الأول من الدولة وثنيين، أما في الشطر الثاني، فقد اعتنق معظمهم النصرانية، وكان معظم نصارى الحيرة من النسطوريين وطبيعي أن النصرانية انتقلت إليهم من الشام حيث كان أصحاب المذهب النسطوري مضطهدين. وإلى نصارى الحيرة، يرجع الفضل في نشر المسيحية في الجزيرة العربية، ويجب ألا ننسى أثرهم أيضا في حمل بعض مظاهر الحضارة الفارسية إلى بلاد العرب(٩٢).

وكان الحارث بن جبلة (٥٢٩-٥٦٩) أعظم ملوك غسان مسيحيا على المذهب المونوفيزيني أى مذهب الطبيعة الواحدة، وكان يتولى الدفاع عن المونوفيزيين لتحريرهم من اضطهاد البيزنطيين لهم(٩٣)، ويقال أنه سعى لدى الامبراطور تيودور (في عام ٥٤٢-٥٤٣) لتعيين يعقوب البرادعي مؤسس الكنيسة السورية اليعقوبية ورفيقه (ثيودوروس) أسقفين في المقاطعات العربية في سوريا، ونشر بذلك المذهب المونوفيزيني في بلاده، وظل الحارث طوال سنى حكمه حاميا للكنيسة المونوفيزينية ونجح في تحويل العرب بالشام إلى متنصرة على المونوفيزينية.

ويظهر من بعض روايات الإخباريين، أن بعض أهل الجاهلية كانوا قد اطلعوا على التوراة والإنجيل وأنهم وقفوا على ترجمات عربية للكتابين، أو أن هذا الفريق كان قد عرب بنفسه الكتابين كلا أو بعضا، ووقف على ما كان عند أهل الكتاب من كتب في الدين. وقد وجد المسلمون في الحيرة عند الفتح عددا من الأطفال يتعلمون القراءة والكتابة وتدوين الأناجيل وقد برز نفر منهم وظهروا في علوم اللاهوت

وتولوا مناصب عالية فى سلك الكهنوت فى مواضع أخرى من العراق، فلا غرابة إذا ما قام هؤلاء بتفسير الأناجيل وشرحها للناس للوقوف عليها، وقد لا يستبعد تدوينهم لتفاسيرها أو لترجمتها لتكون فى متناول الأيدى ولا سيما بالنسبة إلى طلاب العلم المبتدئين، وقد لا يستبعد أيضا توزيع بعض هذه الترجمات والتفاسير إلى مواضع أخرى لقرائها على النصارى للتبشير(٩٤).

وقد نشرت المسيحية تعاليمها بين العرب، وأوجدت فيهم من يميل إلى الرهبنة ويبنى الأديرة، فهم يحدثونا أن حنظلة الطائى فارق قومه ونسك، وبنى ديرا بالقرب من شاطئ الفرات، ويعرف هذا بدير حنظلة، وترهب فيه حتى مات؛ ويذكرون أن قس بن ساعده كان يتقفر القفار، ولا تكنه دار يحتسى بعض الطعام ويأنس بالوحوش والهوام، وغيرها. وكان القسس والرهبان يردون أسواق العرب، ويعظون ويبشرون، ويذكرون البعث والحساب، والجنة والنار. وقد ورد فى القرآن الكريم كثير من الآيات تحكى أقوالهم وتفند مذاهبهم، مما يدل على انتشار هذه التعاليم بينهم(٩٥).

وكان للمسيحية أثر آخر فى نصارى عرب الجاهلية، هو أثرها فيهم من ناحية الفن، إذ أدخلت المسيحية بين العرب فنا جديدا فى البناء هو الكنائس والأديرة والمذابح والمحاريب والزخرفة، كما أدخلت النحت والتصوير المتأثرين بالنزعة المسيحية. ولدخول أكثر هذه الأشياء لأول مرة بين الجاهليين، استعملت مسمياتها الأصلية اليونانية أو الآرامية فى اللغة العربية، بعد أن صقلت وهذبت حتى اكتسبت ثوبا يلائم الذوق العربى فى النطق(٩٦).

ولعبت المسيحية دورا هاما فى نشر الكتابة بقلم بنى إرم بين العرب، فقد كانت الكنائس الشرقية تعد هذا القلم، قلمها الرسمى المقدس، فكان قلم كنيستها وقلم رجال دينها وعلمها، ومن يتعلم الدين والعلم عندها، فلابد أن يكتب بهذا القلم، وقد كان مبشروها وقد جابوا

مختلف أنحاء الجزيرة واختلطوا بقبائلها يكتبون بهذا القلم ويعلمون به من يرغب في القراءة والكتابة،ومن هنا شاعت هذه الكتابة بين المسيحيين العرب، وأخذت تتغلب على قلم حمير الذى لم يكن كهذا القلم فى المرونة والسهولة(٩٧).

وتبدو النزعة المسيحية فى قول شاعر الحيرة (عدى بن زيد العبادى)(٩٨):

سعى الأعداء لا يألون شرا علىّ ورب مكة والصليب

وقال النابغة الذبيانى فى مدح الغساسنة:

مجلتهم ذات الإله ودينهم قديم فما يرجون غير العواقب

رقاق النعال طيب حُجُزاتهم يحيون بالريحان يوم السباسب(٩٩)

وجاء فى التعليق على البيتين للأعلم الشنتمرى قوله: يريد أنهم كانوا نصارى وكتابهم الانجيل، وهو كتاب الله عز وجل. والسباسب عيد من أعياد النصارى.

وكانت النصرانية منتشرة بين بعض القبائل العربية كطيى وبنى كلب وبعض بنى قضاعة. فقد كان عدى بن حاتم الطائى على دين النصرانية حينما قدم على رسول الله ﷺ يعلن إسلامه، وكان يعلق فى رقبته صليبا.

والحق أن نصارى العرب فى الجاهلية إنما عرفوا ظاهرا من دينهم، وقلما عرفوا حدوده، وقد سقطت إلى أشعارهم وأشعار الوثنيين أنفسهم كلمات ومصطلحات كثيرة منه ومن شخوصه وطقوسه، فمنذ امرئ القيس وقوله(١٠٠).

يضيئ سناه أو مصابيح راهب أهان السليط فى الذبال المفتل

والشعراء يرددون ذكر الرهبان ومحارب كنائسهم، يقول الأعشى:

وطالما تحدثوا عن نواقيسهم وقرعها فى أواخر الليل، يقول المرقش الأكبر فى بعض شعره:

وتسمع تزقاء من البوم حولنا كما خربت بعض الهدوَّ النواقس(١٠١)

وذكر أوس بن حجر عيد الفصح الذى كانوا يحتفلون به فيوقدون المشاعل ويضيئون الكنائس بالقناديل والمصابيح، يقول:

عليه كمصباح العزيز يشبه لفصح ويحشوه الذُّبال المفتّل(١٠٢)

الآشوريون والبابليون: من وثيقة عثر عليها فى حران دونها الملك (نبونيد) Nabonid (القرن السادس قبل الميلاد) نفهم أن العراقيين قد استولوا على منطقة مهمة من الحجاز قبل الميلاد، وإن بعد المسافات بين الحجاز أو العربية الجنوبية لم يحل بين الآشوريين والبابليين وبين التوغل مسافة شاسعة فى جزيرة العرب من طرفيها، ومن اجتياز نجد أيضا. وقد تنقل (نبونيد) مدة عشر سنوات فى هذه المنطقة التى فتحها من الحجاز فى أرض يبلغ طولها حوالى ٢٧٠ ميلا (نيماد) إلى يثرب وحوالى ١٠٠ ميل عرضا، يراجع أهلها وينزل بين قبائلها ويختلط بها، ثم يعود إلى عاصمته تيماء حيث يسير منها أمور الدولة. ويظهر أنه تطبع من خلال إقامته هذه بين العرب ببعض طباعهم، واقتبس بعض مصطلحاتهم حيث وردت فى النص(١٠٣). لقد ترك فتح نبونيد لهذه المناطق من الحجاز وبقاء بعض من نقلهم إلى هذه المواضع فيها للاستيطان بها أثرا كبيرا من الناحية الثقافية والاقتصادية والحضارية، وهى نواح لم تدرس حتى الآن، ولم يهتم بها أحد، ولكن وجود ألفاظ عراقية قديمة فى لغة أهل يثرب والمناطق الأخرى التى تقع فى الشمال وخاصة فى الزراعة، يدل دلالة واضحة على أثر العراق فى أهل هذه المواضع(١٠٤).

وقد لاحظ بعض الباحثين وخاصة (ونكل) و(هومل) و(دوفرنى) أن بعض مظاهر الحضارة المعينية تشبه حضارة البابليين، فالإله شماس وعشتروت البابلية، يشبه اسمها الإله شمس وعُثر اليمانية، كما أن النقوش والأختام المعينية تشبه ما عند العراقيين، والمكارب اليمانيين يشبهون الملوك الكهنة السومريين،وقد استنتجوا من ذلك أن أصل المعينيين العراق، غير أن هذا التشابه الجزئى فى مظاهر الحضارة لا يكفى أن يكون دليلا قاطعا على كونهم جائوا من العراق، إذ يجوز أن يكون الساميون العراقيون قد جاءوا من أصل واحد فى محل ما، أوقد يكون التشابه فى مظاهر الحضارة نتيجة الاختلاط الذى كان بين البلدين منذ أزمنة سحيقة[١٠٠].

وقد جاء فى نص آشورى أن الملك سنحريب بن سرجون الثانى (٧٢٤-٧٠٥) أرسل حملة إلى الخليج، فانتصرت وحققت رغباته، وقد فر ملك أرض البحر إلى أرض عيلام، ويظهر أن سنحريب قد تمكن فعلا من إخضاع الأعراب، ومن السيطرة عليهم، ويرى بعض الباحثين فى نعت هيرودوتس له بأنه ملك العرب والآشوريين، تعبيرا عن إخضاع سنحريب الأعراب لحكمه، وإن كان ذلك قد وقع لأمد محدود، وفى الصورة التى رسمها الآشوريين للعرب تصورهم يقبلون أرجل ملوك (نينوى) ليرضوا عنهم مقدمين لهم الهدايا فيها الذهب والحجارة الكريمة وأنواع الطيب والكحل واللبان والجمال. وصوروا الآشوريين وهم يحرقون خيام الأعراب، وهم نيام، وصوروا عساكرهم يقاتلون الأعراب ويطاردونهم على ظهور خيولهم، أما العرب فإنهم على ظهور الجمال لا يستطيعون الإفلات من الآشوريين[١٠١].

ويؤكد (حسن إبراهيم) أن الأعمال الهندسية فى مملكة سبأ قد تأثرت بالأبنية المصرية والبابلية، وهى - بلا شك - ذات طابع قريب الشبه بالأبنية التى أقامها قوم يتمتعون بثقافة هؤلاء الذين يسكنون وادى النهر من حيث ضبط المياه المعرضة للفيضان الذى يحدث فى أوقات دورية.

وتدل النقوش التى وجدت فى جنوب غربى بلاد اليمن على أن الأشكال الأولى لحروف الهجاء قد اشتقت عن الأشكال البابلية(١٠٧).

وعندما قامت الدولة الأشورية باحتلال سوريا وفلسطين، ساعد ذلك على انتعاش الطريق التجارى المار بالعراق، ولابد أن هذا أدى إلى ضعف التجارة التى كانت تمر من غربى الجزيرة، وقد أدرك اليمانيون، وربما القبائل التى تسكن غربى الجزيرة قوة الآشوريين وخطرهم فراحوا يتوددون لهم ويرسلون لهم الهدايا.

ولما نشطت الحركة التجارية فى (تدمر) لم يقتصر التدمريون على نقل البضائع أو تزويد القوافل المارة بهم ، بل أخذوا يقومون بالتجارة بأنفسهم، فكونوا وكلاء وجاليات فى عدة بلدان فيها بابل، ولا ريب أن التجارة قد ساعدتهم على الاحتكاك بأهلها ، ووسعت أفق نظرهم كما أدت إلى استعمال لغتهم(١٠٨).

هوامش الفصل الثالث

١- على الجندى، ص١٢٠.
٢- أحمد أمين، فجر الإسلام، ص١٥.
٣- المرجع السابق، ص١٦.
٤- عبد المنعم ماجد، ص٨٩.
٥- خودابخش، الحضارة الإسلامية، ترجمة على حسن الخربوطلى، دار أحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٦٠، ص٣١.
٦- المرجع السابق، تعليق الخربوطلى، هامش ص٣١.
٧- السيد عبد العزيز سالم، ص٨٢.
٨- صالح العلى، ص٤١-٤٢.
٩- فيليب حتى، ص٤٠.
١٠- المرجع السابق، ص٤١.
١١- نافع، ص٥٢.
١٢- زكى رشيد ومبروك نافع، (الأطلس الجغرافى التاريخى) دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٢٩، القسم التاريخى، خريطة ١٧، ص٦٩.
١٣- المفصل، جـ١، ص٥٠٣.
١٤- المرجع السابق، ص٦٢٧-٦٢٨.
١٥- المفصل، جـ٢، ص٣٤،٣٥.
١٦- إسرائيل ولفنسون، تاريخ اللغات السامية، القاهرة، ١٩٢٠، ص٨٥.
١٧- محمد عبد المنعم خفاجي، الحياة الأدبية فى العصر الجاهلى، مكتبة الحسين التجارية، القاهرة، ١٩٤٩، ص٥٦.
١٨- المفصل، جـ٢، ص١١.
١٩- المرجع السابق، ص١٢.
٢٠- المرجع السابق.
٢١- المرجع السابق، ص٣٠.
٢٢- المرجع السابق، ص٣٢.
٢٣- السيد عبد العزيز سالم، ص٩٨.
٢٤- المرجع السابق، ص١٢٠.
٢٥- المفصل، جـ٣، ص١٠٨.
٢٦- فجر الإسلام، ص٢٨.
٢٧- محمد إبراهيم الفيومى، فى الفكر الدينى الجاهلى، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٣، ص٤٧.
٢٨- أحمد الحوفى، الحياة العربية، ص١٣٣.
٢٩- القلع، السيوف.
٣٠- الأنقاض: التصويت. النقنقة: صوت الظليم. الأفدان، جمع فدن وهو القصر.
٣١- الحوفى، ص١٣.

٣٢- فجر الإسلام، ص٢٩.
٣٣- البلاذرى، فتوح البلدان، مطبعة الموسوعات بمصر، ١٩٥٠، ص٤٧١-٤٧٢.
٣٤- ابن قتيبة، عيون الأخبار. دار الكتب، القاهرة، ١٩٢٥، جـ٤، ص٢٥.
٣٥- ابن الأثير، أسد الغابة فى معرفة الصحابة، المطبعة الاسلامية، طهران ١٣٧٧، جـ٥، ص١٩٤.
٣٦- المرجع السابق، جـ٥، ص٤٦٢. ٣٧- المرجع السابق، جـ٥، ص٤٨١.
٣٨- المرجع السابق، جـ٤، ص٤٢٧.
٣٩- فجر الإسلام، ص١٧.
٤٠- تاريخ الطبرى، جـ٢، ص٧٢، وأيضا: النويرى، نهاية الإرب، جـ١، ص٣٧٢.
٤١- تاريخ الطبرى، جـ٢، ص٧٨.
٤٢- المسعودى، مروج الذهب، جـ١، ص١٢٦.
٤٣- تاريخ ابن خلدون، جـ٢، ق٣، ص٥٥٥.
٤٤- فتوح البلدان، جـ٣، ص٥٧٩.
٤٥- عبد الفتاح عبادة، انتشار الخط العربى فى العالم الشرقى والعالم العربى، القاهرة، ١٩١٥، ص٩.
٤٦- خليل يحيى نامى، أصل الخط العربى وتاريخ تطوره إلى ما قبل الإسلام، مجلة الآداب، الجامعة المصرية، ٣٢، جـ١، مايو ١٩٣٥، ص١٠٤-١٠٦.
٤٧- السيد عبد العزيز سالم، ص١٩٢.
٤٨- مروج الذهب، جـ١، ص٢١٥، وانظر أيضا آرثر كريستينس (إيران) ترجمة يحيى الخشاب وعبد الوهاب عزام، القاهرة، ١٩٥٧، ص٧٥.
٤٩- الطبرى، جـ٢، ص٦٩ وما بعدها، جـ٢، ص٦١.
٥٠- المفصل، جـ٢، ص٦٤٧- ص٦٤٨.
٥١- صالح العلى، ص٧٦، ٧٧.
٥٢- للطبرى، جـ٢، ص٤١.
٥٣- المفصل، جـ٢، ص٦٣٤.
٥٤- ابن أبى أصيبعة، عيون الأنباء فى طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٥، ص١٦١ فما بعدها.
٥٥- ابن هشام، سيرة النبى، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد، مطبعة حجازى، القاهرة، جـ١، ص٢٣٠.
٥٦- ياقوت الحموى، معجم البلدان، مطبعة السادة، القاهرة، ١٩٠٦، جـ٢، ص٥١.
٥٧- الأغانى، جـ٨، ص٤.
٥٨- ابن النديم، الفهرست، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ١٣٤٨هـ، ص١٣٢.
٥٩- فتوح البلدان، ص٤٧١-٤٧٢.

٦٠- أحمد الحوفى، الحياة العربية، ص١٢٠.
٦١- الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، ٣٧/٢.
٦٢- مكة والمدينة، ص٢٩٤، ٢٩٥.
٦٣- ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، دار صـادر، بيروت، ١٩٦٥، جـ١، ص٦١، وما بعدها.
٦٤- المفصل، جـ٦، ص٥١٨.
٦٥- إسرائيل ولفنسون، تاريخ اليهود فى بلاد العرب، مطبعة الاعتماد، القاهرة، ١٩٢٧، ص٧٢.
٦٦- محمد إبراهيم الفيومى، ص٨٤.
٦٧- المرجع السابق، ص٨٥.
٦٨- أحمد الحوفى، الحياة العربية، ص١٤٠.
٦٩- المفصل، جـ١، ص٦٤٠، ٦٣١.
٧٠- اليعقوبى، تاريخ اليعقوبى.
٧١- المرجع السابق، جـ١، ص٢٩٨، وعيون الأخبار، جـ٣، ص٤٠٨، جـ٢، ص٤٩.
٧٢- تاريخ اليعقوبى، جـ١، ص٩٨.
٧٣- البكرى، معجم ما ستعجم من أسماء البلاد والمواضع، تحقيق مصطفى السقا، لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٤٥، جـ١، ص٢٩.
٧٤- تاريخ اليعقوبى، جـ١، ص٢٩٨.
٧٥- أحمد محمد الحوفى، المرأة فى الشعر الجاهلى، دار الفكر العربى، القاهرة، ١٩٦٣، ص٢٩.
٧٦- المرجع السابق.
٧٧- السهيلى، الروض الأنف - شرح سيرة ابن هشام، مطبعة الجمالية، القاهرة، ١٩١٤، جـ٢، ص٢٤.
٧٨- العسقلانى، فتح البارى بشرح صحيح البخارى، المطبعة الأميرية القاهرة، ١٣٠١هـ، جـ١٣، ص٤٣١.
٧٩- المرأة فى الشعر الجاهلى، ص٢٩.
٨٠- الفهرست لابن النديم، ص١٣٦.
٨١- المفصل، جـ١، ص٥٣٢.
٨٢- فيليب حتى، جـ١، ص١٨.
٨٣- أحمد زكى، مجلة الهلال، القاهرة، جـ٣٧، ١٩٢٩، ص١٠٥٠.
٨٤- سورة البروج/٤.
٨٥- فيليب حتى، ص١٥١.
٨٦- القلقشندى، صبح الأعشى فى صناعة الانشا، وزارة الثقافة والإرشاد القومى، القاهرة، بدون تاريخ، جـ٣، ص١١.
٨٧- فجر الإسلام، ص٢٦.

٨٨- نافع، ص٩.
٨٩- تاريخ اليقوبى، جـ١، ص٢٩٨.
٩٠- سيرة ابن هاشم، جـ١، ص٢٤٣.
٩١- صالح العلى، ص٢٨.
٩٢- نافع، ص١١٠.
٩٣- السيد عبد العزيز سالم، ص١٢٩.
٩٤- المفصل، جـ٦، ص٢٧.
٩٥- فجر الإسلام، ص٢٧.
٩٦- المفصل، جـ٦، ص٦٦٠.
٩٧- المرجع السابق، جـ٧، ص٦٥.
٩٨- على العتوم، ص٤٢١.
٩٩- طيب حجزاتهم: أى أعفاء الفروج. رقاق النعال: أى أنهم ملوك.
١٠٠- شوقى ضيف، ص ١٠١، والسليط: الزيت.
١٠١- المرجع السابق، نفس الصفحة، التزقاء: الصياح، والهدو: أوائل الليل.
١٠٢- المرجع السابق، ص١٠٢.
١٠٣- المفصل، جـ١، ص٦١٨.
١٠٤- المرجع السابق، ص٦١٩.
١٠٥- صالح العلى، ص١٨.
١٠٦- المفصل، جـ١، ص ٥٩١، ٦٠٦.
١٠٧- تاريخ الإسلام السياسى، جـ١، ص ٢٦، ٢٧.
١٠٨- صالح العلى، ص ٣٨، ٥٠.

الفصل الربع

الكتابة والقراءة

النظرية الشائعة لدى أكثر من كتب عن عرب الجاهلية، هى وصفهم بالأمية وجهلهم الكتابة والقراءة وانحطاطهم العلمى وقلة بضاعتهم فى المعرفة لأنهم كانوا بداة حفاة يعيشون فى الصحراء، لا حضارة ومدنية عندهم وغاية ما امتازوا به هو إجادتهم فى القول من شعر وخطابة، وبراعتهم فى وصف الجمل المتناسقة والأسجاع الموفقة. وهذا الوصف على الرغم من تناقضه وتهافته، لايستند على حقيقة ولا يقوم أمام المناقشة،فلا يعقل أن يكونوا فصحاء، إذا لم يكونوا متقفين كتابا ذوى مستوى علمى حسن وتفكير منطقى معقول وذوق فنى ملموس، أما أميتهم فوصف خاطىء لا ينطبق على الحقيقة، وتنقضه نصوص موثوقة قديمة وأدلة علمية حديثة[١].

ثم إننا كثيرا ما نسقط معايير حاضرنا على دراسة ماضينا، فالكتابة والقراءة الآن مسألة ضرورية وحيوية لكل فرد ولكل مجتمع، بينما نجد أن مثل هذه الضرورة تقل إلى حد كبير جدا بالنسبة للمجتمعات التى عاشت العصور القديمة. إن الفلاح الذى تقتصر أدواته على الفأس والمحراث والشادوف والطنبور لايجد بنفسه حاجة إلى القراءة والكتابة، لأنه يجد أن هذه الأدوات لايقوم استعمالها على معرفتها، بينما الفلاح المعاصر الذى يستخدم الجرارات وآلات الرى وأجهزة الحصد الميكانيكية، لابد له من معرفة علمية بتشغيلها ولا يتم هذا إلا بقراءة وكتابة. وربة البيت التى كانت تعتمد على غسل الملابس بيديها تختلف حاجتها للقراءة والكتابة بطبيعة الحال عن ربة البيت المعاصرة التى تستخدم الغسالات الكهربائية، وهكذا نجد أنه حتى مع التسليم بندرة القراءة والكتابة فى المجتمع الجاهلى، فإن ذلك لم يكن غريبا وإنما هو

شـيء طبيعـي فـي تلـك العصـور فـي كـل المجتمعـات، ومـع ذلـك فـإن دراستها ستكشف عن وجود الكتابة والقراءة فى هذا العصر الجاهلى.

ومـن الغريـب أن رمـى العـرب القدمـاء بـالجهل والأميـة نجـده فـى الكتابات العربية لا كما قد يتبادر إلى الأذهان من أن القائلين بذلك لابد وأن يكونوا من المستشرقين[٢] وعلى سبيل المثـال، نجـد الجـاحظ يقـول فى أحد كتبه[٣]:

"وكل شيء للعرب، فإنما هو بديهة وارتجـال، ثـم لايقيده (العربـى) على نفسه ولا يدرسه أحدا من ولده. وكانوا أميين لايكتبون''. ونلمس مدى تناقض الجاحظ مع نفسه فى هذه التهمة، إذا قلبنـا صفحـات كتـاب آخر له إذ نجده يؤكد أن أى أمة من الأمم لايمكن أن تخلو مـن القـراءة والكتابة، فيقول[٤]:"وليس فى الأرض أمة بها طرق أو لها مُسـكة[٥]، ولا جيل لهم قبض وبسط إلا ولهم خط.....''

كذلك نجد أن ابن سعد يذكر عددا كبيرا من الذين عرفواالكتابـة فـى الجاهليـة ومـع ذلـك – يـا للدهشـة – يعقـب علـى ذلـك بقولـه: "وكـانت الكتابه فى العرب قليلة''!

وهذا عبد القادر البغدادى صاحب الخزانة يورد بيت الحطيئة:

سيرى أمام فإن الأكثرين حصا والأكرمين، إذا ما ينسون، أبا

ثم يقول: معنى الحصـا: العدد، إنمـا أطلـق علـى العـدد لأن العـرب أميون لايقرؤون‌ولا يعرفون الحساب، إنما كانوا يعدون بالحصا فـأطلق الحصا على العدد[٦].

هل كان العرب أميين كلية؟

وإزاء هذه الأقوال وغيرها، لابد لنا من وقفة نتساءل فيها عن حقيقة اتهام العرب بالأمية الجامعة لهم.

والأمى فى تفسير علماء اللغة من لا يكتب، أو العيى الجلف الجافى القليل الكلام، قيل أمى لأنه على ما ولدته أمه عليه من قلة الكلام وعجمة اللسان[٧] أو الجهل التام بالقراءة والكتابة، "لأن أمة العرب لم تكن تكتب ولا تقرأ المكتوب"[٨] أو لأن الكتابة كانت فيهم عزيزة أوعديمة، أوعديمة،أو الأمى الذى على خلقه الأمة لم يتعلم الكتابة، فهو على جبلته، فذهبوا إلى أن العرب كانوا على أصل ولادة أمهم، لم يتعلموا الكتابة ولا الحساب، فهم على جبلتهم الأولى.

وقد بحث الراغب الأصفهانى فى معنى الأمية، فقال :"والأمى، هو الذى لايكتب ولايقرأ من كتاب، وعليه حمل: هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم. قال قطرب: الأمية، الغفلة، والجهالة، فالأمى منه، وذلك هو قلة المعرفة"[٩].

وقد جاءت الإشارة فى القرآن الكريم إلى أمية العرب فى مواضع عدة نذكر منها قوله تعالى: ﴿وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم﴾[١٠] وقوله: ﴿ذلك بأنهم قالوا: ليس علينا فى الأميين سبيل﴾[١١] وقوله: ﴿هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم﴾[١٢].

وفى تفسير الآية الأولى يقول الطبرى[١٣] "يعنى بذلك جل ثناؤه، وقل يامحمد للذين أوتوا الكتاب من اليهود والنصارى والأميين الذين لا كتاب لهم من مشركى العرب أأسلمتم ... "، أى أنه يتفق فى هذا مع كثير من المفسرين عندما يؤكدون أن المقصود بالأميين هم الذين لا كتاب لهم من غير اليهود والنصارى. وجاء أيضا أن النبى ﷺ، كان يكره أن يظهر المجوس على أهل الكتاب من الروم[١٤] قال الطبرى: "وكان النبى ﷺ يكره أن يظهر الأميون من المجوس على أهل الكتاب من الروم، ففرح الكفار بمكة وشمتوا فلقوا أصحاب النبى ﷺ، فقالوا: أنكم، والنصارى أهل كتاب ونحن أميون وقد ظهر أخواننا من أهل فارس على إخوانهم من أهل الكتاب"[١٥] فالمسلمون أهل كتاب،

والمجوس أميون كمشركى مكة وبقية العرب المشركين، لا لكونهم لايقرأون ولا يكتبون، بل لأنهم لم يؤمنوا بالتوراة والإنجيل.

كذلك يفسر الطبرى آية الجمعة بنفس المعنى تقريبا، فقد قال: "والأميون هم العرب، قال (قتادة): هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم قال: كان هذا الحى من العرب أمية، ليس فيها كتاب يقرأونه، فبعث الله نبيه محمدا ﷺ، رحمة وهدى يهديهم به" وقال: "كانت هذه الأمة أمية لا يقرأون كتابا" وقال: "إنما سميت أمة محمد ﷺ الأميين لأنه لم ينزل عليهم كتابا" وقوله: "ويعلمهم الكتاب..يقول، ويعلمهم كتاب الله وما فيه من أمر الله ونهيه وشرائع دينه، والحكمة، يعنى بالحكمة السنن". وقال: "ويذكرهم ويعلمهم الكتاب والحكمة أيضا كما علم هؤلاء يزكيهم بالكتاب والأعمال الصالحة، ويعلمهم الكتاب والحكمة كما صنع بالأولين". وقال فى تفسير "وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين، يقول تعالى ذكره، وقد كان هؤلاء الأميون من قبل أن يبعث الله فيهم رسولا منهم فى جور عن قصد السبيل وأخذ على غير هدى مبين. يقول يبين لمن تأمله أنه ضلال وجور عن الحق وطريق الرشد"[١٦]. وقال ابن كثير فى تفسيرهما[١٧]: "وذلك أن العرب كانوا قديما متمسكين بدين إبراهيم الخليل عليه السلام، فبدلوه وغيروه وخالفوه واستبدلوا بالتوحيد شركاء، وباليقين شكا... فبعث الله محمدا صلوات الله وسلامه عليه بشرع عظيم كامل لجميع الخلق، فيه هدايته والبيان لجميع ما يحتاجون إليه من أمر معاشهم ومعادهم".

أما ابن عباس، فهو يفسر (ومنهم أميون) بقوله: "سماهم أميين لجحودهم كتب الله ورسوله". وما روى عن ابن عباس هو فى رأى ابن جرير تأويل على خلاف ما يعرف من كلام العرب أن الأمى عند العرب، هو الذى لايكتب، ورأى ابن جرير يعتمد على ما تفسر به الأمية لغة، فلأكثر الكلمات معان متعددة ومختلفة، وأكثر الكلمات يحصرها سياق الكلام فى معنى واحد، وكثيرة هى الكلمات التى تنتقل

من معنى إلى آخر، وهذا هو الذى جعل ابن عباس وابن زيد يقولان: [من اليهود أميون لم يصدقوا رسولا أرسله الله ولا كتابا أنزله الله ولا يعرفون الكتاب-أى التوراة إلا أمانى]، والأمانى جمع أمنية، والأمنية، من التمنى، والتمنى حديث النفس بما يكون وبما لا يكون، ومن معان التمنى: الكذب، يتمنى الحديث، أى يضع حديثا لا أصل له، ومن معانيه، القراءة - تمنى الكتاب، قرأه وكتبه، قال تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته﴾[١٨] أى قرأ وتلا، ألقى فى تلاوته ماليس فيه[١٩]، وعلى ذلك اختلف المفسرون فى تفسير الأمانى فقال بعضهم: أنها حديث النفس بما ليس لها، وقال البعض، الأمانى ظنون يضعونها لا أصل لها فى الكتاب، فهؤلاء الأميون - هم: الذين تحدث عنهم المفسرون: لايعلمون الكتاب إلا أمانى مشحونة بوسوسة النفس، وهؤلاء الأميون هم الذين قال عنهم القرأن: ﴿فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون: هذا من عند الله﴾[٢٠]، هم: أميون على ما جبلتهم أمهاتم عليه، وليس تحميل كلمة (الأميين) معنى الذين لا كتاب لهم يقرءونه، خروجا عن معنى الأمية[٢١].

أما قوله ﷺ :"إنا أمة أمية لانكتب ولا تحسب"، فلا ينقض ما قدمنا من رأى، وذلك لأنه قال ذلك فى حديث الصيام عن رؤيه الهلال،وفى الحديث بقية، وهو كاملا: "إنا أمة أمية لانكتب ولا نحسب الشهر هكذا هكذا"[٢٢]. فهذا الحديث - أولا- لا يعنى إلا ضربا خاصا من الكتابة والحساب هو حساب سير النجوم، و تقييد ذلك بالكتابة لمعرفة مطلع الشهر، فقد أخبر أن هذا الضرب من العلم المدون والمسجل القائم على الحساب والتقويم لم يكن للعرب عهد به، ومن هنا علق الحكم بالصوم وغيره بالرؤية لرفع الحرج عنهم فى معاناة حساب التسيير.

ثم إن هذا الحديث يعارضه حديث آخر ينسب إلى الرسول، وهو: "قريش أهل الله، وهم الكتبة الحسبة"[٢٣]. والقرآن الكريم نفسه يفند أن

قريشا لم يكونوا يحسنون الكتاب أو الحساب لما فيه من آيات تناقض هذا الرأى،وهناك أحاديث كثيرة يجب عدم الأخذ بها لأنها ضعيفة، ويشبه أن يكون الحديث المذكور، واحدا منها.

معرفة العرب بالقراءة والكتابة:

وهكذا يمكن لنا أن ننتهى إلى القول بأن كلمة (أمى) و(أمية) لم تكن تعنى عند الجاهلية معنى عدم القراءة والكتابة والجهل بها. أما تفسير الكلمة بالجهل بالكتابة والقراءة، فقد وقع فى الإسلام، أخذوه من ظاهر معنى لفظة (الكتاب) الواردة فى القرآن، فظنوا أنها تعنى (الكتابة) بينما المراد منها الكتاب المنزل لعدم انسجام تفسيرها بالكتابة مع معنى الآية. ويبدو أن يهود يثرب هم الذين أطلقوا لفظة (الأميين) على العرب المشركين، ولا يعقل أن يكون إطلاقهم لهذه الكلمة للعرب بسبب جهل العرب بالكتابة والقراءة[24] فقد كانت الجمهرة الكبرى من اليهود والنصارى فى شبه الجزيرة أمية أيضا لا تقرأ ولا تكتب، إلا أن القرآن أخرجهم من الأميين واستثناهم وأطلق عليهم (أهل الكتاب)، وذلك يدل دلالة واضحة على أن المراد من (الأميين) العرب الذين ليس لهم كتاب أى العرب الذين لم يكونوا يهودا ولا نصارى.

ولكن وجود الكتابة فى زمان أو مكان، ليس بلازم أن يكون معناه شيوعها وانتشارها، شأنها شأن كل شىء فى الوجود، فقد تكون موجودة، ولكنها قليلة ونادرة، وذلك هو ما كان فى العصر الجاهلى[20]، كانت الكتابة موجودة ومعروفة لديهم، ولكنها كانت بنسبة قليلة، فقد كانت غالبية الشعب لا تعرف القراءة والكتابة، ثم أن وسائلها من الجلود والعظام وسعف النخل وقطع الخشب وأمثالها كانت غير ميسرة، ولا تحبب فى استعمالها والاهتمام بها لكى يسجلوا بها كل آثارهم، ومن ثم كان هناك نفر يسير بينهم يعرفون القراءة والكتابة، وكان السواد الأعظم من السكان يجهلها.

ذكر ابن سلام أن الناس أصبحوا يوما بمكة فرأوا على باب دار الندوة هذين البيتين:

ألهى قُصيا عن المجد الأساطير ورشوة مثل ما ترشى السفاسير[٢٦].

وأكلها اللحم بحتا لا خليط له . وقولها: رحلت عير أتت عير

فأنكروا ذلك، وقالوا: ما قالها إلا ابن الزبعرى.

وجاء فى حديث رجل كندى من دومة الجندل أنه يمن على قريش أن بشر بن عبد الملك أخا أكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل قد علم قريشا الكتابة.

وقد تآمرت قريش على النبى وعلى المسلمين، فتعاقدوا فى صحيفة مكتوبة أن يقاطعوا بنى هاشم وبنى عبد المطلب، وعلقوا الصحيفة فى الكعبة[٢٧].

وكثيرا ما شيد الشعراء الأطلال - وقد عرجتها الرياح - بالصحف المكتوبة وبالكتابة، كقول الأخنس بن شهاب التغلبى أن الآثار - تشبه كتابة العنوان، لأن كتابته واضحة مُجودة:

لا بنة حِطّان بن عوف منازل كما رقش العنوان فى الرق كاتب

وقول طرفة أنها كسطور الكتابة الجميلة المزينة التى نمقها الكاتب فى وضح النهار، لأن ذلك أحكم:

أشجاك الرَّبع أم قدمُه أم تراب دارس حُمَمُه

كسطور الرمد رقّشه بالضحا مُرَقّش بَشِمُه

وقول المرقش الأكبر:

الدار قفر والرسوم كما رقّش فى ظهر الأديم قلم[٢٨].

وجاء ذكر الورق فى نصوص شتى من الشعر الجاهلى، فالحارث بن حلزة يشبه آثار الديار بمهارق الفرس :

لمن الديار عفون بالجبس		آياتها كمهارق الفرس

وطرفة يشبه خد ناقته الأبيض بالقرطاس.
والحارث بن حلزة يذكر أن حلف ذى المجاز كان مكتوبا فى مهارق

واذكروا حلف ذى المجاز وما قُدّ		م فيه العهود والكفلاء
حذر الخون والتعدى وهل تنقضُ		ما فى المهارق الأهواء[٢٩].

كما يروى أن ابن الأعرابى لما بعث إليه أبو أيوب أحمد بن محمد ابن شجاع غلاما من غلمانه يسأله المجئ إليه، عاد إليه الغلام، فقال: قد سألته ذلك، فقال لى: عندى قوم من الأعراب، فإذا قضيت أربى معهم أتيت. قال الغلام، وما رأيت عنده أحدا إلا أنى رأيت بين يديه كتبا ينظر فيها، فينظر فى هذا مرة، وفى هذا مرة[٣٠].

وقال ابن السكيت عن أبى عمرو الشيبانى، مات عمرو الشيبانى وله مائة وثمانى عشرة سنة، وكان يكتب بيده إلى أن مات، وكان ربما استعار منى الكتاب وأنا إلى ذلك صبى آخذ عنه وأكتب من كتبه.

ويقولون عن اختيار أبى تمام لديوان الحماسة "أن الثلج عاقه عن السفر ودَنان فى العراق، فاستضافه أبو الوفاء بن سلمة، وأحضره خزانة كتبه فطالعها واشتغل بها وصنف خمسة كتب فى الشعر، منها كتاب الحماسة، والوحشيات".

ثم أن التصحيف نفسه يدل على وجود الكتب المؤلفة فى الأدب، كما أن الأخبار قد وردت بوقوع بعض أئمة الرواة فى التصحيف، وهذا معناه أنهم كانوا، بجانب الأخذ مشافهة كانوا يأخذون كذلك من الكتب، رغبة فى ازدياد المعرفة، وسعة أفق الرواية، ومما يروى فى هذا الشأن ما حدث من الأصمعى، إذ يقول أبو حاتم السجستانى: قرأ الأصمعى على أبى عمر بن العلاء شعر الحطيئة فقرأ قوله:

وغررتنى وزعمت أنـ		ـك لا بنٌ بالضيف تامر

أى كثير اللبن والخمر، فقرأها (لاتنى بالضيف تأمر) أى لا تتوانى عن ضيفك تأمر بتعجيل القرى له، فقال له أبو عمرو: أنت والله فى تصحيفك هذا أشعر من الحطيئة(٣١).

وقد دعت العرب ظروف عديدة إلى معرفة القراءة والكتابة، يتصل بعض هذه الظروف بالأحوال السياسية والاقتصادية، ويتصل بعضها الآخر بتقاليد الحياة الجاهلية، فقد قامت بينهم وبين الأمم المجاورة وخاصة الفرس والروم، صلات سياسية واسعة دعتهم إلى تعلم لغات هؤلاء وأولئك، كما دعتهم إلى تعلم القراءة والكتابة لتسهيل هذه الصلات وكتابة مواثيقهم ومعاهداتهم، فالنضر بن الحارث بن كلدة القرشى، وهو من أشراف قريش، كان يذهب ببعض تجارته إلى الحيرة، ويتصل هناك بالفرس ويشترى كتبهم، ويظهر أنه كان على صلة ببعض النصارى واليهود فى داخل الجزيرة وخارجها(٣٢).

وكما كانت الحاجة السياسية والتجارية دافعا لأن يتعلم بعض الجاهليين ويعلموا أبناءهم الكتابة والقراءة بالعربية وغيرها من اللغات، فإن تقاليد السيادة العربية التى كانت تفرض على أصحابها أن يحسنوا الكتابة والقراءة، ونشأت عن ذلك طبقة كانت تعرف (بالكملة)، فيروى ابن سعد فى طبقاته أنه كان من صفات الرؤساء والسادة، أن يكونوا عارفين بالكتابة: "فقد كان من يحسن العوم والرمى والكتابة يسمى كاملا" ومن هؤلاء الكملة: سويد بن صامت الأوسى، وكان شاعرا شجاعا كاتبا سابحا(٣٣).

ويرى إبراهيم عبد الرحمن أن (الشعراء الكتاب) كانوا هم أيضا، بجانب (المتحنفين القراء) طبقة أخرى من طبقات المثقفين الجاهليين، وهناك نصوص كثيرة تدل على ذلك منها ما سبق أن أثبتناه، ومنها ما يروى من أخبار لقيط الأيادى الذى كان كاتبا لكسرى بالعربية وما روى من أخبار غيره من مثل: المرقشى وأخيه حرمله، وهناك: سويد

بن صامت الأوسى وعبد الله بن رواحة، وكعب بن مالك الأنصارى، والزبرقان بن بدر كانوا يكتبون أشعارهم[٣٤].

وان لدينا، على قلة ما وصل إلينا من أخبار العصر الجاهلى، فصلين عقدهما ابن رسته فى الأعلاق النفيسة، ومحمد بن حبيب فى (المحبر) عن أسماء المعلمين وأخبارهم فى الجاهلية والإسلام، فذكر من الجاهليين: عمرو بن زرارة وكان يسمى الكاتب، وغيلان بن سلمة ابن معتب، وبشر بن عبد الملك[٣٥].

وفى القرآن الكريم آيات كثيرة تذكر الكتاب والكتابة وأدوات الكتابة والصحف والسجل والمداد والأقلام وما إليها مما يتعلق بالخط حتى أن باحثا أحصى كلمات الكتابة ومشتقاتها فى القرآن، فوجدها أكثر من ٣٠٠ كلمة كما أحصى كلمات الكتاب القراءة ومشتقاتها فوجدها نحو ٩٠ مرة ونيف بأساليب متنوعة، وقد علق على هذا بقوله "فورود هذه الآيات الكثيرة فى القرآن تحتوى أسماء ووسائل وأدوات القراءة والكتابة، هذه الحفاوة الكبيرة، دليل .. على أن العرب فى بيئة النبى .. قد عرفوا تلك الوسائل والأدوات واستعملوها، وعلى أن القراءة والكتابة فيهم كانتا منتشرتين فى نطاق غير ضيق، فكثرة الترديد تدل على الألفة وهذه لا تكون إلا حيث يكون المألوف ذائعا ذيوعا غير يسير. وإذا لاحظنا أن أولى آيات القرآن هى ﴿اقرأ﴾ بأسلوب يدل على حفاوة عظيمة، وأن ثانية آيات نزلت بعدها .. هى آيات سورة القلم التى أقسم الله فيها بالقلم والكتابة، مما يدل كذلك على حفاوة بالغة، ازداد قولنا قوة وتأييدا".

أما الأدلة العلمية التى تؤكد هذا أيضا، فقد بحثها المستشرق المؤرخ الإيطالى البرنس كايتانى فى الفصل الذى كتبه عن نشأة الخط العربى إذ أثبت بالأدلة المادية والاكتشافات النقشية والوثائق الخطية وبخاصة فى الشام والجزيرة أن الخط العربى قديم الوضع، وأن الكتابة كانت رائجة فى الجزيرة ومشارف الشام قبل البعثة النبوية بكثير[٣٦].

ومن الآيات القرآنية التى تؤكد معرفة العرب القدامى بالقراءة والكتابة قوله تعالى: ﴿وقالوا أساطير الأولين، اكتتبها، فهى تملى عليه بكرة وأصيلا﴾[٣٧]، فهذا يعنى أن هناك من الجاهليين من كانوا يدونون الأخبار والقصص والتاريخ، وأن هناك من كان يملى هذه الموضوعات فى مجالسه، كذلك فهناك آية أخرى تبين أن من المعجزات التى كان يطالب المشركون الرسول ﷺ أن ينزل عليهم كتاباً من السماء كى يقرءوه، فيقول سبحانه:[٣٨]﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ... أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء، ولن نؤمن لِرُقِيِّكَ حتى تُنَزِّل علينا كتاب نقرؤه، قل سبحان ربى هل كنت إلا بشرا رسولا﴾.

وهناك نص هام لابن فارس بهذا الشأن يقول فيه[٣٩]: "... فأما من حكى عنه من الأعراب الذين لم يعرفوا الهمز والجر والكاف والدال، فإنا لم نزعم أن العرب كلها مَدَراً ووَبَراً، قد عرفوا الكتابة كلها والحروف أجمعها،وما العرب فى قديم الزمان إلا كنحن اليوم: فما كلٌّ يعرف الكتابة والخط والقراءة وأبو حية (النميرى الذى لم يعرف الكاف) كان أميا، وقد كان قبله بالزمن الأطول من يعرف الكتابة ويخط ويقرأ''، وكان أصحاب رسول الله ﷺ كاتبون .. أفيكون جهل أبى حية بالكتابة حجة على هؤلاء الأئمة؟ والذى نقوله فى الحروف، هو قولنا فى الإعراب والعروض. والدليل على صحة هذا وأن القوم تداولوا الإعراب أنا نستقرىء قصيدة الحطيئة التى أولها:

شاقتك أظعان للـيـ ـلى دون ناظرة بواكر

فنجد قوانينها كلها عند الترنم والإعراب تجىء مرفوعة، ولولا علم الحطيئة بذلك لأشبه أن يختلف إعرابها لأن تساويها فى حركة واحدة -اتفاقا من غير قصد - لا يكاد يكون.

فإن قال قائل: فقد تواترت الروايات بأن الأسود أول من وضع العربية وأن الخليل أول من تكلم فى العروض، قيل له: نحن لا ننكر ذلك، بل نقول أن هذين العلمين قد كانا قديما، وأتت عليهما الأيام وقلا فى أيدى الناس، ثم جددهما هذان الإمامان، وقد تقدم دليلنا فى بعض الإعراب. وأما العروض فمن الدليل على أنه كانا متعارفا معلوما، اتفاق أهل العلم على أن المشركين لما سمعوا القرآن قالوا – أو من قال منهم – أنه شعر، فقال الوليد بن المغيرة منكرا عليهم: لقد عرضت ما يقرؤه محمد على أقراء الشعر: هجزه ورجزه وكذا وكذا، فلم أره يشبه شيئا من ذلك، أفيقول الوليد هذا وهو لا يعرف بحور الشعر)[٤٠]؟

وهكذا نجد أن ابن فارس يؤكد وقوف بعض الجاهليين على الكتابة والقراءة، بل يذهب إلى ما هو أبعد من ذلك عندما يشير إلى أنهم قد عرفوا علوم اللغة وقواعدها وعروضها.

وأننا لا نعطى البحث حقه، إن سرنا وراء ما فهمه (رشيد رضا) مما جاء فى بحث (درمنغام) المستشرق الفرنسى عن النبى ﷺ: "أن أبا طالب الذى كفل النبى ﷺ لم يكن غنيا، فلم يتح له تعليم الصبى الذى بقى أميا حياته''، ففهمنا مع السيد رشيد أن (درمنغام) يوهم القارئ "أن أولاد الموسرين بمكة كانوا يتعلمون، كأن هناك مدارس يعلم فيها النشء بالأجور كمدارس بلاد الحضارة، وهذا باطل لا أصل له''[٤١]، فإن ما قلناه يبين بوضوح أن من العرب من عرف القراءة والكتابة.

كذلك لابد من الإشارة إلى الفارق بين الحياة العربية فى عصور ما قبل الميلاد والحياة العربية فى عصور ما قبل الإسلام، فلقد كان نصيب الفكر العربى من ذلك الفارق لا يقل عن نصيب عمران العرب واقتصادهم، فلم يثبت الكتبة العرب وجودهم فى ظلام التدهور الذى خيم على الجزيرة قبل شروق الإسلام، فجهل الكثيرون وجودهم. أجل، أنا إذا ما توغلنا فى التاريخ العربى القديم، نجد الكتابة والقراءة فى جاهلية ما قبل المسيح، أفضل بكثير منها فى جاهلية ما قبل الإسلام

بدليل آثار الدول العربية فى بلاد ثمود وغيرها والخطوط التى ظهرت فى جنوبى الجزيرة وشمالها[٤٢].

تدوين الآثار:

ويعتبر التدوين مظهرا هاما من مظاهر المعرفة بالقراءة والكتابة فى الجاهلية إذ يشير مؤرخو الأدب إلى أن هناك من الأدباء من يحتمل أنهم كانوا يقرؤن ويكتبون. ويرجحون كذلك، أنهم قاموا بتدوين آثارهم الأدبية أو بعضها على الأقل. كذلك يؤكدون أن بعض القبائل قامت بجمع آثار أدبائهم وتدوينها محتجين فى ذلك بذكر كتب يحمل كل منها اسم قبيلة معينة يضم أخبارها وآثارها، مثل كتاب قريش وكتاب ثقيف. قال حماد الراوية، أرسل الوليد بن يزيد إلىّ بمائتى دينار وأمر يوسف ابن عمر بحملى إليه على البريد، قال فقلت لا يسألنى إلا عن طرفيه قريش وثقيف، فنظرت فى كتابى قريش وثقيف، فما قدمت عليه سألنى عن أشعار بلىّ، فأنشدته منها ما استحسنته[٤٣]، وهناك أيضا كتاب تميم، وغير أولئك، جاء فى المفضليات:

وجدنا فى كتاب بنى تميم (أحق الخيل بالركض المعار)[٤٤]

ويبدو أن فكرة تدوين الآثار الأدبية، قديمة عند العرب، فقد روى عن حماد الراوية أن النعمان بن المنذر المتوفى عام ٦٠٢ "أمر فنسخت له أشعار العرب فى الطنوج (الكراريس) ثم دفنها فى قصره الأبيض، فلما كان المختار بن أبى عبيد (حوالى سنة ٦٧هـ) قيل له: أن تحت القصر كنزا فاحتفره، فأخرج تلك الأشعار، ومن ثم كان أهل الكوفة أعلم الشعر من أهل البصرة"[٤٥].

ويقول ابن سلام: "وقد كان عند النعمان بن المنذر منه (من شعرالعرب فى الجاهلية) ديوان فيه أشعار الفحول وما مدح هو وأهل بيته به، فصار ذلك إلى بنى مروان أو صار منه"[٤٦]. وبعض الباحثين يشك فى هذه الدعوى بسبب أن راويها حماد، وأنه ربما افتعلها ليفضل

أهل الكوفة على أهل البصرة فى الخلافات التى نشبت بين البلدين[٤٧].
ويثنى (شوقى ضيف) على هذا الرأى قائلا أنه إذا كان القرآن على قداسته لم يجمع فى مصحف واحد إلا بعد وفاة الرسول، وبعد مشاورة بين أبى بكر والصحابة، فذلك وحده كاف لبيان أن العرب لم تنشأ عندهم فى الجاهلية فكرة جمع شعرهم أو أطراف منه فى كتاب[٤٨].
ونحن نميل إلى قول على الجندى فى تصديق هذه الرواية، فمن المعقول الذى يكاد يصل إلى حد الواقع المؤكد أن يعتز الملوك والسادة الكبار بما قيل فيهم من مدائح، ومالهم من آثار، فيعملوا على تسجيلها وتدوينها لتظل خالدة[٤٩].

وكما كان الأدباء منهم من يقرأ ويكتب، كان من الرواة من يعرف القراءة والكتابة، فيروى عن أبى عمرو بن العلاء أن كتبه "ملأت بيتا له إلى قريب من السقف، ثم أنه تقرأ، فأحرقها كلها، فلما رجع بعد إلى علمه الأول لم يكن عنده إلا ما حفظه بقلبه"[٥٠]

ويقول صاحب الأغانى "كان حماد الراوية فى أول الأمر يتشطر ويصحب الصعاليك واللصوص فنقبت ليلة على رجل فأخذ ماله، وكان فيه جزء من شعر الأنصار فقرأه حماد فاستحلاه وتحفظه، ثم طلب الأدب والشعر وأيام الناس ولغات العرب بعد ذلك وترك ما كان عليه، فبلغ فى العلم ما بلغ"[٥١].

بيئات الكتابة:

استطاع د.على العتوم أن يحدد أهم البيئات التى تواجدت فيها الكتابات العربية كثرة أو قلة حسب بعدها أو قربها من مظاهر التحضر فى البيئات التالية[٥٢]:
١- الممالك العربية، وأشهرها ثلاث: مملكة حمير فى اليمن، والمناذرة فى العراق، والغساسنة فى الشام.

أما أهل اليمن، فقد اشتهروا منذ قديم الزمان بخطوطهم وكتاباتهم التى تدل على مبلغ ما وصلوا إليه من تحضر وتمدن، حيث كانت الحياة فى بلاد اليمن على طول عهود ممالكها المختلفة تستدعى الكتابة والتدوين، لما حفلت به هذه البلاد من ترق فى مختلف شئون الحياة: السياسية والاقتصادية والزراعية والعمرانية، فالدولة الوحيدة التى كان لها الشأن داخل الجزيرة منذ أقدم العصور وحتى مجيئ الإسلام هى مملكة اليمن ذات العلاقات المتشعبة مع الهند والأحباش والفرس والمناذرة وملوك كندة(٥٣).

أما مملكة المناذرة فى العراق وعاصمتها الحيرة، فإن هذه المدينة إذ كانت مضمارا زاخرا تتلاقى فيه مختلف الحضارات من هندية وفارسية وعربية ورومية وسريانية، كان لابد أن تزدهر فيها الكتابة وتنشأ الكتاتيب، فقد اتخذ الأكاسرة وأكابر الفرس ممن تخرج من كتاتيب الحيرة كتابا لهم يتولون أمور مراسلاتهم، وكان هؤلاء ممن حذق إلى جانب العربية التى لقنها فى بلاده الفارسية حتى صار ماهرا باللسانين، ومنهم: زيد بن حماد العبادى الذى استعمله كسرى على البريد فى حوائجه، ومنهم عدى بن زيد العبادى الشاعر المشهور(٥٤).

أما القرى الأخرى التى راجت فيها صناعة الكتابة وتعلمها من قرى العراق، فمنها عين التمر حيث يذكر أن خالد بن الوليد رضى الله عنه لما فتح حصن عين التمر وغنم ما فيه وجد فى بيعتهم أربعين غلاما يتعلمون الإنجيل عليهم باب مغلق.

وبالنسبة لدولة الغساسنة بالشام، فإن العلاقات التجارية الوطيدة بين الشام وأهل الجزيرة والعلاقات السياسية القديمة ولا سيما مع أهل المدينة: الأوس والخزرج تغرينا بالاعتقاد بوجود الكتابة العربية فى ديار الشام، ومما يؤيد هذا الاتجاه أن الحارس بن أبى شمر الغسانى ملك الشام كتب إلى أكثم بن صيفى التميمى أحد حكماء العرب أن يكتب له شيئا من الحكمة ينتفع به، فكتب إليه بما طلب(٥٥).

٢- المدن العربية: وأشهرها مكة المكرمة، فقد كانت تتميز بعدة أمور تجعل من المحتم أن تنشأ فيها الكتابة لنشوء دواعيها العديدة، ففيها كعبة العرب، وأشهر أسواقها وأهلها أفصح العرب، وأعظمهم سؤددا وزعامة، ولذا كانت تعد مدينة العرب جميعا، وكان أهم مظهر لهذه المدينة اشتغال أهلها بالتجارة واستقرار حياتهم، فهي مدينة أرستقراطية، يتمثل ذلك في دار ندوتها التي كانت بمثابة مجلس نواب في أيامنا الحالية، ومن البديهي أن تكون التجارة وسيلة هامة للاشتغال بالكتابة والحساب لتسجيل الديون وعقد العهود، والحساب لتقدير الربح والخسارة(٥٦).

وهناك الطائف، التي بلغ من شهرتها بالكتابة، أن كان فيها (كتاب) ومعلمون، يذكر ابن حبيب أن غيلان بن سلمة بن معتب، وهو ممن أسلم يوم الطائف كان كاتبا، كما كان معلما، وهذا يذكرنا بالحجاج وأبيه اللذين كانا معلمين في كتاتيبهما، وأكبر الشواهد على انتشار الكتابة فيها، حذق شاعرها الأكبر أمية بن أبي الصلت لهذا الفن، واتقانه أكثر من لغة، لأنه كان ممن اطلع على الكتب وتدين(٥٧).

وفي المدينة، يلاحظ قلة الكتابة والكتاب فيها نسبيا إذا ما قيست إلى المدينتين السابقتين، وتحدثنا كتب التاريخ أن الكتابة نشأت في أهلها بتأثير اليهود الذين تعلموا العربية وعلموها لهم.

٣- المتدينون، وهم إما عرب تهودوا أو تنصروا أو تحنفوا، ومن المرجح أن يكون تدينهم مظنة العلم والكتابة، ومن أشهر هؤلاء (ورقة بن نوفل) الذي تنصر وتمكن من النصرانية وابتغى الكتب من أهلها حتى علم علما كثيرا من أهل الكتاب. ومنهم قيس إبن نشبة عم الشاعر: العباس بن مرداس السلمي أو ابن عمه الذي ذكر أنه كان ممن قرأ الكتب. ومنهم الشاعر أمية بن أبي الصلت

الثقفى، فقد كان فى الجاهلية ممن يؤمنون بـالبعث ويقرأون الكتب الدينية(٥٨).

وإذا كانت الإشارات السابقة تبرز وجود الكتابة فـى الحواضـر، فـلا يعنى ذلك أن البوادى كانت تقرأ منها، فإياد وتميـم وهذيـل، مثـلا، كلهـا قبـائل بدويـة تسـكن الصحـارى والأريـاف، ومـع ذلـك تحدثنـا التواريـخ بظهور الكتابة بينهم وإن كان ذلك بنسب متفاوتة(٥٩).

ولم يقتصر تعلم الكتابة فى بلاد العـرب علـى الرجـال وحدهـم ، بـل وجدت نساء لهن مشاركة فيها، ومنهم الشفاء بنت عبد الله العدوية من رهط عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فقد تعلمت الكتابة فى الجاهلية، وهى من المهاجرات الأوائل، وقد أمرها رسول الله ﷺ أن تعلـم زوجـه حفصة الكتابة، فعلمتها، وعلمتها كذلك رقية تعرف برقية النمل(٦٠).

موضوعات الكتابة:

لعلنا بعد أن تبينا معرفة العرب القدماء بالقراءة والكتابة، بحاجة إلـى أن نتساءل عن تلك الموضوعات التى كانوا يكتبون عنها؟ وهذا هو ما سوف نحاول الإجابة عليه فيما يلى.

الكتب الدينية: فمـا دام البعـض مـن العـرب كـان يهوديـا والبعـض الآخـر نصرانيـا، فمـن المنطقـى أن يكـون لهـؤلاء وهـؤلاء كتـب دينيـة تشرح لهم تعاليم الدين وتبين لهم أحكامه وتحكـى لهـم قصصـه وحكمـه وأمثاله. ومن الثابت أن المسلمين بعد فتح خيبر، وجدوا مصـاحف فيهـا توراة فجمعوها ثم أرجعوها لليهود(٦١). وفى حديث سـويد بـن الصـامت أنه قال لرسول الله ﷺ: لعل الذى معك مثل الذى معى! فقال: وما الـذى معك؟ قال سويد: مجلة لقمان(٦٢) – أى كتاب فى حكمة لقمـان: فقـال لـه الرسول: اعرضها علـى. فلمـا عرضهـا عليـه قـال لـه: إن هـذا الكـلام

حسن. والذى معى أفضل من هذا، قرآن أنزله الله تعالى، هو هدى ونور[٦٣].

وقال عمرو بن ميمون الأودى: كنا جلوسا بالكوفة، فجاء رجل ومعه كتاب فقلنا، ما هذا الكتاب؟ قال: كتاب دانيال، فلولا أن الناس تحاجزوا عنه لقتل وقالوا: أكتاب سوى القرآن؟[٦٤].

وقال عمر بن الخطاب للنبى ﷺ: إنا نسمع أحاديث من يهود تعجبنا أفترى أن نكتب بعضها؟ فقال: أمتهوكون أنتم كما تهوكت اليهود والنصارى[٦٥]؟.

وقال النابغة يمدح الغساسنة النصارى ويذكر الإنجيل:

محلتهم ذات الاله ودينهم　　قويم فما يرجون غير العواقب[٦٦]

وقال السموءل يصف اليهود:

وبقايا الأسباط أسباط يعقو　　ب دراس التوراة والتابوت[٦٧]

العهود والمواثيق والأحلاف: صحيح أنهم فى تعاهداتهم كانوا يعتمدون كثيرا على المشافهة لكن هذا لم يمنع من وجود عهود ومواثيق وأحلاف مكتوبة تعظيما للأمر ودرءا لما قد يسببه النسيان لها من اختلاف وتنازع. وهناك شعر جاهلى يشير إلى مثل هذه العهود قال الحارث بن حلزة اليشكرى فى شأن بكر وتغلب:

واذكروا حلف ذى المجازومـا　　قُدم فيه، العهود والكفـلاء (الرهائن)

حذر الجور والتعدى، وهل ينـ　　ـقض ما فى المهارق الأهواء

ويؤكد الجاحظ أن إطلاق كلمة (مهارق) على الكتب، يعنى بها أنها كتب دين أو كتب عهود وميثاق وأمان[٦٨].

ومن أشهر هذه العهود والمواثيق، صحيفة قريش التى تعاهدوا فيها "على بنى هاشم وبنى عبد المطلب على ألا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم، ولا يبيعوهم شيئا ولا يبتاعوا منهم: فلما اجتمعوا لذلك، كتبوه فى صحيفة، ثم تعاهدوا وتواثقوا على ذلك ثم علقوا الصحيفة فى جوف الكعبة توكيدا على أنفسهم"(٦٩).

الصكوك: إذ لما كانت المهنة الأساسية للعرب القدامى هى التجارة، كان من المعقول أن يدونوا حساباتهم وديونهم فى (صكوك) حتى لا يضيع حق أحد، ومما يوضح ذلك ما ورد فى كتاب رسول الله ﷺ لثقيف، فقد جاء فيه "وما كان لهم من دين فى رهن فبلغ أجله، فإنه لواط منبرأ من الله. وما كان من دين فى رهن وراء عكاظ، فإنه يقضى إلى عكاظ برأسه وما كان لثقيف من دين فى صحفهم اليوم الذى أسلموا عليه فى الناس، فإنه لهم"(٧٠).

وقد أشار الشعراء إلى مثل هذه الصكوك، فقال علياء بن أرقم ابن عوف من بنى بكر بن وائل:

أخذت لدين مطمئن صحيفة ... وخالفت فيها كل من جار أو ظلم

الرسائل الخاصة: وهى التى تبادلها الأفراد يتناقلون فيها الأخبار، ومما يشير إلى ذلك أنه قدم على الحارث بن مارية الغسانى الجفنى رجلان من بنى فهد يقال لهما: حزن وسهل إبنا رزاح، وكان عندهما حديث من أحاديث العرب، فاجتباهما الملك، ونزلا بالمكان الأثير عنده فحسدهما زهير بن جناب، فقال، "أيها الملك، هما والله عين لذى القرنين عليك (يعنى المنذر الأكبر جد النعمان بن المنذر) – وهما يكتبان إليه بعورتك وخلل ما يريان فيك"(٧١).

وإلى جانب ذلك، كانت هناك (مكاتبة الرقيق) وإن كانت قليلة جدا، حيث كان يتم الاتفاق بين العبد وسيده على مبلغ معين إذا دفعه يعتق، وغالبا ما كان شفاهيا، وموضوعات أخرى أقل أهمية.

أدوات الكتابة:

القلم: القلم من الألفاظ المعروفة عن أصل يوناني، فهو (قلاموس) في اليونانية، ومعناه القصب، لأن اليونانيين اتخذوا قلمهم منه(٧٢). وقد جاء ذكر القلم في القرآن الكريم فأقسم به الله سبحانه وتعالى في سورة (القلم)(٧٣) وعظم وفخم شأنه في سورة العلق(٧٤). وقد جاء ذكر القلم في شعر عدد من الشعراء الجاهليين، مثل عدي بن زيد العبادي، قال:

ما تبين العين من آياتها   غير نؤى مثل خط بالقلم(٧٥)

وقال المرقش الأكبر:

الدار وحش والرسوم كما   رقش في ظهر الأديم قلم(٧٦)

المداد: وقد ورد ذكره في القرآن الكريم: ﴿قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفذ البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي﴾(٧٧). ولا نملك في الوقت الحالي وثائق تدلنا على كيفية صنع الحبر عند الجاهليين. كذلك لايوجد نص كتبت به بحيث نعلم مما صنع من تحليله، ويمكن القول أن حبر الجاهليين لم يختلف عن أنواع الحبر المستعملة عند الشعوب الآخرين في ذلك الزمن وأهمها الحبر المصنوع من الفحم المسحوق مضافا إليه قليل من الصمغ في بعض الأحيان(٧٨)، وقد أشير إلى الدوي، أي المحابر التي يوضع فيها المداد في بيت لأبي ذؤيب يقول فيه(٧٩).

عرفت الديار كخط الدوي   ي حبره الكتاب الحميري

وكان المداد يمسح فى بعض الأحيان بالماء.
أما المواد التى كانوا يكتبون عليها، فأنها تختلف باختلاف الأمكنة والظروف المحيطة بها ومن يستخدمونها، ومن الأشياء التى استعملت للكتابة عليها:

العسب: جريد النخل، وهى السعفة مما لاينبت عليه خوص. وقد كان النوع متوفرا فى الحجاز مما أتاح الفرصة لكتاب الوحى أن يدونوا عليه آيات القرآن الكريم المنزلة،وقد أشار إمرؤ القيس إلى هذه المادة، فقال(٨٠):

لمن طلل أبصرته فشجانى كخط زبور عيسب يمانى

وقريب من العسب(الكرانيف)، وهى أصول العسف الغلاظ اللاصقة بالجذع(٨١) وقد استخدم أيضا فى تدوين الوحى.

العظام، وأهمها كتف الحيوان لأنه عريض وقد استخدم أيضا فى تدوين الوحى،وقد ورد فى الحديث: ائتونى بكتف ودواة أكتب لكم كتابا لا تضلون بعده. أو ائتونى باللوح والدواة والكتف(٨٢) وكانوا إذا كتبوا فى الأكتاف حفظوا ما كتبوه فى جرة أو فى صندوق حتى يحفظ ويكون فى مكان الرجوع(٨٣).

الجلود: منها (الرق) وهو الجلد الرقيق الذى يسوى ويرق ويكتب عليه و(الأديم) وهى الجلود المدبوغة، و(القضيم) وهو الجلد الأبيض يكتب فيه، وقد ورد استخدام كلمة (رق) فى القرآن الكريم: ﴿والطور وكتاب مسطور فى رق منشور﴾(٨٤) وذكرها طرفة، فقال:

كسطور الرق رقشة بالضحى مرقش يشمه(٨٥)

وفى (الأديم) قال المرقش الأكبر(٨٦).

الألواح: وقد صنعت من مواد مختلفة، فبعضها من الخشب، والبعض الآخر من الحجارة، وقد تصنع أيضا من عضم الكتف، وجاء ذكر (اللوح) فى القرآن حيث قال سبحانه: ﴿بل هو قرآن مجيد، فى لوح محفوظ﴾[٨٧]. وورد "وكتبنا له فى الألواح من كل شيء موعظة"[٨٨].

الحجارة: ولعلها هى المورد الأساسى الذى استقى منه الباحثون معلومات كثيرة عن العصر الجاهلى قال(لبيد)[٨٩]:

فمدافع الريان عرى رسمها خلقا كما ضمن الوحى سلامها[٩٠]

الورق: وإذا كان الشائع أن استخدام الورق لم ينتشر إلا منذ أواخر القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادى)، إلا أن لفظة (الورق) قد وردت فعلا فى بعض الأشعار الجاهلية، من ذلك قول أبى ذؤيب:

فمنمنم فى صحف كالريا ط منهن أرث كتاب محى

وقول حسان بن ثابت:

عرفت ديار زينب بالكثيب كخط الوحى فى الورق القشيب[٩١]

ولقلة وجود القصب الصالح لصنع الورق فى جزيرة العرب، لا نستطيع أن نذهب إلى وجود صناعة ورق من هذه المادة فى هذه البلاد، بل كانوا يستوردونه من مصر مصدر الورق المصنوع من القصب، والمعروف بـ(البابيروسى)[٩٢].

واستعمل الجاهليون السبورة فى الكتابة، ويريدون بها جريدة من الألواح من ساج أو غيره يكتب عليها، فاذا استغنوا عنها محوها، وهى

معربة وقد رواها جماعة من أهل الحديث (ستورة) وبهذا المعنى وردت السفورة، وهى معربة كذلك(٩٣).

لغة التربية العربية:

ليس فى الإمكان معرفة لغة الإنسان الأول، ولا اللغات التى تفرعت عنها، فقد مضى على ذلك قرون عجز التاريخ عن الإلمام بها، وما يقال من أن لغة آدم علية السلام كانت سريانية أو عربية، وأنه رثا ابنه بشعر عربى، تجن على التاريخ حمل عليه تعصب كل قوم للغتهم، وليست اللغة العربية فى حاجة إلى مثل هذه الخرافات، لتشرف على غيرها من اللغات، إذ لها من المفاخر الحقيقية ما يغنيها عن هذه الترهات.

وغاية ما أمكن الباحثين، أن أرجعوا اللغات الحالية إلى لغات أبناء نوح الثلاثة: يافث، وحام، وسام، الذين أبقى الله ذريتهم، دون من كان معهم فى السفينة، كما قال تعالى: ﴿وجعلنا ذريته هم الباقين﴾، أو تفرقوا فى جهات الأرض، وكان لكل فريق منهم لغة نسبت إلى جدهم الأعلى، وهى: اليافثية أو الآرية، والحامية، والسامية(٩٤).

وتشمل اللغة السامية، البابلية، والسريانية، والكلدانية، والآشورية، والفينيقية، والعبرية والحبشية، والعربية. وقد اختلف الباحثون فى هذه اللغات، أتفرعن من واحدة مجهولة لنا، أم أن إحداهن أم للباقيات؟ لكن هناك مشكلة أخرى لها خطرها فى هذا الموضوع، وهى: أى لغة بين اللغات السامية؟ أقرب صلة وأقوى شبها باللغة السامية الأصلية؟ وهذه لم تحل أيضا حتى الآن، بل اختلفت فيها أقوال الباحثين واضطربت آراؤهم، فقد كان أحبار اليهود فى العصور القديمة يعتقدون أن اللغة العبرية هى أقدم لغة فى العالم، وسرت هذه العقيدة من اليهود إلى غيرهم من الساميين حتى أن العرب فى القرون الوسطى كانوا يعتقدونها، ثم جاء المستشرقون بعد ذلك فذهبوا مذاهب شتى(٩٥).

وقد كان أشهر اللغات السامية وأشيعها فى أواخر القرن الرابع ق.م ثلاثا بين جنوب الجزيرة وشرقها إلى الشمال وغربها إلى الشمال، وهى: اليمنية والآرامية والكنعانية، مما يدل على أنها نبتت فى الجزيرة من الجنوب إلى مواطن الهجرة التى درجت عليها القبائل منذ فجر التاريخ، فى طريق بحر العرب شرقا إلى وادى النهرين، أو طريق البحر الأحمر غربا إلى فلسطين(٦٦).

ثم شاعت الآرامية وغلبت على سائر اللهجات وتفرعت منها النبطية التى اتفقت الروايات على أنها أم لهجات الحجاز، ولم تكن الآرامية بعد شيوعها غريبة عن المتكلمين بالكنعانية أو الحميرية. وعن الكاتبين بالحروف النبطية أو حروف المسند، فكان المقيمون والراحلون بين هذه الأرجاء يتخاطبون بها كما يتخاطب أبناء الأقاليم فى القطر الواحد، أو كما يتخاطب أبناء وادى النيل اليوم من الإسكندرية إلى الخرطوم، ومع اختلاف اللهجات والألفاظ فى بعض المفردات.

ونحن نعلم أن مؤرخى العرب كانوا ينسبون شعوب العرب البائدة جميعا إلى (إرم) ويسمونهم بالأرمان، ويجوز أن يكون الآراميون سلالة هؤلاء الأرمان هاجروا إلى وادى النهرين فى تاريخ مجهول، ولكن تاريخهم المعلوم يرجع إلى عهد دولتهم التى حكمت بابل، وقام منها بالأمر حمورابى صاحب التشريع المشهور سنة (٢٤٦٠) ق.م، حيث سادت اللغة الآرامية وادى النهرين وبادية الشام وأرض كنعان وبلاد الأنباط، وظهرت لهجاتها العامة – كلاما وكتابة – فى كل قطر من هذه الأقطار(٦٧).

ويصح – فى نظر العقاد، بعد تحليل ومناقشة – القول أن الآرامية هى عربية تلك الأيام فى موطنها، وأنها قريبة جدا من اللغة العربية الفصحى بعد تطورها نحو ثلاثة آلاف سنة لا يستغرب أن يحدث فيها مثل اختلاف فى نطق الألفاظ وتركيب بعض العبارات(٦٨).

ولا شك فى أن اللغة العربية تطورت وتهذبت واتسعت ولاتزال تتسع، وأنها فى تطورها سايرت الأحداث والبيئات، فتطورها واتساعها فى العراق غير تطورها واتساعها فى داخل (نجد) و(الحجاز)، فإذا كان للأحداث والبيئة العراقية شأن فى هز قواعدها وتحريف لفظ حروفها، فإن للأحداث العربية داخل الجزيرة وبيئة قلب العروبة شأنا فى صياغة مقوماتها وقواعدها وخصائصها ونطقها - عن التحريف والتغيير(٩٩).

أما التطور الطبيعى، فمن الحقائق المسلم بها: أن مفردات اللغة منها الذى يحافظ على وجوده كأسماء الأعلام والكلمات التى لا غنى عنها لحياة الإنسان العامة، ومنها ما يبلى ويقدم كأسماء مستحدثات الأجيال والكلمات التى تخص حياة قبيلة دون أخرى.

وليس من السهل تحديد الزمن الذى اتخذت فيه لغتنا العربية شكلها النهائى الذى تصوره الفصحى الجاهلية، وهو شكل كامل النضج سواء من حيث الإعراب والتصريف والاشتقاق، أو من حيث التنويع الواسع فى الجموع والمصادر وحروف العطف وأدوات الاستثناء والنفى والتعريف والتنكير والانتهاء بالممنوع من الصرف إلى نظام تام منضبط، مضافا إلى ذلك احتفاظها بحروف ومخارج لم تحتفظ بها لغة سامية احتفاظا كاملا، وهى الثاء والخاء والذال والظاء والضاد والغين.

وهذه الصورة التامة لفصحانا لم تصل إليها إلا بعد مراحل طويلة من النمو والتطور، وقد رأينا نماذج منها فى نقوش كتبت بأبجدية مشتقة من أبجدية المسند الجنوبى، وهى نقوش الثموديين واللحيانيين والصفويين، ونقوش أخرى كتبت بأبجدية الأراميين، وهى نقوش النبطيين، غير أنها جميعا لاتصور هذا التكامل الذى انتهت إليه الفصحى والذى تمثله نصوص العصر الجاهلى منذ أواخر القرن الخامس الميلادى وأوائل السادس(١٠٠)

وتتعدد اللغات بتعدد الأوطان، واختلاف البيئات والأجواء، والمناظرتملى على أهلها الأسماء، والجو يفعل فعله بالأعصاب اللسانية، وهذا واضح فى أنواع الإبدال. ولما كانت بلادالعرب متسعة الأرجاء، وشماليها يخالف جنوبها فى السطح والمناخ وأحوال المعيشة، اتسعت حدة الخلاف بين لغة السكان فيها(١٠١).

ولما كان سكان شمال الجزيرة العربية بدوا يعيشون على انتجاع الكلأ، وتكاد كل قبيلة تكون فى معزل عن القبيلة الأخرى، واختلاطهم قليل – لزم أن يكون بين لهجاتهم بعض الاختلاف، وإن كانت مادة لغتهم واحدة، ولكن هذا الاختلاف، أقل مما بين سكان الشمال وسكان الجنوب لاتحاد البيئة والمرئيات فى شماله، فلم يتعد الاختلاف بينهما صورة النطق وكيفيته، كما هو الحال بين سكان البلاد المصرية، إذ أن اللهجات المصرية وليدة اللهجات العربية، كما ذكر حفنى ناصف وغيره. وقد علمنا أن قريشا بمكة كانت تفوق قبائل الشمال، عقلا ورقيا وتهذيبا وحضارة، لما كانت عليه من سيادة، وما كان لها من رحلات تجارية، اتصلت فيها بأمم شتى: نقلت عنها شيئا من الحضارة، فكانت بذلك، وبما أفرغ الله فى ألسنتهامن مرونة وقوة، أقدر على ترقية لغتها وتهذيب نطقها(١٠٢)، والإنسان يملكه العجب حين يستعرض العوامل التى أدت إلى تهذيب اللغة العربية، فيراها متضافرة على غرض واحد، وهو توحيد اللغة وكأن الله تعالى أراد أمرا جليلا، فهيأ له أسبابه، حتى إذا نزل كتابه كانت الآذان قد تهيأت لفهمه، والتأثر به لإنقاذ هذه الأمة مما كانت ترسف فيه من الجهل والضلال، وليسرى هذا النور منها إلى غيرها فيسعد به الناس وتنتظم به حياتهم(١٠٣).

أما أهم هذه العوامل التى أعانت قريشا على أن يكون لها النصيب الأوفر فى تهذيب اللغة العربية:

١- أعانها الدين، فالقرشيون بواد غير ذى زرع، وهم مفتقرون إلى أن تهوى أفئدة الناس إلىالبيت الحرام، وقد استجاب الله دعاء

سيدنا إبراهيم، فجعل الكعبة الشريفة وجهة العرب أجمعين يحجون إليها أو يعتمرون، وكانت القبائل التى تفد على مكة للحج ذات لهجات، منها الجيد ومنها الردئ، وقريش تستمع إلى الوافدين وتستصفى من لهجاتها ما يروقها، وكان النازلون ينقلون عن قريش ويبثون فى الجزيرة ما نقلوا.(١٠٤)

٢- وساعدتها التجارة، فقد كان القرشيون يرتحلون فى كل عام رحلتين: رحلة فى الشتاء إلى اليمن، ورحلة الصيف إلى الشام، وكانوا أحيانا يضربون فى الأرض ويمشون فى مناكبها إلى فارس وإلى الحبشة كما سيجئ ... وهم قوم صناعتهم الكلام، يضيفون إلى لغتهم ما يغذيها، ويزودونها بما ينميها ويرقيها(١٠٥).

٣- وظاهرتها المكانة السياسية التى استمدتها من نفوذها الدينى والاقتصادى، حتى قال أبو بكر فى رده على الأنصار يوم السقيفة مؤيدا حق المهاجرين فى الخلافة "... وهم أولياؤه وعشيرته وأحق الناس بهذا الأمر من بعده ...".

٤- وكانت لهجة قريش أغنى اللهجات وأطوعها وأقدرها على التعبير، لأن أهلها أرقى، ولأنهم أغنوها بما أضافوا إليها.

٥- على أن الأسواق المشهورة - وهى عكاظا ومجنة وذو المجاز - كانت على مقربة من مكة ومن موسم الحج، قصد إليها القبائل، يتباهوا بالبليغ الرائع من القول(١٠٦).

واللغة العربية الفصحى لم تصطنع اصطناعا، أى لم تعقد لها المجتمعات اللغوية لوضع ألفاظ معينة لمعان محددة، كما يحدث فى شأن الاصطلاحات العلمية، أو المخترعات والاستكشافات الحديثة، إنما هى لغة يخلقها ويصنعها أصحابها الذين يستعملونها، وهؤلاء المستعملون لها، وهم الأدباء بصفة خاصة، لهم أذواق خاصة، ليست

لدى جميع الناس العاديين فهم قد وهبوا موهبة خاصة، هى حاسة سادسة لا توجد عند غيرهم، يستطيعون بها أن يختاروا اللفظ المناسب للمعنى المقصود، ويضعوه فى المكان اللائق ثم يضموه مع غيره فى عبارات ممتازة، ويخرجوها فى بناء محكم، ووصف دقيق، وبقدر التوفيق فى اختيار الألفاظ وحسن استعمالها، وجودة صوغ العبارات، وجمال تنسيقها، وكثرة دورانها على الألسنة، وترديدها، يكون مقدار حظها من البقاء والخلود(١٠٧).

هوامش الفصل الرابع

١- محمد أسعد طلس، تاريخ الأمة العربية، عصر الانبثاق، ص١٥١.
٢- ناصر الأسد، مصادر الشعر الجاهلى، ص٤٢.
٣- البيان والتبين، جـ٣، ص٢٨.
٤- الحيوان، جـ١، ص٢٨.
٥- الطرق بالكسر، معناه هنا القوة. وسمكة: علو ورفعة.
٦- مصادر الشعر الجاهلى، ص٤٣.
٧- لسان العرب، جـ١٢، ص٣٤، أمم.
٨- تاج العروس، جـ٨، ص١٩١، أمم.
٩- المفردات فى غريب القرآن، ص٢٢.
١٠- آل عمران/٢٠.
١١- آل عمران/٧٥.
١٢- الجمعة/٢.
١٣- تفسير الطبرى، جـ٣، ص١٤٣.
١٤- المفصل، جـ٨، ص٩٥.
١٥- تفسير الطبرى، جـ٣، ص١٤٣.
١٦- المرجع السابق، جـ٢٨، ص٦١ وما بعدها.
١٧- الجامع لأحكام القرآن، جـ١٨، ص٩١.
١٨- سورة الحج/٥٢.
١٩- لسان العرب، جـ١٥، ص٢٩٤ و٢٩٥.
٢٠- تفسير ابن جرير، جـ١، ص٣٠٠.
٢١- التاريخ العربى ومصادره، ص١٤٥.
٢٢- مصادر الشعر الجاهلى، ص٤٥.
٢٣- المفصل، جـ٨، س١٠٢.
٢٤- المرجع السابق، ص١٠٦.
٢٥- على الجندى، تاريخ الأدب الجاهلى، جـ١، ص٢٠٦.
٢٦- السفاسير، جمع سفسير، ومن معانيه: السمسار.
٢٧- أحمد الحوفى، الحياة العربية، ص٣٧.
٢٨- المرجع السابق، ص٣٧.
٢٩- المرجع السابق، ص٣٨.
٣٠- على الجندى، ص ١٤٣.
٣١- المرجع السابق، نفس الصفحة.
٣٢- إبراهيم عبد الرحمن، ص٢٥.
٣٣- المرجع السابق، ص٢٦.
٣٤- المرجع السابق، ص٣٢.
٣٥- المرجع السابق، ص٣٣.
٣٦- طلس، عصر الانبثاق، ص١٥١.

٣٧- الفرقان/٥. ٣٨- الإسراء/٩٠-٩٣.
٣٩- عن: مصادر الشعر الجاهلى، ص٤٧.
٤٠- المصدر السابق، ص٤٨.
٤١- التاريخ العربى ومصادره، جـ٢، ص١٤٠.
٤٢- المرجع السابق، جـ ، ص٢٩٦.
٤٣- أبو الفرج الأصبهانى، كتاب الأغانى، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة، القاهرة، بدون تاريخ، جـ٦، ص٩٤.
٤٤- المفضليات، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٤، ص٣٤٤.
٤٥- عن شوقى ضيف، ص١٤١.
٤٦- ابن سلام، طبقات فحول الشعراء، دار المعارف، القاهرة، ص٢٣.
٤٧- بلاشير، تاريخ الأدب العربى، ص١٠٥.
٤٨- شوقى ضيف، ص١٤١.
٤٩- على الجندى، ص٢٠٧.
٥٠- البيان والتبيين، جـ١، ص٣٢١.
٥١- الأغانى، جـ٦، ص٨٧.
٥٢- على العتوم، ص ١٥٢.
٥٣- المرجع السابق، ١٥٣ ٥٤- المرجع السابق، ص١٥٦.
٥٥- المرجع السابق، ص١٥٩. ٥٦- المرجع السابق، ص١٦١.
٥٧- المرجع السابق، ص١٦٣. ٥٨- المرجع السابق، ص١٦٥.
٥٩- المرجع السابق، ص١٦٦. ٦٠- المرجع السابق، ص١٦٧.
٦١- المقريزى، إمتاع الأسماع، تصحيح محمود محمد شاكر، لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٥١، ص٣٢٣.
٦٢- الزمخشرى، الفائق فى غريب الحديث، تحقيق البخارى وأبو الفضل إبراهيم، القاهرة، ١٩٤٥، جـ١، ص٢٠٦.
٦٣- ابن هشام، السيرة النبوية، جـ٢، ص٦٢.
٦٤- الخطيب البغدادى، تقييد العلم، ص٥٦-٥٧.
٦٥- الزمخشرى، الفائق، جـ٣، ص٢١٨.
٦٦- النابغة الذبيانى، ديوانه - التوضيح والبيان عن شعر نابغة الذبيان، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٢٣، ص٨.
٦٧- عن: مصادر الشعر الجاهلى، ص٦٤.
٦٨- المرجع السابق، ص٦٥.
٦٩- ابن هشام، السيرة النبوية، جـ١، ص٣٧٥-٣٧٦.
٧٠- مصادر الشعر الجاهلى، ص٦٨.
٧١- الأغانى، جـ٥، ص١١٨.
٧٢- المفصل، جـ٨، ص٢٥٣.
٧٣- الآية/١. ٧٤- الآية/٤.

٧٥- المفصل، جـ٦، ص١٠٣.
٧٦- المرجع السابق، جـ٦، ص١٢٧. رقش: خط حسن.
٧٧- سورة الكهف/١٠٩.
٧٨- امرؤ القيس بن حجر الكندى، ديوانه، جمع حسن السندوبى، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ص١٣٠.
٧٩- مصادر الشعر الجاهلى، ص٨٣.
٨٠- تفسير الطبرى، جـ١، ص٦٣.
٨١- تاريخ الطبرى، جـ٣، ص١٩٣ (حوادث السنة الحادية عشر).
٨٢- المفصل، جـ٨، ص٢٦٠.
٨٣- المرجع السابق.
٨٤- سورة الطور/٢.
٨٥- مصادر الشعر الجاهلى، ص٧٧.
٨٦- الأغانى، جـ ، ص١٢٧.
٨٧- سورة البروج/٢١.
٨٨- المفصل، جـ٨، ص٢٦٤.
٨٩- مصادر الشعر الجاهلى، ص٨٧.
٩٠- الوحى: الكتابة. سلام: الحجارة.
٩١- حسان بن ثابت، ديوانه، مطبعة النيل، القاهرة، ١٩٠٤، ص١١.
٩٢- المفصل، جـ٨، ص٢٦٦. ٩٣- المرجع السابق، ص ٢٦٩.
٩٤- قصة الأدب فى الحجاز فى العصر الجاهلى، ص١٨٥.
٩٥- أمين مدنى، ص١١٤.
٩٦- عباس محمود العقاد، الثقافة العربية، ص١٤.
٩٧- المرجع السابق، ص١٥. ٩٨- المرجع السابق، ص١٩.
٩٩- أمين مدنى، ص١٢٧.
١٠٠- شوقى ضيف، ص١١٧.
١٠١- قصة الأدب فى الحجاز، ص١٨٩.
١٠٢- المرجع السابق، ص١٦٠. ١٠٣- المرجع السابق، ص١٩٣.
١٠٤- أحمد الحوفى، الحياة العربية، ص٥٨.
١٠٥- المرجع السابق، ص٥٩.
١٠٦- على الجندى، ص١٠٧.

الفصل الخامس

وسائط التربية الجاهلية

وما دمنا قد اعتمدنا على مفهوم التربية بمعناها الواسع فى تأريخنا للتربية العربية فى العصر الجاهلى وطبيعة المجتمع، فليس لنا أن نفتش فقط عن المؤسسات المعروفة المتخصصة فى عملية التعليم، وإنما علينا أن نبحث عن المؤسسات والأمكنة والتنظيمات التى كان لها دور كبير فى تشكيل شخصية المواطن العربى فى ذلك العهد، ومن ثم، فإننا نستطيع أن نعدد وسائط التربية الجاهلية فى الصفحات التالية كما يلى:

الأسرة:

إذا كنا قد سايرنا العلامة ربرتسن سميث Bobertson Smith فى قوله "ان النظام الاجتماعى فى بلاد العرب كلها واحد، يمكن تلخيصه فى أن القبيلة هى الوحدة السياسية والاجتماعية"[1]، إلا أننا قد قصدنا بذلك أن القبيلة هى الأساس الاجتماعى الكبير للحياة العربية .. ذلك أن بحوثا حديثة قام بها العلامة روبرت لوى R. Lowie، قد أثبتت أن الأسرة هى أصغر وحدة اجتماعية، وأن الجماعات الكبيرة، كالعشيرة والقبيلة قد نشأت من نمو الأسرة، وبهذا نقض ما ذهب إليه من قبل (ماك لنان) و(سميث) من أن العشيرة أصغر وحدة اجتماعية. ولهذا غدت الأسرة عند أكثر الأمم قدما وحدة اجتماعية، فكانت حكومة صغيرة فى الأمة الكبيرة، الأب فيها رئيس مطلق، وبطريرك قديم، يحف به أولاده وعبيده وأحفاده وقطعانه[2].

وكانت الأسرة تتعهد الوليد قبل أن تتحمله الأم، وذلك بألا تحمل الأم إلا فى طهر، ولعل الأب كان يشاركها فى ذلك، لأنهم اعتقدوا أن الحمل فى أعقاب الحيض أو قبيل الحيض ينتج ولدا سقيما.

يقول أبو كبير الهذلى فى وصف تأبط شرا ابن زوجته أن أمه حملت به وهى طاهر ليس بها بقية حيض:

ولقد سريت على الظلام بمغشم ... جلد من الفتيان غير مثقل

ومبرأ من كل غُبّر حيضـــة ... وفساد مرضعة وداء مُغيل[3].

كذلك كانوا يظنون أن حمل المرأة بالابن وهى غاضب يجعل الرجل يسبق بمائه، وأن هذا مدعاة لأن يكون الابن ذكرا محمودا، فقالوا فى ولد الغضبى:

تسنمتها غضبى فجاء مسهدا ... وأنفع أولاد الرجال المسهد

وكانت الأسرة تحرص على إرضاع الطفل لبنا مغذيا. ومن هنا كرهوا رضاعه وأمه حبلى إذ عرفوا بالخبرة أن لبن الحبلى ضار بالرضيع. قال الشاعر:

ثم نمى ولم ترضع فلوا ... ورضاع المحج، عيب كبير[4]

كذلك كانوا يتوخون راحة الطفل، فيضاحكونه ويداعبونه، وينيمونه على مسرة. وقد فسر الجاحظ حديث أم تأبط شرا (ولا ابته على مأقة) بقوله:

"أما قولها فى المأقة، فإن الصبى يبكى بكاء شديدا متعبا .. فإذا كانت الأم جاهلة حركته فى المهد حركة تورثه الدوار، أو نومته بأن تضرب بيدها على جنبه، ومتى نام الصبى وتلك الفزعة أو اللوعة أو المكروه قائم فى جوفه، ولم يعلل ببعض ما يلهيه ويضحكه ويسره حتى يكون نومه على سرور، فيسرى فيه ويعمل فى طباعه ولا يكون نومه على فزع أو غيظ أو غم، فإن ذلك مما يعمل فى الفساد. والأم الجاهلة والمرقصة الخرقاء إذا لم تعرف ما بين هاتين الحالتين، أكثر منها ذلك الفساد وترادف وأعان الثانى الأول والثالث والثانى حتى يخرج الصبى مائقا"[5].

وكانوا يحبون أولادهم، ويعبر عن هذا قول أحدهم[٦]:

وإنما أولادنا بيننـــــا أكبادنا تمشى على الأرض

ومن هنا، فقد وجدت نساء يرفضن الزواج من بعد وفاة أزواجهن لا لشيء إلا من أجل (الأولاد). ومن أوضح الأمثلة على ذلك، أن أم (إثال) آمت، وكانت من أجمل نساء اليمامة، فردتهم، وقالت أنها لا تؤثر أحدا على ابنها، ولا ترضى زواجا وإن كانت فى شظف، وأنها تبقى على كرامة ابنها بين الناس لأن زواجها يطامن من عزته ويحزنه ويؤذيه[٧].

وكان العرب يعتبرون بنيهم يستحقون الحب والتكريم، شأنهم فى هذا شأن أى مجتمع آخر، فهم قرة عين الأبوين، وعدة القبيلة التى تحتمى بهم، إذ هم أطفال اليوم فرسان الغد، ولهذا كان العرب لا يهنئون إلا بغلام يولد، أو فرس تنتج، أو شاعر ينبغ. ولقد كان العربى يحدب على بنيه، ويقف ضد من يوجه إليهم إساءة، ولو كان من أقرب الناس إليه، فلما أرادت زوجة عمرو بن شاس الأسدى إيذاء ابنه عرار، ورفض عمرو هذا التصرف وانحاز إلى جانب ولده، وقال[٨]:

أراد ت عرارا بالهـــوان ومن يرد عرارا لعمرى بالهـــوان فقد ظلم
فإن كنت منى أو تريدين صحبتى فكونى له كالسمن رُبت لـه الأدم

وعلى عكس هذا الموقف نجد (شداد) يسمع لاتهمات سمية زوجته لعنترة ابنه، وراح يعاقبه ويهوى إليه بالعصا يضربه بها، مما دفع سمية هذه لأن ترق له فتبكى عليه، وتحجز عنه أباه، إذ لعلها شعرت بأن عنترة مظلوم، وقد وصف الشاعر ذلك فقال[٩]:

أمن سمية دمع العين تذريـــف لو أن ذا منك قبل اليوم معروف
تجللتنى، إذا أهوى العصا قِبَلى كأنها صنم يُعتــــاد معكوف
المال مالكم والعبد عبدكـــم فهل عذابك عنى اليوم مصروف

ولعل اختلاف الموقف من الأبوين تجاه ولديهما، عائد إلى الوضع الاجتماعى لكل من هذين الولدين، فعرار – على الرغم من سواد لونه– حر، أما عنترة فعبد لونا وواقعا، فهو ابن أمة حبشية تدعى زبيبة أولدها شداد إياه.

وإذا كان الآباء يجدبون على أبنائهم (الذكور) بشكل عام، وهو أمر طبيعى فى كل زمان ومكان، فإن الأبناء بالمقابل، لم يكونوا – دائما – يبادلون آباءهم هذا الحنو والحنان، حيث كان بعضهم آنذاك – يعق والده، كما هو الحال فى كل زمان ومكان كذلك، ومما يصور هذا الجانب أبيات تنسب لأمية بن أبى الصلت الشاعر يشكو من عقوق أحد أبنائه فيقول[١٠]:

غذوتك مولودا وعُلتك يافعـــا ... تُعَل بما أُحنى عليك وتُنهـــل

إذا ليـــلة نابتك بالشو لم أبت ... لشكواك إلا ســـاهرا أتململ

كأنى أنا المطروق دونك بالذى ... طرقت به دونى فعيناى تهمل

فلمـــا بلغت السن والغاية التى ... إليها مـدى ما كنت فيه أؤمل

جعلت جزائى غلظة وفظاظـــة ... كأنـــك أنت المنعم المتفضل

وكانوا يربون أبناءهم على البطولة والمحامد، وأرادوا أن يوحوا إليهم بالقوة والشدة، أوهم تفاءلوا أن يكون بنوهم أقوياء أشدة، فتخيروا لهم أسماء فيها قوة ورهبة مثل أسد ونور وفهج وصخر[١١].

ولقد يكون الغرض من الأسماء القوية المرعبة أن يخيفوا بها أعداءهم، فقد سئل أبو العرفيش الأعرابى: لم تسمون أبناءكم بشر الأسماء نحو كلب وذئب، وعبيدكم بأحسنها نحو مرزوق ورباح؟ فقال: اننا نسمى أبناءنا لأعدائنا وعبيدنا لأنفسنا. ويرى الجاحظ أنهم كانوا يتفاءلون بأسماء كلب وحجر وحنظلة ...الخ.

ومما قيل تصويرا لبعض الأسر التى عانت الفقر والبؤس ما جاء فى أبيات للمزرد، يتحدث فيها عن صياد يعيش فى شقاء، له أكلب

هزيلة، وعيال جياع، وليس فى بيته شىء، ولا يجد ما يسد رمقه، فأخذ يطوف بأصحابه لعله يجد عندهم شيئا من القوت، ولكن خاب أمله، وسدت أمامه جميع الطرق: حتى أعيته الحيل، فعاد إلى بيته وكان فيه صبية فى غاية الهزال من الجوع، وامرأته الحمقاء السليطة اللسان، فقال لها: هل لديك طعام؟ ثكلتك أمك! فإنى لم أجد فى الناس خيرا، فقالت: نعم هذا البئر وماؤه ، وهذا الجلد اليابس المحترق، فسقط من الإعياء والضعف، وجر على جسمه بقايا ثوبه يحاول أن ينام، ولكن النوم استعصى عليه فقد طرده عنه عندما استولى عليه من الهم والغم وضيق النفس، وذلك فى قوله[١٢]:

وأيقن إذ ماتـــا بجوع وخيبة	وقال له الشيطان أنــك عائل
فطوف فى أصحابه يستثيبهم	فآب وقد أكدت عليه المسائل

فاتجه إلى زوجته: فقال لها:

هـل من طعــــــام فإننى	أذم اليك الناس، أمك هابـل
فقالت نعم: هذا الطوى وماؤه	ومحترق من حائل الجلد قاحل

ومع انتشار الفقر والبؤس بين الجاهليين، فإن الواحد منهم كان إذا نزل به ضيف بذل كل ما فى وسعه ليقدم له القرى ويوفر له جميع أسباب الراحة والاطمئنان.

ومن خير ما ورد فى هذا أبيات منسوبة إلى الحطيئة يصف فيها حال أعرابى فقير يعيش فى عزلة ويشد على بطنه من الجوع، ومعه زوجه وأولاده حفاة عراة، فى غاية الهزال، وفاجأه ضيف فانتابه الهم والضيق لأنه لا يملك ما يكرم به ضيفه ثم أكرمه الله بصيد ففرح، وكان مما قاله:

وطاوى ثلاث، عاصب البطن، مرمل	ببيداء لم يعرف بها ساكن رسمـــا
أخى جفوة فيـــه من الأنس وحشة	يرى البؤس فيها من شراسته نعمى
وأفرد فى شعب عجـــوزا إزاءها	ثلاثة أشباح تخـــــــالهم بهما

وكان التبنى شائعا عند البابليين فى عصر حمورابى، فإذا لم يرزق أحدهم أولادا وكان فى نفسه ميل إلى البنين لغرض من الأغراض، أخذ من بعض الوالدين طفلا يربيه عنده ويتبناه. ولهم فى التبنى شروط حسنة، من جملتها رعاية حرمة الوالدين، فإذا تبنى أحدهم غلاما ثم أذى أبويه، يرجع الغلام إلى بيت أبيه. وإذا كان المتبنى صانعا، فعليه أن يعلم الولد صناعته، فإذا فعل ذلك، فالولد له. وإذا تبنى الرجل إبنا، وسماه باسمه، ثم تزوج الرجل وولد له أولادا وأراد أن يخرج ذلك الولد من بيته، فلا يستطيع ذلك إلا إذا أعطاه ثلث حصة الولد من مال أبيه غير العقار.

على أن الرجل عندهم كان يتبرأ أحيانا من ابنه لصلبه، ولكنه لم يكن يستطيع ذلك إلا بين يدى القاضى، فيقول للقاضى: "أنا أتبرأ من ابنى". فينظر القاضى فى الأسباب، فإذا لم يجد مسوغا رفض الطلب، فإذا لم يجد مسوغا، أجل الحكم، لعل الأب يرجع عن عزمه، فإذا لم يرجع، أجاز له التبرؤ منه. وأولاد الرجل من جاريته لا يكونون أولاده شرعا إلا إذا دعاهم أولاده، فإذا فعل ذلك، كان لهم ما لأولاد الزوجة من حقوق الإرث، وإذا لم يدعهم، فلا يرثون ولكنهم يعتقون[١٤].

القبيلة:

وكان من الطبيعى أن تلعب القبيلة دورا خطيرا فى تربية العربى القديم لما علمناه من أنها كانت عماد الحياة فى البادية، بها يحتمى الأعرابى فى الدفاع عن نفسه وعن ماله، فمن خلال حياته يتعلم كثيرا من المبادئ والقيم التى كانت تحكم الحياة العربية القديمة، من ذلك مثلا(الروح الديمقراطية) لما كان يراه من أن رئيس القبيلة (يختار) بناء على رأى أصحاب الرأى ووجوه القوم. كذلك تتجلى الروح الديمقراطية أمامه من أن شيخ القبيلة لم يكن يستبد بالرأى، وإنما لابد من (المشورة) و(المناقشة) و(تبادل الرأى) و(الحوار)[١٥].

ولما كانت هناك مواصفات خاصة لابد من توافرها فيمن يختار شيخا للقبيلة، جاز لنا القول، أن جُماع هذه المواصفات كانت تمثل (المثل الأعلى) الذى يطمح كل عربى أن يصل إليه، والذى تعمل كل أسرة وتجاهد كى تربى أبناءها وفقا له، من ذلك: الشجاعة والجود والغيرة وسعة الثروة وسداد الرأى وكمال التجربة مع كبر السن. وكذلك وجوب أن يكون من صريح نسبها، لنفور طباع العرب أن يحكم فى القبيلة أحد غيرها[١٦]. وقد راعى النبى ذلك حين كانت تأتيه وفود القبائل، فكان يسود على كل قبيلة رجلا منها ويجعله عليها لامتناع طبائعهم أن يسودهم غيرهم[١٧].

ولم يقتصر الأمر على وجوب توفر مثل هذه الصفات فى شيخ القبيلة، بل إن مجلسها ما كان يضم إليه أناسا على قدر عال من التربية بمعايير ذلك العصر، ومن هنا كنا نرى أنهم يضمون إلى المجلس– كما سبق أن أشرنا – من كان شاعرا كاتبا سابحا راميا. ومن كان على هذه الصفات، سمى (الكامل)[١٨]. وأيضا (الخطيب) من حيث قدرته على التأثير والإقناع والمناظرة والمجادلة. وكذلك من يعرف عنهم (الأمانة) و(الصدق) و(الشرف). ثم هناك أيضا تلك الشخصيات التى تكون على قدر ملحوظ من (المعرفة) كالكاهن والعراف والقصاص وصاحب العقل الراجح وذى الحكمة.

ومما تعلمه القبيلة لأفرادها أيضا: (التساند) و(التعاضد) و(التعاون) إلى الدرجة التى كان على الفرد فيها أن ينصر أخاه ظالما أو مظلوما. وكان يكفى أن يستغيث، فإذا السيوف مصلتة والرماح مشرعة، وإذا الدماء تتصب لأقل الأسباب[١٩]:

لا يسألون أخاهم حين يندبهم ... للنائبات على ما قال برهانا

ومن هنا كان على الفرد أن يتشرب (الروح الجماعية) مثلما تشرب (الروح الديمقراطية)، على أن تفهم (الجماعية) داخل نطاق القبيلة، فلا

يخرج على إجماعها،وعليه من أجل ذلك أن يرفع من إحساسه بالرابطة العامة وأن يهدر فى سبيلها كل نزعة (خاصة) فهو يضحى لها بنفسه كما يضحى بماله، فهى حياته وكيانه. وخير ما يصور ذلك، قول (دريد بن الصمة)[٢٠]:

وهل أنا إلا من غزية ان غوت غويت، وان ترشد غزية أرشد

ولم تكن القبيلة تتورع عن إنزال أقسى العقوبات على من يتصرف تصرفا فرديا من شأنه أن يضر بمصالح الجماعة ويسىء إلى سمعتها وكيانها. ولم يكن هناك ما هو أقسى على العربى من أن (تخلعه) قبيلته، فيهيم على وجهه ريشة فى مهب الريح، ونحن نعلم قسوة الحياة الصحراوية وصعوبة أن يقدر عليها الإنسان بمفرده دون مساندة من قبيلته وحمايتها له من الأخطار الطبيعية والاجتماعية.

كذلك يتشرب الفرد من قبيلته ضرورة (الأخذ بالثأر) ممن سولت له نفسه من القبائل الأخرى أن يتعدى على فرد ما من أبناء قبيلته، وهذا أمر طبيعى وضرورى فى مجتمع لا تحكمه حكومة منظمة تقيم الحدود وترعى القانون بسلطتها، وإنما كان المجتمع يعتمد فى صيانة حقوقه على قوة الأفراد والجماعات، فمن لم يستطع الانتصاف لنفسه لم يجد قوة تنتصف له[٢١].

وعلمت القبيلة أبناءها أن من مقاييس الشرف ألا يجرى فى عروقه دم أجنبى وأن يكون من أم عربية وأب عربى، وفى سبيل هذا الحرص كان العربى يرفض الاعتراف بأبنائه أو إلحاقهم بنسبه إذا جاءوا ثمرة لصلة غير متكافئة بينه وبين إمائه، ومن أجل ذلك أطلق المجتمع الجاهلى على أبناء الإماء من العرب الصرحاء اسم (الهجناء).

الطبقة الاجتماعية:

والجاهليون وإن بدوا ديمقراطيين، شعبيين، لافرق عندهم بين حر وعبد، كبيرا أو صغيرا، ويخاطب الفقير ملكه أو سيد قبيلته بلهجة

بسيطة تنم عن ديمقراطية عميقة أصيلة، إلا أنهم فى الواقع، طبقيون، يعاملون الناس حسب منازلهم ودرجاتهم[٢٢]. ويعملون بمبدأ عدم التكافؤ بين الناس، وآية ذلك، عرف جلوس الناس فى مجالس الملوك والمجتمعات، وعرف تقديم الطعام أو الشراب، مبتدئين بالملك، ثم بمن يجلس إلى جانبه الأيمن باعتبار أنه أشرف القوم، ثم بالجالس على الجانب الأيسر من الملك، على ترتيب الناس فى درجات جلوسهم أو حسب إشارة الملك أو مقدم الطعام. ثم نظرتهم إلى (الحق) وإلى الأعراف الاجتماعية كالأخذ بالثأر والزواج، فلهم فى الأخذ بالثأر مبدأ مقرر وهو (تكافؤ الدم)، فعندهم أن دم القتيل الشريف لا يغسل إلا بدم شريف مثله، من أهل مكانته[٢٣].

وعلى هذه النظرية الطبيعية، بنوا تقييم أثمان الديات، أى ثمن الدم. ومن هذه النظرة أيضا تولد امتناعهم عن تزويج بنات الأشراف والأسر من رجال هم دون البنت فى المنزلة. وقد جعل بعض العلماء تخوف العرب من القهر عليهم ومن طمع غير الأكفاء فى بناتهم، فى جملة العوامل التى حملتهم على وأد البنات[٢٤]. وفى غنى العربية بالمصطلحات الكثيرة التى تطلق على السادة والأشراف، وعلى الفقراء والمعدمين، وعلى الطبقات الأخرى، دلالة ليس فوقها دلالة على وجود هذه النظرة الطبقية عندهم، وعلى نظرتهم إلى أنفسهم على أنهم منازل ودرجات، وأنهم غير متكافئين، وأن القيادة فى المجتمع يجب أن تكون للبيوت[٢٥].

وهذه كلها مبادئ وقيم، كان من الطبيعى أن ينشأ عليها العربى القديم، وهو يتعلم من هذه الطبقية أن العبيد ملك يباع ويشترى بيع الأموال المنقولة، ويتصرف صاحب العبد به، تصرفه بملكه الخاص، وأن ليس للعبد حق إبداء رأيه فى مستقبله بأى حال من الأحوال لأنه كالماشية، وإن كان إنسانا حياله ما لكل إنسان من روح وإدراك وشعور[٢٦].

كذلك نعلم أن الحرف اليدوية ليست من (مقام) الأشراف أبناء البيوت، وإنما هى من شأن العبيد، فاحتقرها وابتعد عن تعلمها. ومن هنا نجد أنهم كانوا يعيرون من يتزوج من ابنة صائغ أو حداد أو نجار ويعيرون نسله، ولا سيما إذا كان من بيت رفيع. وقد وجد أعداء النعمان بن المنذر آخر ملوك الحيرة وحساده فى أمه (سلمى) التى قيل أنها إبنة صائغ يهودى، سببا قويا من أسباب استهزائهم به والاستصغار لشأنه. أما الحرفى، أى الذى يشتغل بالحرف اليدوية، فلم يكن من السهل عليه التزوج من بنات الأحرار لما قد تتعرض له أسر البنات من تعيير وإهانة بين الناس بتزويجهم إبنة حر لشخص وضيع مستصغر[٢٧].

وغرس المجتمع الجاهلى فى نفوس أبنائه عصبية اجتماعية تحكمت فى اتجاهاته وميوله وتفكيره وسلوكه العام، فلقد كان أفراد العائلة الواحدة أو الفخذ أو البطن، أى أفراد الوحدة الاجتماعية الصغرى الذين تجمع بينهم الأرحام القريبة يتضامنون فى الدفاع عن بعضهم والاستنصار لبعضهم فى مختلف المواقف، فهم، أفرادا أو جماعة، مطالبون بالتضامن فى الدفاع عن سمعة الوحدة وشرفها ومصلحتها المشتركة، وحفظها من العدوان عليها فى داخل القبيلة أو خارجها، كما أنهم جميعا مطالبون بجريرتها، حتى ولو كانوا متنافرين فى العقيدة والميول، فهى عندهم أقوى من الإيمان الدينى[٢٨].

وكان أفراد القبيلة ببطونها وعشائرها يتعلمون التضامن تجاه القبائل الأخرى فى الحروب والدماء والدفاع عن المصالح والتبعات المشتركة، ويتعاونون على المغارم، فكل فرد فى القبيلة يرى أن الاعتداء على فرد منها إنما هو اعتداء وقع عليه، وأن من واجبه أن ينتصر له ويدفع عنه، أو يأخذ بثأره إذا قتل ممن اعتدى عليه أو من أى فرد من أفراد قبيلته، وإذا نشبت حرب بين قبيلتين تضامن أفراد كل قبيلة فى الدفاع والهجوم مهما كان الباعث على هذه الحرب، حتى ولو كانت ميولهم وعواطفهم متباينة[٢٩].

ومما تعلمه الجاهلى أيضا، بالاضافة إلى (عصبية العشيرة وذوى الأرحام)، و(عصبية القبيلة)، ما يمكن تسميته (بعصبية الأحلاف القبلية أو الأحزاب)[٣٠]، إذ كثيرا ما كانت تقوم بين القبائل تحالفات ومواثيق لتقف صفا واحدا متساندا أمام بعض الدواعى، فتنشأ الأحلاف بين القبائل لصيانة المصالح المشتركة أو لضرورة السلم بين المتجاورين أو عن طريق المعاهدة بين رجالها، فتنشأ بذلك عصبية بين هذه القبائل المتحالفة تدفعها إلى التضامن فى الحروب والتعاون فى تبعات الدماء. وكان الحلف بين القبائل، قد يستمر جيلا بعد جيل ولا ينتقص إلا بسبب أحداث جسيمة، وعندئذ يصبح صلة لاحمة بين القبائل المتحالفة.

وكان العرب يتعصبون لتقاليدهم وموروث عاداتهم تعصبا شديدا، يرون فى ذلك فضيلة لا معدى عنها، وجزءا لا ينفصل من حياة المجتمع، ولو أدى إلى الحرب وإراقة الدماء والمواقف المحرجة المهلكة، وقد بلغ من قوة العصبية للتقاليد، أن أصبحت عندهم دينا يرون الأخذ بها من أمر الله.

وعلى هذا، فالعصبية تتدرج فى قوة التأثير بها والاستجابة إليها من عصبية الأسرة، إلى عصبية العشيرة إلى عصبية الفخذ، إلى عصبية البدن، إلى عصبية القبيلة، إلى عصبية الناشئة عن الحلف، وهذا التعاون فى قوة العصبية والتأثر بها والاستجابة لها متسق مع طبيعة الأشياء[٣١].

الكتاب:

وفى العربية، لفظة (الكتاب) ويراد بها فى عرف هذا اليوم، المدرسة التى يتعلم فيها الأطفال، القراءة والكتابة ومبادىء المعرفة. وهى من ألفاظ العربية المستعملة فى العهود الأولى من الإسلام. ويرى (جواد على) أنها من الألفاظ العربية التى كانت مستعملة فى الجاهلية، وهى فى معنى (هاسيفر) Beth Haspher (بيت الكتاب) فى العبرانية. وقد كان العبرانيون يطلقونها على المدارس التى تدرس القراءة والكتابة

ومبادىء المعرفة، تمييزا لها عن المدارس التى تعلم الديانـة والعبرانيـة والمعارف التى لها علاقـة بالديانـة. ويطلقـون عليهـا (سيف هـامدارش Bith Ha-Midrash) أى (بيـت المـدارس)، و(بيـت هـاتلمود) أى (بيـت التلمود) فى بعض الأحيان[٣٢].

وفى اللسان[٣٣]، أن (الكتاب موضع تعليم الكتـاب) أى الكتابـة. وهـذا يؤكد أن الكتاب وجد متصلا فى الغالب بتعليم الكتابة والقراءة ولا شىء سواهما، ومن هنا نستطيع أن نؤكد خطأ ذلك الوهم بأن الكتاب لم ينشأ إلا بعد ظهور الإسلام، وأنه لم يكن إلا لتعليم القرآن الكريم، إذ لما كان الصبيان هم الذين يتعلمون فـى الكتـاب الأول وهـم الذيـن يتعلمـون فـى المعهد الآخر الذى كان مخصصا لتعليم القـرآن والديـن، فقد كـان ذلـك سببا فى أن أطلق اسم (الكتاب) على المعهد الذى يتعلم فيه الصبيان أيـا كان الموضوع الذى يتعلمونه قرآنا كان أو قراءة وكتابة[٣٤].

ومما يؤكد تعلم الكتابة والقراءة فى أمكنة خاصة، ما ذكـره الطـبرى وابن سعد أن جفينه – وكان نصرانيا من أهل الحيرة استقدمه سعد ابـن أبى وقاص – ليعلم بالمدينة الكتابة[٣٥].

وذكـر البـلاذرى نقـلا عـن الواقدى أنـه "كـان الكتــاب فــى الأوس والخـزرج قليـلا، وكـان بعـض اليهـود قـد تعلـم العربيـة، وكـان يعلمــه الصبيان بالمدينة فى الزمن الأول، فجاء الإسلام وفى الأوس والخـزرج عدة يكتبون"[٣٦].

وكتب الطبرى أنه "حين نزل خالد بن الوليد الأنبـار، رآهـم يكتبـون العربيـة ويتعلمونهـا"[٣٧]. وذكـروا أن عـدى بـن زيـد حيـن نمـا وأيفــع "طرحه أبوه فى الكتاب"[٣٨]، حتى حذق العربية.

وقد ورد أن الرسول ﷺ أمر (عبد الله) واسمه الحكم بـن سـعيد ابـن العاص بن أمية بأن يعلم فى الكتاب بالمدينة، كما ورد أن على بن أبـى

طالب اختلف إلى الكتاب، فتعلم الكتابة به، وهو ابن أربع عشرة سنة. وورد أن رجلا نزل بوادى القرى، وعلم الخط بها. وورد أن غلاما جاء "يبكى إلى أبيه، فقال: ما شأنك؟ فقال: ضربنى معلمى. فقال: الخبيث: والله لا تأتيه أبدا"[٣٩].

وكانوا يستعينون بصبيان المكاتب فى بعض الأحيان لكتابة نسخ مما يراد نشره وإذاعته أو حفظه، فورد أن النجاشى الشاعر، لما هجا (بنى النجار) من الأنصار شكوا ذلك إلى حسان، فقال قصيدة فى هجائه وفى هجاء قومه، ثم قال "اكتبوها صكوكا وألقوها إلى صبيان المكاتب، فما مر بضع وخمسون ليلة حتى طرقت بنو عبد المدان حسان بالنجاشى موثقا معهم" وذلك للاعتذار إليه واسترضائه[٤٠].

وإذ وجدت الكتاتيب، فقد وجد المعلمون الذين يعلمون الصبية فيها، وهذا أمر ثابت منصوص عليه فى وضوح لا يقبل الشك، فقد عقدت بعض المصادر العربية فصلا خالصا أثبت فيه جريدة بأسماء المعلمين فى الجاهلية والإسلام، فمن هؤلاء المعلمين فى الجاهلية: عمر ابن زرارة، وكان يسمى كذلك، الكاتب، وغيلان بن سلمة بن معتب، جاهلى، أسلم يوم الطائف، والطائف هى التى أخرجت بعد غيلان، يوسف بن الحكم الثقفى، وابنه الحجاج بن يوسف المعلمين فيها. وشهرة الطائف وقبيلة ثقيف خاصة بالكتابة وإتقانها منذ الجاهلية، دعت عمر ابن الخطاب أن يجعل كتابة المصحف من قريش وثقيف ودعت عثمان ابن عفان إلى أن يقول: "اجعلوا المملى من هذيل والكاتب من ثقيف"[٤١].

أسواق العرب:

وكان للعرب أسواق عامة يجتمعون فيها للبيع والشراء وتبادل المنافع، وكانت هذه الأسواق تقوم فى أيام معينة من السنة، كما كانت تعقد فى أماكن فسيحة يتوفر فيها الماء لسد حاجة المجتمعين. كما كانت تقوم بقرب المراكز الحضرية والتجارية، وكان الأعراب يفدون إلى

هذه الأسواق يعرضون سلع البادية، وأحيانا يعرضون ما وصلت إليه أيديهم عن طريق الغارة على القوافل، أو على المسافرين، وليتزودوا من هذه الأسواق بما يلزمهم من مئونة ملابس وغيرها(٤٢).

وبحكم ورود أناس إلى هذه الأسواق لا يسهل الاجتماع والاتصال بهم فى الأوقات الأخرى، فقد قصدها أناس من أماكن بعيدة بحثا عن طلب أو ترويجا لرأى فقصدها المبشرون للاتصال بالقبائل وللتأثير فى بعض أفرادها لإدخالهم فى دينهم، وفى كتب السير، أن الرسول نفسه كان يخرج فى المواسم لعرض نفسه على القبائل ولهدايتهم إلى الإسلام(٤٣).

وإذا كان قد أشير فى مراجع متعددة، أن المجتمع العربى الجاهلى كان على درجة عالية من الجمود والتشتت، إلا أن التأمل فى الدور الذى قامت به الأسواق الجاهلية وما سيتصل بها يقتضى منا إعادة النظر فى هذه المقولة، ففى الأسواق يكون اختلاط واتصال تلقائى وعفوى، وآمن، وعام وشامل، فيه من كل الطبقات، وفيه من جميع القبائل والجهات، وتنطق فيه اللغة المشتركة وكذلك اللهجات بصورة طبيعية لا تكلف فيها فى حالات البيع والشراء والمساومة. وفى الأسواق تظهر النفوس على حقيقتها فى بخلها وكرمها، وفى حرصها واستهتارها، وفى إفاقتها وسكرها .. إلى غير ذلك من الحالات النادرة للنفس البشرية(٤٤).

وفى الأسواق يطل الجميع على الجميع، رجالا ونساء، سادة وعبيدا، أشرافا ولئاما. وفى هذا الخضم البشرى الهائل يتم التأثير والتأثر، والتعديل والتحوير، والحذق والإضافة، وتثبيت أساليب وألفاظ، تمهيدا لاشاعتها بين عامة الجزيرة، كل ذلك يتم فى الأسواق، ولا تحسب أن عاملا من عوامل الاجتماع والاختلاط يقارب عاملنا هذا – الأسواق – أو يدانيه.

وقد دلت الملاحظة الحديثة على أنه حين تقوى الصلة بين مناطق مجتمع من المجتمعات، وتسهل بينها وسائل الاتصال، تتكون لها مع الزمن (لغة مشتركة) تقرب بينهم، وتعين أهلها على تفاهم أسر وأيسر، وتقضى لهم مصالحهم الدنيوية.

وقد سهل (بعد المكان) الأسواق فى تأدية وظيفتها، فقد كانت تتوزع شبه جزيرة العرب، وتنتشر فيها انتشارا متوازنا فى التوزيع القبلى، وهذا معناه أن التاجر – وجميع من يساعده – ينبغى عليه أن يطوف بأنحاء الجزيرة، ويختلط بقبائلها، ويتصل بأناس من هذه القبائل اتصالا مباشرا وعليه أن يحقق مع هؤلاء جميعا الفهم والإفهام داخل السوق نفسها وفى كل المواضع المتصلة بها[٤٥].

ويشير (البعد الاجتماعى) إلى جانب كان ذا تأثير ثقافى واضح، فالأسواق نفسها ظاهرة من الظواهر الاجتماعية الناشئة عن اجتماع الناس وحاجاتهم إلى تبادل المنافع وقضاء الحاجات، كما أن هذه الأسواق كانت معرضا لكثير من العادات والنظم الاجتماعية للعرب فى الجاهلية، تلك العادات التى كانت تمارس فى الأسواق – وخصوصا الأسواق الكبرى – تزيد من العدد المعروض من هذه العادات والظواهر الاجتماعية، وتعمل فى الوقت نفسه على صهرها والتقريب بينها[٤٦].

وقد ذكر الألوسى كثيرا من هذه الأسواق ومواقيتها، فمما ذكره منها[٤٧]:

١- **دومة الجندل:** كانوا ينزلونها أول يوم من ربيع الأول، وكانت تستمر نصف شهر أو شهرا.

٢- **سوق هجر:** (بالبحرين) كانوا ينتقلون إليها فى شهر ربيع الآخر.

٣- **سوق عمان:** كانوا يرتحلون من سوق هجر إليها، فتقوم بها سوقهم إلى أواخر جمادى الأول.

٤- **سوق المشقر:** (وهو حصن بالبحرين) تقوم من أول يوم من جمادى الآخرة.

٥- **سوق صحار:** تقوم لعشرين يمضين من رجب لمدة خمسة أيام.

٦- **سوق الشحر:** تقوم فى النصف من شعبان.

٧- **سوق عدن أبين:** تقوم أيام من رمضان.

٨- **سوق صنعاء:** تقوم فى النصف الثانى من رمضان.

٩- **سوق ذى المجاز:** كانت بناحية عرفة إلى جانبها.

١٠- **سوق مجنة:** موضع بقرب مكة، تقوم سوقها قرب أيام الحج ويحضرها كثير من قبائل العرب.

١١- **سوق عكاظ:** وهى أشهر أسواق العرب فى الجاهلية. وهى مكان بين الطائف ونخلة، فكانت العرب إذا قصدت الحج، أقامت بهذه السوق من أول ذى القعدة، إلى عشرين منه، ثم يتوجهون إلى مكة، فيقضون مناسك الحج ثم يعودون إلى أوطانهم[٤٨]. وكان كل شريف إنما يحضر سوق بلده، إلا عكاظ، فإنهم كانوا يتوافدون إليها من كل ناحية.

ويجب ألا ننظر إلى هذه الأسواق نظرتنا إلى السوق بالمعنى المفهوم من اللفظة فى الوقت الحاضر، فقد كانت أسواق الجاهلية أوسع مجالا من ذلك بكثير مما جعلنا نضعها ضمن وسائط التربية الجاهلية، فقد كانت معرضا لكثير من عادات العرب وأحوالهم الاجتماعية، فهاهنا

قس بن ساعده يخطب الناس ويذكر الخالق ويعظم بمن كان قبلهم ويأمرهم بفعل الخير.

وهى أيضا ندوة سياسية عامة، تقضى فيها أمور كثيرة بين القبائل، فمن كانت له أتاوة على قبيلة نزل عكاظ فجاءوه بها، ومن أراد تخليد نصر لحيه، فعل فعل عمرو بن كلثوم فرحل إلى عكاظ وخلده فيها شعرا، ومن أراد إجارة أحد، هتف بذلك فى عكاظ حتى يسمع عامة الناس، ومن أراد إعلان حرب على قومه أعلنه فى عكاظ[٤٩]، فقد كانت مجامع لأهل اللسان من شعراء ومن خطباء، من مرموقين معروفين ومن مغمورين طلاب شهرة إلى غير ذلك من أغراض، إذ تؤكد روايات أهل الأخبار أن حظ المفاخرة والمباهاة والتمدح والذم، لم يكن بأقل من حظ البيع والشراء فى سوق عكاظ، فقد كان الشعراء يعرضون أجود ما عندهم من شعر على الحاضرين[٥٠]. وكان كثير من هؤلاء الحاضرين إنما يفدون إليها للوقوف على أحدث ما يقال من صنوف الشعر وهو صنف رائج أكثر من رواج (النثر بالطبع) لما فيه من إيقاع وموسيقى ووزن وسهولة فى الحفظ وأثر فى النفس، لذلك كان للشاعر فى هذه السوق مكانة تزيد كثيرا على مكانة التاجر فيها، لما لشعر من أثر فى الحياة العامة لمجتمع ذلك اليوم[٥١].

وكان للأسواق أثرها الثقافى البارز، فإقامتها والتردد عليها يجعلنا نتوقع حاجة العرب فى العصر الجاهلى إلى بعض المعارف الحسابية، والأرقام وخصوصا فى عمليات التبادل التجارى، وعقد الصفقات، وإنفاذها، ودفع المكوس، والإتاوة والعشور، وحساب الربح والخسارة .. الخ، فاتصلوا – سدا لهذه الحاجة – بالحيرة والأنباط، وتعلم بعضهم من هؤلاء وأولئك الكتابة والخط، كما اتصلوا بالهنود، وتعلموا منهم بعض مبادئ الحساب والأرقام[٥٢]:

ودفعهم السفر من سوق إلى سوق، داخل الجزيرة العربية، وخارجها إلى بعض المعارف التاريخية فى تنظيم مواعيد الأسواق، والرحلة

إليها، والأشـهر الحـرم وغير الحـرم، ومواعيد قضـاء الديـون أو دفـع الإتاوات ...الخ.

ويتصل بذلك بعض المعارف الجغرافية التى تتصل بالطرق البريـة، والبحريـة لأننـا إذا تأملنـا ظـروف الحيـاة العربيـة فـى عصـور مـا قبـل الإسلام، أدركنا أنه كانت هناك دواع كثيرة تدفـع العـرب إلـى تحصيـل كثير من الخبرة والمعارف الجغرافية، سواء فى ذلك مـا يتصـل بداخـل شبه الجزيرة العربية أو خارجها.

وكان للأسواق عمل لغوى خطير، فقد كانت سـببا فـى التقريـب بيـن لغات العرب ولهجاتهم، إذ كانت تنزل بهـا شـتى القبـائل العربيـة علـى اختلافها، من قحطانيين وعدنانيين، كما كان ملك الحيرة يبعـث تجارتـه إليها، ويأتيها التجار مـن مصـر والشـام والعـراق، فكـان هـذا الاجتمـاع الكبير وسيلة من وسائل التفاهم اللغوى، والتقارب بين اللغات واللهجـات العربية، واختيار القبائل بعضها مع بعض، وكانت الأذواق المرهفة فـى هذه الأسواق تعمل عملها فـى النقـد اللغـوى، فتـأخذ كـل قبيلـة مـن لغـة الأخرى ما خف على النطق، وعذب فى الألسنة وظهرت فصاحته، من مختلف الألفاظ والأساليب[٥٣].

وكان القرشيون خاصة من بين قبائل العرب وبتأثير اجتماعات الحج والأسواق والحروب، أكثر القبائل ميلا إلى النقد اللغوى، فاقتبسوا مـن لهجـات القبـائل أعذبهـا، ومـن ألفـاظهم أسـهلها وأنصفهـا وأفحصهـا، وأخذوايضيفون ذلك إلى لغتهم فزادت ثروة اللغـة العدنانيـة القرشـية، وقلدت القبائل الأخرى قريشا فى ذلك، وأخذت عنهـا محـاكين لهـا فـى لغتهـا، وذلـك لمكانـة قريـش وإشـرافها علـى هـذه الأسـواق، ممـا حـدا بالشعراء الذيـن يريـدون لشـعرهم الذيـوع أن يتحـروا لهجتهـا المختـارة الذائعة فى إذاعـة محـامد قبـائلهم وأمجـادهم، فكـان لذلـك آثـاره البعيـدة فىتهذيب اللغـة العربيـة وتوحيدهـا وجمعهـا فـى لغـة مختـارة هـى لغـة قريش التى نزل بها القرآن الكريم[٥٤].

ويقال أن الشاعر الشهير النابغة الذبيانى، كان يحضر سوق عكاظ فتضرب له قبة من أدم يجلس تحتها، فيفد إليه من الشعراء من يريد أن يفتخر بشعره على غيره، لينشد أمامه شعره، فيحكم على شعره برأيه، لما لرأيه من أثر فى الناس "وأول من أنشده (الأعشى) ثم حسان ابن ثابت، ثم أنشدته الخنساء"[٥٥]. وممن حضر عكاظ، الخطيب الجاهلى قس بن ساعده الايادى وعمرو بن كلثوم التغلبى.

وشأن العرب فى ذلك شأن اليونان القدماء فى الجمنازيوم، وهى أبنية كانوا يجتمعون فيها للألعاب البدنية، وفيهم الفلاسفة والعلماء، فكانوا يغتنمون فرصة وجودهم هناك ويتباحثون ويتنافرون كما كان العرب يفعلون فى عكاظ، ولا يخفى ما فى ذلك من تمحيص الحقائق واستحثاث القرائح، فضلا عما كان يترتب على ذلك من تنقيح اللغة وغيرها، فإن قريشا كانوا يسمعون وخلت لغتهم من مستبشع اللغات ومستقبح الألفاظ[٥٦].

وغنى عن البيان أيضا ما يدخره الصغار الذين يصطحبهم أهلوهم إلى عكاظ من ذكريات عن تلك السوق لا تنسى، هذه خولة بنت ثعلبة تستوقف عمر بن الخطاب فى خلافته، فيقف لها فتقول: "إيها يا عمر .. عهدتك وأنت تسمى عميرا فى سوق عكاظ تزع الصبيان بعصاك، فلم تذهب الأيام حتى سميت عمر، ولم تذهب الأيام حتى سميت أمير المؤمنين"[٥٧].

وتروى الأخبار أن الناس احتشدوا فى ناحية من عكاظ يتوسطهم شيخ وقور، على وجهه سمات اليقين والخير، وهو على جمل أورق، قد أرهف الناس إليه آذانهم مصغين، وأعينهم إلى وجهه وقد شدتهم الحيرة من ألفاظ تجرى على لسانه من خبر السماء وما بعد الممات، أو عظات لا عهد لهم بمثلها فى أحيائهم النائية وأوطانهم الشاحبة، وهو يخطبهم ويقول:

"أيها الناس. اسمعوا وعوا. من عاش مات. ومن مات فات. وكل ما هو آت آت. ليل داج ونهار ساج. وسماء ذات أبراج ونجوم تزهر، وبحار تزخر، وجبال مرساة، وأرض مدحاة وأنهار مجراة. إن فى السماء لخبرا، وإن فى الأرض لعبرا. ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون. أرضوا فأقاموا، أم تركوا فناموا؟".

يقسم قس بالله قسما لا إثم فيه: أن لله دينا هو أرضى لكم وأفضل من دينكم الذى أنتم عليه. أنكم لتأتون من الأمر منكرا.

في الذاهبين الأولــــ ـيــــن من القرون بصائر
لما رأيت مــــــواردا للمــوت ليس لها مصادر
ورأيت قومى نحوهــا تمضى الأكــابر والصغائر
أيقنت أنى لامحـــــا لة حيث صار القوم صائر

سمع الناس هذا، ثم أخذت أبصارهم أولئك الذين يطوفون حول الصخور فى الأسواق، فانصرفوا حيرى فى أنفسهم شىء. وكان بين المنصرفين غلام حدث، هو صاحب الشريعة الإسلامية ﷺ. بقى يذكر هذا المشهد حتى بعد أربعين سنة وقد طبقت الجزيرة دعوة الإسلام، وقدمت على صاحبها وفود الأقطار بالطاعة والإجابة، وكان منهم وفد من أياد قوم قس، وفدوا على الرسول فسمع منهم، وقال لهم:

"ما فعل قس بن ساعدة؟" قالوا: مات يارسول الله، قال: "كأنى أنظر إليه بسوق عكاظ على جمل أورق وهو يتكلم بكلام عليه حلاوة، ما أجدنى أحفظه".

فقال رجل من القوم: (أنا أحفظه يارسول الله) .. فتلاه عليه(٨).

بيوت العبادة:

كانت بيوت العبادة عند الجاهليين، ثلاثة أنواع : بيوت عبادة خاصة بالمشركين عبدة الأصنام، وهم الكثرة الغالبة، وبيوت عبادة

خاصة باليهود وبيوت عبادة خاصة بالنصارى. ونظرا لما للدور الخطير الذى لعبه الدين فى حياة العرب القدماء، كان من الطبيعى أن تلعب بيوت العبادة بالتالى دورا أساسيا فى تربية الجاهلى تربية خاصة، نرجو أن نوفق فى الكشف عنها.

وغنى عن البيان، أن (بيت الله الحرام) بمكة المكرمة، هو أشهر وأعظم بيوت العبادة فى العصر الجاهلى يحج إليه العرب من مختلف البقاع، وكان لهذا أثره التربوى فهم يأتون من كل جهة، وقد امتلأت جعباهم بالأخبار وذاكرتهم بالأشعار والخطب والكلمات الممتازة واكتظت أذهانهم بمختلف الصور والمشاهد، الأمر الذى ساعد على تقريب أساليب التربية العربية وتوحيد اللغة وتصفيتها. ولما كانت مكة بلدا فى واد غير ذى زرع، تعتمد فى حياتها على ما يجلب إليها من الخارج، وما يستطيع أهلها أن يحققوه لأنفسهم من منافع عن طريق البيع والشراء والتبادل مع الوافدين عليها والمارين بها فى رحلات القوافل التجارية، أو القادمين إلى الأسواق التى تقام فيها وحولها، وما يقدمه الحجاج إلى بيتها من هدايا ونذور، فقد كان لابد أن يضع أهله لهم وللقادمين إليه أنظمة وقوانين لتنظيم الحياة وتوفير الأمن وحفظ الحقوق وحماية من يفد إليه من الأذى(٥٠).

وتفسير ذلك، أن الكعبة وهى بيت الله، أرض حرام لا يجوز البغى فيها ولا ارتكاب المعاصى واقتراف الآثام، والمدينة وهى فى جوار بيت الله ذات حرمة وقدسية، وسكان البلد الحرام هم فى حمى البيت وفى جواره، فلابد من إنصافهم وإحقاق حقهم، وهذا الإدراك قديم سابق على عهد قريش، فتذكر الروايات أن (مضاضا بن عمرو الجرهمى) فكر فى حماية التجارة والدفاع عن الأجانب جلبا للغرباء والتجار، فقال فى إحدى خطبه "وقروا حرم الله ولا تظلمون من دخله وجاء معظما لحرمته، وآخر جاء بائعا لسلعته أو مرتضيا فى جواركم". كما تروى أن عمرا بن لحى زعيم خزاعة قد اتخذ من الإجراءات ما يرغب

العرب فى القدوم إلى مكة والحج إلى بيتها الحرام، فجلب الأصنام وأقامها فى فناء الكعبة، كما كان يقيم موائد الطعام فى موسم الحج، حتى لقد قالوا إنه كان ينحر عشرة آلاف بدنة.

ولما صار الأمر إلى قريش بعد خزاعة نظم زعيمها قصى بن كلاب الوظائف المدنية والدينية بمكة، وعمل على إنماء المدينة وتقرير كيانها، وتوسعت قريش فلم تكتف بتقرير حرمة المدينة فى داخلها، بل جعلت لها مجالا فى خارجها، وجعلت هذا المجال حرما كحرمة المدينة نفسها، وأقامت له علامات يعرف بها، أى أنها حرمت المدينة وحفظت لها مجالا فيما حولها كما أقرت حقوق المواطنة لأهل هذا الحرم(٣٠).

ولما رأت العرب ذلك طلبوا بيوتا يضاهون بها الكعبة، قال ابن هشام: وكانت العرب قد اتخذت من الكعبة طواغيت وهى بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة لها سدنة وحجاب وتهدى إليها كما تهدى للكعبة، وتطوف بها كطوافها(٣١):

- بيت رضى: فأصبح هناك بيت لبنى ربيعة: يدعى بيت رضى، هدمه المستوغر فى الإسلام.
- وذو الكعبات بسنداد: لبكر وتغلب ابنى وائل: وكان لإياد كعبة أخرى بسنداد من أرض الكوفة والبصرة فى الظهر، وهى التى ذكرها الأسود بن يعفر.
- والقليس، وقد كان أبرهة الأشرم قد بنى بيتا بصنعاء، كنيسة، سماها: القليس، بالرخام وجيد الخشب المذهب وكتب إلى ملك الحبشة يقول: أنى قد بنيت لك كنيسة لم يبن مثلها قط ولست تاركا العرب حتى أصرف حجهم عن بيتهم الذى يحجون إليه.
- اللات: بيت ثقيف بالطائف كانوا يعظمونه نحو تعظيم الكعبة.
- كعبة نجران، وكان لبنى الحارث كعبة نجران يعظمونها.
- رئام: كان لحمير بصنعاء يعظمونه ويتقربون عنده بالذبائح(٣٢).

ولم تكن المعابد مواضع عبادة وتقريب إلى الأصنام فحسب، بل كانت مصادر معلومات يقصدها أهل الحاجات لسؤال الألهة عما عندهم من مشكلات، أو عما سيخبئه لهم المستقبل من أمور، أو عن أعمال يريدون القيام بها أو ما شابه ذلك من طلبات[١٣].

وقد كان للديانتين اليهودية والنصرانية فضل كبير على أهلها فى نشر الكتابة والعلوم بينهم، إذ صارت معابدهم، مدارس يتعلم فيها الناس أصول دينهم ومبادىء المعرفة والكتابة والقراءة لمن يرغب من الأطفال. كما أدت حاجة الديانتين إلى رجال دين يقومون بتثقيف الناس وتعليمهم أصول دينهم ونشر ديانتهم بين الوثنيين أو أصحاب الديانات الأخرى، إلى تكوين معاهد خاصة لتخريج هؤلاء الرجال ألحقت بالمعابد، درسوا فيها الكتب المقدسة، وما وضع عليها من تفسير وشروح وما يتعلق بشرحها من دراسة للغات وفلسفة وجدل وأمور أخرى لها علاقة وصلة بالديانات[١٤].

وقد كانت لليهود مواضع يتدارس فيها رجال دينهم أحكام شريعتهم، وأيامهم الماضية وأخبار الرسل والأنبياء، وما جاء فى التوراة والمشنا وغير ذلك، عرفت بين الجاهليين بـ(المدارس)، و(بيت المدارس) و(المدراش) وأطلق الجاهليون على الموضع الذى يتعبد فيه اليهود (الكنيس) و(وكنيسة اليهود) تمييزا لهذه الكنيسة عن(الكنيسة) التى هى لفظة خاصة بموضع عبادة النصارى[١٥].

وقد أخذ الجاهليون مصطلح (المدارس) من العبرانيين، من لفظة (مدراش) Midrash التى هى أصل (درش) Darash التى تقابل (درس) فى اللغة العربية، وتؤدى هذه الكلمة المعنى المفهوم من لفظة (درس) العربية تماما الأداء. ويقصد بالمدراس درس نصوص التوراة وشرحها و تفسيرها وإيضاح الغامض منها وأسرارها وأمثال ذلك، وينهض بذلك، المفسر الشارح (درش) Darshan ولكل طريقة وأسلوب.

ولم يكن المدراس (المدراش) موضع عبادة وصلوات فحسب، بل كان إلى ذلك، دار ندوة ليهود يجتمعون فيه فى أوقات فراغهم لاستئناس بعضهم ببعض فى شئونهم، وللبت فى القضايا الجسيمة الخطيرة على اختلاف درجاتها، فهو إذن مجمع الأحبار ومجمع الرؤساء والسادات وأصحاب الشرف فيهم، وإليه كان يقصد الجاهليون حين يريدون أمرا من الأمور أو استفهاما عن شيء يريدون الوقوف عليه[٦٦].

وقد أثرت الأديرة تأثيرا مهما فى تعريف التجار العرب والأعراب بالنصرانية،فقد وجد التجار فى أكثر هذه الأديرة ملاجيء يرتاحون فيها ومحلات يتجهزون منها بالماء،كما وجدوا فيها أماكن للهو والشراب، ومن قيامهم بشعائرهم الدينية عرف هؤلاء الضيوف شيئا عن ديانتهم وعما كانوا يؤدونه من شعائر. وقد كانت هذه الأديرة، وهى بيوت عبادة وخلوة وانقطاع إلى عبادة الله والتفكير فيه، موطن تبشير ونشر دعوة. وقد انتشرت حتى فى الأماكن القصية من البوادى[٦٧].

وكان لتنصر المناذرة أثر كبير فى حركة بناء الأديرة والكنائس، ولقد حفظ لنا الأخباريون أسماء كثيرة من هذه المنشآت المسيحية التى أقيمت فى عصر المناذرة[٦٨]. أما الأديرة فبعضها ينسب لأفراد من العباد الأشراف.

ومما ذكره ياقوت أن خالد بن الوليد لما خرج إلى عين تمر وجدوا فى كنيسة صبيانا يتعلمون الكتابة فى قرية من قرى عين التمر يقال لها (النقيرة) وكان فيهم حمران مولى عثمان بن عفان.

ومن أشهر شعراء الجاهلية الذين تأثروا بديانة أهل الكتاب، ولاسيما النصرانية عدى بن زايد العبادى، وأمية بن أبى الصلت الثقفى. أما عدى فكان نصرانيا ديانيا، وترجمانا، وصاحب كتب، وكان من دهاة أهل ذلك العصر، ذكر شأن آدم ومعصيته فى أبيات يشعر قارئها بركاكتها، وإذا صحت نسبتها للشاعر، فهى ترجمة حرفية لما فى كتب

أهل الديانات من أخبار يختلط غثها بسمينها كما هو الشأن فيما يعرف بالإسرائيليات فى كتب التفسير الإسلامية، ولعل هذه السمة الفنية، أى الركاكة هى علة قولهم عنه "كان يسكن بالحيرة، ويدخل الأرياف، فثقل لسانه.. وعلماؤنا لا يرون شعره حجة.. لأن ألفاظه ليست بنجدية"[٦٩].

وأما أمية بن أبى الصلت، فقد قرأ الكتب المتقدمة من كتب الله عز وجل، ورغب عن عبادة الأوثان، وكان يخبر بأن نبيا يبعث قد أظل زمانه، ويؤمل أن يكون ذلك النبى. فلما بلغه خروج رسول الله ﷺ، وقصته كفر حسدا له، وقال شعرا يشير بوضوح إلى تأثره بكتب أهل الكتاب[٧٠].

وترددت شعائر اليهودية، والنصرانية فى شعر كثير منهم.
فقد حلف عدى بن زيد بالله وبالصليب، قال يخاطب النعمان[٧١].

سعى الأعداء لا يألون شرا ... عليك ورب مكة والصليب

وحلف الأعشى بمسوح الرهبان والكعبة:

حلفت بثوبى راهب الدير والتى ... بناها قصى والمضاض بن جرهم

وشبه أوس بن حجر رمحه بمصباح يوقده رئيس النصارى يوم الفصح:

عليه كمصباح العزيز يَشُبُّهُ ... بفصح ويحشوه الذبال المفتلا

هوامش الفصل الخامس

١- المرأة فى الشعر الجاهلى، ص٧٤.
٢- جوستاف لوبون، مقدمة الحضارة الأولى، ترجمة محمد صادق رستم، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٤١هـ، ص٣٢.
٣- المرأة فى الشعر الجاهلى، ص١١٣.
٤- الجاحظ، البخلاء، جـ٢، ص٢٥. (نمى: نما. الفلو: المهر والجحش إذا فطما، والمراد الصبى. المحج: كبيرة البطن من الحمل).
٥- الحيوان، جـ١، ص٢٨٧.
٦- محمد خفاجى، الحياة الأدبية فى العصر الجاهلى، ص٣٥.
٧- المرأة فى الشعر الجاهلى، ص١١٩.
٨- على العتوم، ص٣٤٩.
٩- المرجع السابق، ص٣٥٠.
١٠- المرجع السابق، ص٣٥١.
١١- على الجندى، ص٤٢٣.
١٢- المرجع السابق، ص٤٢٤. عائل: كثير العيال. يستثيبهم، يطلب ثوابهم. أكدت: امتنعت، هبلته: فقدته. حائل: الذى أتى عليه الحول.
١٣- المرجع السابق، ص٤٢٥. مرمل: محتاج. الرسم، ما بقى بالأرض من آثار الدار، أى هو فى مفازة لم ينزل بها أحد. البهم جمع بهمة، ولد الضأن والماعز، شبههم بهم لهزالهم. المعنى: رجل عنيف الطباع.
١٤- جورجى زيدان، العرب قبل الإسلام، ص ٦١، ٦٢.
١٥- أحمد الشريف، مكة والمدينة، ص٢٥.
١٦- ابن الأثير، أسد الغابة، جـ١، ص١٣٦.
١٧- المرجع السابق، جـ١، ص ١٨٣-١٨٤.
١٨- الأغانى، جـ٣، ص٢٥.
١٩- مكة والمدينة، ص٣٢.
٢٠- الأصمعيات، ص١١٣.
٢١- مكة والمدينة، ص٣٥.
٢٢- المفصل، جـ٤، ص ٥٤٢.
٢٣- سورة الاسراء/٣٣. وتفسير الطبرى لها، جـ١٥، ص ٥٩.
٢٤- القرطبى، الجامع، جـ١٠، ص ١١٧.، تفسير سورة النحل.
٢٥- المفصل، جـ٤، ص٥٤٤.
٢٦- المرجع السابق، ص ٥٥٥.
٢٧- المرجع السابق، ص ٥٦٤.
٢٨- مكة والمدينة، ص٥٣.
٢٩- المرجع السابق، ص٥٧.
٣٠- المرجع السابق، ص٥٩.
٣١- المرجع السابق، ص٦١.

٣٢- المرجع السابق، جـ٨، ص٢٩١.
٣٣- لسان العرب، جـ٢، ص١٩٣.
٣٤- أحمد شلبى، تاريخ التربية الإسلامية، النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٦، ص ٤٨.
٣٥- الطبقات، ٣/١، ص٣٥٨، وتاريخ الطبرى، جـ٥، ص ٤٢.
٣٦- فتوح البلدان، ص٤٧٩.
٣٧- تاريخ الطبرى، جـ٤، ص٢٠.
٣٨- أى سلم ولده فى الكتاب، الأغانى، جـ٢، ص ١٠١.
٣٩- المفصل، جـ٨، ص٢٩٣.
٤٠- شرح ديوان حسان للبرقوقى، ص ٢١٣ وما بعده.
٤١- مصادر الشعر الجاهلى، ص٥٠.
٤٢- أحمد الشريف، مكة والمدينة، ص٨٤.
٤٣- المفصل، جـ٧، ص ٣٧١.
٤٤- محمد حماد، الأسواق الجاهلية وأثرها فى اللغة العربية، دار الثقافة العربية، القاهرة، ١٩٩٢، ص٦١.
٤٥- المرجع السابق، ص٦٢.
٤٦- المرجع السابق، ٧٣.
٤٧- الألوسى، بلوغ الإرب، جـ١، ص٢٦٥.
٤٨- جورجى زيدان، تاريخ التمدن الإسلامى، دار الهلال، القاهرة، ١٩٥٨، جـ٣، ص ٣٧، ٣٨.
٤٩- سعيد الأفغانى، أسواق العرب فى الجاهلية، دار الفكر ببيروت، ١٩٧٤، ص٢٨٠، ٢٨٢.
٥٠- تاريخ ابن خلدون، جـ٢، ص ٦٤٢.
٥١- المفصل، جـ٧، ص ١٨٣.
٥٢- محمد حماد، الأسواق الجاهلية، ص٨٩.
٥٣- قصة الأدب فى الحجاز، ص١٧٦.
٥٤- المرجع السابق، ص١٧٧.
٥٥- الأغانى، جـ١١، ص٦.
٥٦- تاريخ التمدن الإسلامى، جـ٣، ص٣٩.
٥٧- أسواق العرب، ٢٨٤.
٥٨- المرجع السابق، ص ٣١٣-٣١٤.
٥٩- أحمد الشريف، مكة والمدينة، ص١٨٧.
٦٠- المرجع السابق، ص١٨٨.
٦١- فى الفكر الدينى الجاهلى، ص٢٤١.
٦٢- المرجع السابق، ص٢٤٢.
٦٣- المفصل، جـ٦، ص٤٠٩.
٦٤- المفصل، جـ٨، ث ٢٩٣.

٦٥- لسان العرب، جـ٧، ص ٣٨٢.
٦٦- المفصل، جـ٦، ص ٥٥٠.
٦٧- المرجع السابق، ص ٥٨٩.
٦٨- السيد عبد العزيز سالم، تاريخ العرب قبل الإسلام، ص١٩٩.
٦٩- على العتوم، ص٤٢٢.
٧٠- المرجع السابق، ص٤٢٣.
٧١- أحمد الحوفى، الحياة العربية، ص٤١٩.

الفصل السادس

مجالات التربية الجاهلية

قلنا أن التربية قديمة قدم الحياة، ومن ثم كان لنا أن نتساءل عن (المجالات) التى طرقتها هذه التربية؟ نضع هذا التساؤل بحثا عن (معارف) العرب الجاهليين وعلومهم التى كانوا يتعلمونها واضعين فى الاعتبار، الاختلاف الكبير بين مفهوم (العلم و المعرفة) فى عصرنا الحاضر وبين (واقعه) فى العصر الذى نكتب عنه، إنها معارف كثيرة معظمها غير منظم فى أطر واضحة منسقة وتفتقد فى أحيان أخرى المنهجية والعقلية، لكنها على أية حال(إفراز) البيئة العربية القديمة بأبعادها التى شرحناها، لاتدفعنا بساطتها وسذاجتها إلى إهمال دراستها وشرحها. وعلى هذا نستطيع أن نشير إلى أهم مجالات التربية الجاهلية فيما يلى:

١- الأدب:

من الواضح أن عرب الجاهلية كانت فيهم ميول ظاهرة إلى تذوق الأدب والاستمتاع به. كان منهم أفراد منحوا موهبة الأدب، فوجدت منهم طبقة الأدباء الممتازين، شعراء فحول، وناثرون بلغاء، ومحدثون فصحاء، وكان منهم ذواقون للأدب، خبيرون بمواطن حسنه، وأسرار بلاغته، وسماعون للقول الممتاز، يتعشقون سحره، ويطربون لسماعه ويحلو لهم ترديده وتكراره[١].

وكان الأديب يلقى ما دبجته قريحته معتمدا على ذاكرته، وجمهوره يتلقى عنه معتمدا على الحافظة، فيسمعونه، ويرددونه بحكم شغفهم بالأدب، وميلهم الفطرى لحفظه وصيانته، معتمدين كذلك، لا على قلم يدون، وقرطاس يحفظ، بل على قواهم العقلية الطبيعية الذاكرة

الحافظة، أقلامهم الوعى والانتباه ودقة السماع والإنصات، وقراطيسهم صفحات الأفئدة والقلوب. ولكن: هل كانوا يحفظونه بمجرد سماعه لأول مرة كأنهم آلات تسجيل؟ ربما كان الأديب يكرره أكثر من مرة، وربما كان السامعون يعاودون تكراره، بعضهم مع بعض، فيكمل كل منهم لزميله ما قد يكون ندَّ عن ذاكرته، أو غاب عن وعيه، وهكذا حتى يثبت النص، طبق الأصل، كما ورد عن صاحبه، ويصبح كأنما هو مسطر فى كتاب. ومن المعروف أن الموهبة تقوى بالممارسة والتدريب، والعادة تصبح طبيعة بالتكرار والاستمرار، ومن ثم نعتقد أنه كان بين الجاهليين قوة فى الذاكرة وحدة فى الحافظة، بسبب اعتمادهم الكلى عليها، والمداومة على ممارستها لأداء هذه الوظيفة، مدفوعين إلى ذلك بحكم شغفهم الطبيعى لحفظ هذه الآثار وصيانتها، وأرهف قوة الذاكرة عندهم عدم شيوع الكتابة بينهم لقلة من يعرفها، ولأن ظروف الحياة عندهم ما كانت تهيئ لهم أوقاتا يجلسون فيها لتعلم القراءة والكتابة، فالسعى إلى لقمة العيش التى تقيم أودهم، كان يشغلهم عن هذا وأمثاله مما لا يتصل بصميم الحياة بينهم وظروفهم، كما أن أدوات الكتابة كانت الحجارة والجلود والسعف، وأمثالها مما لا يحبب الكثير فى مزاولتها، ومن ثم كان الاعتماد الأساسى فى حفظ الآثار وتسجيلها يقوم على الذاكرة والترديد الشفهى(٢).

وكان أكثر الناس اهتماما بنصوص الأديب، أهله وعشيرته، ذلك لأنهم كانوا يعتبرون الأديب لسان حالهم، فهو المعبر عما فى نفوسهم، والمذيع لأخبارهم، والمسجل لمآثرهم وأمجادهم، تنطلق منه الكلمات فتدوى فى الآفاق، وتخترق الفضاء كالسهام، فتنفذ فى الأسماع، وتستقر فى القلوب، وتتناقلها الأجيال، الخلف عن السلف فتظل عالقة بالأذهان، خالدة خلود الإنسان فالعشيرة ومعهم الأصدقاء، كانوا السجل الأصلى لآثار أدبائهم، يحفظونها عن ظهر قلب، ويذيعونها فى الآفاق، ويرددونها فى كل مكان، ويتلقاها الأبناء عن الآباء فى زهو وافتخار، ويتغنون بها فى كل زمان.

الشعر: لعل (الشعر) هو المظهر الحضارى البارز عند البدو من العرب، ولذا كان يحتل مكانة خاصة فى حياتهم[٣] ،فقالوا أنه ديوان العرب والمصور لآمالهم وآلامهم وحياتهم ومشاهد الوجود بينهم، أودعوه وقائعهم ومفاخرهم وأحسابهم وأنسابهم وأيامهم وآثارهم وذكرياتهم وأوصاف بيئتهم[٤]. وكان له سحره وروعة تأثيره فى نفوسهم، وحسبك من مكانة الشعر عند العرب، أنه لما بعث النبى ﷺ بالقرآن المعجز نظمه، المحكم تأليفه، وأعجب قريشا ما سمعوا منه، قالوا: ماهذا إلا سحر، وقالوا فى النبى شاعر نتربص به ريب المنون، وكانوا إذا نبغ شاعر فى القبيلة احتفل أفرادها به[٥]، وتناقلوا أخباره وتباهوا به على القبائل الأخرى. ومن هنا ذهب بعض الباحثين[٦] إلى أن الشعراء فى الجاهلية كانوا هم (أهل) المعرفة، يعنون بذلك أن طبقة الشعراء فى الجاهلية كانوا أعلم أهل زمانهم، وليسوا يعنون بالضرورة أى نوع من أنواع العلم المنظم، إنما يعنون أنهم أعلم بما هو من نوع معيشتهم كمعرفة الأنساب ومثالب القبيلة ومناقبها. وقد يساعد على هذا الرأى إشتقاق المادة، فشعر فى الأصل معناه، علم، شعرت به: علمت وليت شعرى ما صنع فلان، أى ليت علمى محيط بما صنع "وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون"، أى ما يدريكم. وشعر بكذا: فطن كما فى اللسان. فالمادة كلها، معناها العلم أو المعرفة. وعليه فيكون الشاعر معناه العالم، والشعراء: العلماء. ثم خصصوا الشعر بهذا الضرب من القول، قال فى اللسان: "والشعر منظوم القول، غلب عليه لشرفه بالوزن والقافية، وإن كان كل علم شعراً من حيث غلب الفقه على الفقه على علم الشرع"[٧].

ولا ريب فى أن المراحل التى قطعها الشعر العربى حتى استوى فى صورته الجاهلية غامضة، فليس بين أيدينا أشعار تصور أطواره الأولى، إنما بين أيدينا هذه الصورة التامة لقصائده بتقاليدها الفنية المعقدة فى الوزن والقافية وفى المعانى والموضوعات وفى الأساليب

والصياغات المحكمة. وهى تقاليد تلقى ستارا بيننا وبين طفولة هذا الشعر ونشأته الأولى، فلا نكاد نعرف من ذلك شيئا[٨].

وتتراءى لنا مطولات الشعر الجاهلى فى نظام من المعانى والموضوعات، إذ ترى أصحابها يفتتحونها غالبا بوصف الأطلال وبكاء آثار الديار، ثم يصفون رحلاتهم فى الصحراء، وما يركبون من إبل وخيل. وكثيرا ما يشبهون الناقة فى سرعتها ببعض الحيوانات الوحشية، ويمضون فى تصويرها، ثم يخرجون إلى الغرض من قصيدتهم مديحا أو هجاء وفخرا أو عتابا وإعتذارا أو رثاء. وللقصيدة مهما طالت تقليد ثابت فى أوزانها وقوافيها، فهى تتألف من وحدات موسيقية يسمونها الأبيات، وتتحدد جميع الأبيات فى وزنها وقافيتها وما ينتهى من روى[٩].

ولابد لنا أن نتساءل عن الأسباب التى جعلت للشعر هذه المكانة فى الثقافة العربية[١٠]:

١- الصحراء وجوها الذى يوحى بالشعر ويلهب الخيال ويذكى العاطفة ويثير الشعور.
٢- حياة العرب نفسهم فى الجاهلية، هذه الحياة الحماسية التى دفعتهم إليها عواطفهم الثائرة، ووحدتهم فى قلب هذه الصحراء الواسعة المترامية الأطراف ورجوع العربى إلى عاطفته أكثر مما يرجع إلى عقله، وتنقله فى بطن الصحراء على جمله أو فرسه وسط الرمال والجبال والمتاهات، وحاجته إلى الغناء فى هذه الوحدة الشاملة ليسلى هموم نفسه وأحزانها وآلامها.
٣- هذا الاستعداد الفطرى للشعر فى نفس كل عربى وعربية مما كان يذكيه الخيال ويولده التأمل وتلك الحياة الشبيهة بالحياة الصوفية المتبتلة.
٤- ظروف الحياة الاجتماعية فى الصحراء وكثرة حروبهم وغاراتهم وحاجاتهم إلى الترنم بمفاخرهم ومآثرهم وأحسابهم وأنسابهم مما

لابد فيــه مـن نـوع جميـل مـن الأدب يخلـده ويرويـه ويذيعـه بيـن الناس، وليس هذا النوع سوى الشعر.

٥- قوة حافظة العرب وأنهم أمـة أميـة تعتمـد علـى الذاكـرة لا علـى التدوين، والشعر أسهل فى الحافظة رواية وأبقى تعلقا بالخاطر.

٦- يضاف إلى ذلك، اللغة العربية نفسـها، فإنهـا بـإقرار البـاحثين فـى أصـول اللغـات لغـة شـعرية برنيـن مفرداتهـا وأسـاليبها وروحهـا ومعانيها.

٧- إلى غير ذلك مـن الأسـباب الكثيرة التـى مـن أهمهـا هـذا الفـراغ الكثير الذى كان يتمتع به العربى لعدم اشتغاله بصناعـة أو تدبـير ملك وسياسة أو إدارة مرافق الدولة.

وكان أكثرهم ينظمون الشعر وهم أطفـال لـم ينظـروا فـى الأدب أو الشعر[١١] فمن شب ولم تتفتق قريحته عدوا ذلك نقصا وعيبا على أهلـه، فكانوا يثيرون بذلك غيرة أبنائهم على إتقـان الشـعر ويحرضونهـم علـى نظمه[١٢].

فإذا نبغ فى القبيلة شاعرا، أتت القبائل فهنأتهـا، وصنعـت الأطعمـة، واجتمـع النسـاء يلعبـن بـالمزاهر كمـا يصنعـن فـى الأعـراس، ويتباشـر الرجال والولدان لأنه حمايـة لأعراضهـم، وذب عـن أحسـابهم، وتخليـد لمآثرهم وإشادة بذكرهم.

وكان أكثر الناطقين بالضاد يعتبرونه مثلا أعلى فى العظمة والسمو، إذ كان شعرا امتدت جذوره إلى أعمـاق حيـاة النـاس، ويشـكل أفكـارهم دون أن يحسـوا، وجـدّد أخلاقهـم، وصيـر منهـم مـن الناحيـة الأخلاقيـة والروحية شعبا قبل أن يجدّ الرسول ﷺ فيجمع قبائله المتنـافرة فـى أمـة واحدة يتجه بها إلى هدف واحد.

ولم يكن الشعر فى ذلك العصر ترفا لا يتعاطـاه إلا قلـة مـن النـاس، بل كان الوسيلة الوحيدة للتعبير الأدبى، وكانت قصائد الشعراء - بغير

كتابة وتدوين – تطير عابرة الصحراء أسرع من الرياح، وتحدث أثرها العظيم فى قلوب من يسمعوها. وفى خضم النضال والتفكك كان الشعر يضفى حياة ونشاطا على مثل عالية قائمة على المروءة العربية، وصارت هذه المثل العالية رباطا بين القبائل، فضاعت – عن قصد أو غير قصد – وحدة أهلية قائمة على أساس عاطفى[١٣].

والأمثلة كثيرة جدا لشعراء حموا أعراض قبائلهم، وشعراء تشفعوا لقبائلهم أو لأفراد منها فشفّعوا، ولشعراء حط هجاؤهم من شأن أعدائهم، وشعراء رفعوا الوضيع، ووضعوا الرفيع، وشعراء سما بهم شعرهم حتى نادموا الملوك وكانوا من خواصهم .. الخ.

وكانت رواية الشعر فى العصر الجاهلى هى الأداة الطبيعية لنشره وذيوعه، وكانت هناك طبقة تحترفها احترافا هى طبقة الشعراء أنفسهم، فقد كان من يريد نظم الشعر وصوغه يلزم شاعرا يروى عنه شعره، وما يزال يروى له ولغيره حتى يتفتق لسانه، ويسيل عليه ينبوع الشعر والفن. ونص صاحب الأغانى على سلسلة من هؤلاء الشعراء الرواة الذين يأخذ بعضهم عن بعض، فكأننا بإزاء مدرسة تامة من الشعراء الرواة تتسلسل فى طبقات أو حلقات وكل حلقة تأخذ عن سابقتها وتسلم إلى لاحقتها. ومن أهم ما يلاحظ فى هذه المدرسة أن شعراءها أو رواتها كانوا من قبائل مختلفة فى شرقى الجزيرة وغربيها. ولعلنا لا نبعد إذا قلنا أن شعراء القبيلة الواحدة كان يروى خلفهم شعر سلفهم ونص القدماء على ذلك فى غير شاعر.

وقد لا تكون القبيلة الجامعة الوحيدة الواصلة، فقد يجمع بين الشعراء سلوك فى الحياة كالصعاليك أو الفرسان فيروى بعضهم لبعض، ويأخذ بعضهم عن بعض[١٤].

ويكشف الشعر الجاهلى عن المثل الأعلى لفضيلة العربى التى تعبر عنها لفظة المروءة، وللمروءة عناصر تتكون منها، هى الشجاعة

والوفاء والكرم. فالشجاعة تقاس بعدد ما يقوم به البطل من الغزوات ومقدار بلائه فى الذب عن قبيلته، ونبله فى معاملة الأعداء، والوفاء يقاس بولاء الفرد لسيد العشيرة وبتفانيه وتضحيته فى معاشرة الأنداد والقرناء. ويظهر الكرم فى البدوى حين يبدى استعداده لنحر ناقته وتقديمها طعاما للضيف أو لإطعام الفقراء والمساكين(١٠).

النثر: النثر هو الكلام المرسل الذى لا يتقيد بالوزن والقافية، وهو الجزء المقابل للشعر من أجزاء الكلام. وحين نتحدث عن النثر الجاهلى، ننحى النثر العادى الذى يتخاطب به الناس فى شئون حياتهم اليومية، فإن هذا الضرب من النثر لا يعد شىء منه أدبا إلا ما قد يجرى فيه من أمثال، إنما الذى يعد أدبا حقا، هو النثر الذى يقصد به صاحبه إلى التأثير فى نفوس السامعين والذى يحتفل فيه من أجل ذلك بالصياغة وجمال الأداء،وهو أقدر من الشعر على إظهار الأفكار وعلى التعبير عن الرأى، وعلى الإفصاح عن علم ومعرفة، لكونه كلاما مرسلا حرا لا يتقيد بقيود، خاليا من الوزن والقافية ومن المحافظة على القوالب، إلا أنه دون الشعر فى التأثير فى النفوس وفى اللعب بالعواطف ومن المعروف أن ما وصلنا من النثر الجاهلى قليل للغاية، وهذا يرجع إلى(١١):

١- أن العرب فى الجاهلية كانوا فى أغلبهم أميين لا يكادون يقرأون أو يكتبون، فكانوا يعتمدون فى رواية الأدب من نثر وشعر على المشافهة والاستظهار، والذاكرة أقدر على حفظ الشعر وروايته من حفظ النثر وروايته. فإن ما للشعر من أوزان راقصة، ونغمات موسيقية، وقوافى متزاوجة وجرس عذب مثير يعين على استذكاره واستظهاره، والنثر ليس بهذه المثابة، فالنثر إذن يتطلب معرفة الكتابة.

٢- لم يستطع النثر إن أطل برأسه إلى الحياة أن يبارى الشعر فى عهد الجاهلية، وأن يقوى على معالجة الموضوعات التى عالجها الشعر،

فقد كان الشعر ديوان العرب سجلوا فيه حروبهم وأخبارهم وعاداتهم وعقليتهم، ودون فيه الشاعر ما رأى وما شعر، ومزج فيه الحياة التى حوله بمشاعره، وكان الشعر فى الحرب كموسيقى الجيش تثير فى النفوس الميل للقتال وتبعث على الاستبسال، أما موضوعات النثر فلم تك بهذه المثابة فعنى الناس بحفظ الشعر ولم يعنوا بحفظ النثر.

٣- النثر وليد العقل وسعة الثقافة، والشعر وليد الخيال، والأمة فى بادئ أمرها خيالها أكبر من عقلها.

وإذا كان هناك من ينكر وجود نثر فى الجاهلية مثل طه حسين(١٧)، إلا أن مؤيدى وجوده أقوى حجة، إذ يستندون إلى مايلى(١٨):

١- كان عند كثير من الأمم القديمة كالفرس والهنود وقدماء المصريين نثر فنى قبل الميلاد بقرون كثيرة، فلم لا يكون للعرب نثر فنى بعد الميلاد بخمسة قرون؟

٢- نزول القرآن الكريم يوجب الحكم بأن العرب فى جاهليتهم كان لهم نثر فنى، وكانوا يجيدون ويبلغون فيه غاية البيان والفصاحة، وإلا فكيف يتحداهم الله عز وجل بفن من البيان لم يعرفوه؟

٣- بقاء بعض صور من النثر الفنى للعرب الجاهليين فى مصادر الأدب العربى وأمهات كتبه، من خطابة جيدة، ونصائح بليغة، وإن كان الكثير من النثر الجاهلى قد ضاع لعدم تدوينه بالكتابة.

٤- وجود صحائف من الكتب الدينية عن بعض طبقات العرب من اليهود والنصارى ودعاة الحنيفية.

وللنثر أنواع، منه ما يكون قصصا، وما يكون خطابة، وما يكون وسائل أدبية محيرة ويسمى بعض الباحثين النوع الأخير باسم النثر الفنى ويدخل فيه أيضا الحكم والأمثال والوصايا والنصائح:

(أ) القصص: فمن المحقق أنه قد وجدت عند العرب القدامى ألوان مختلفة من القصص وأنهم كانوا يشغفون بها شغفا شديدا، ونحن نعلم ما

للقصة من أهمية تربوية يتشرب الإنسان من خلالها العديد من القيم والاتجاهات والتقاليد، كما قد يستمد منها بعض المعارف والمعلومات. وساعدت العرب على الاهتمام بالقصص أوقات فراغهم الواسعة فى الصحراء، فكانوا حين يرخى الليل سدوله يجتمعون للسمر، وما أن يبدأ أحدهم فى مضرب من مضارب خيامهم مقولة: كان وكان، حتى يرهف الجميع أسماعهم إليه، وقد يشترك بعضهم فى الحديث وشباب الحى وشيخوخه ونساؤه وفتياته المخدرات وراء الأخبية. كل هؤلاء يتابعون الحديث فى شوق ولهفة[١٩] ومن غير شك كان يفيض القصاص على قصصه من خياله وفنه حتى يبهر سامعيه وحتى يملك عليهم قلوبهم.

فلم يكن الشاعر وحده هو الذى تهفو له النفوس وتسمو إليه الأعين عند عرب الجاهلية، بل كان القاص يقوم أيضا مقاما هاما إلى جانب الشاعر فى سمر الليل، بين مضارب الخيام لقبائل البدو المتنقلة، وفى مجالس أهل القرى والحضر[٢٠].

وليست هناك بطبيعة الحال تسجيلات معاصرة لهذه الأقاصيص والمسامرات، ولكن تقييدات قدماء اللغويين والأدباء تعكس لنا روحها وطبيعتها بأمانة ودقة، ولاسيما كتاب الأغانى وما شابهه من كتب الأدب.

وكان القصاص يستمدون قصصهم تارة من الأساطير والخرافات السائرة المتنقلة بين الأمم، وتارة أخرى من الأخبار والأحاديث الخرافية والتاريخية المأثورة من العرب أنفسهم وعمن جاورهم. ويروى أن النضر بن الحارث المكى كان كثيرا ما يعارض النبى ﷺ بحكاية أقاصيص من أساطير بطولة الفرس، إذا أراد النبى أن يعظ قومه ويستميلهم إلى الإسلام بذكر قصص الأولين.

وكانت أحب القصص إلى النفوس أخبار أيام العرب، التى جمعها الأدباء كثيرا فيما بعد، ولاسيما أبو عبيدة، والتى بقيت لنا منها مادة

غزيرة فى شروح نقائض جرير والفرزدق، زيادة على كتاب الأغانى. وفى هذه الأخبار أيضا لم يكن يحفل القاص بالدقة التاريخية كما حفل بعنصر التشويق وتمجيد القبيلة.

وقد يتضح ذلك من الموازنة بين أخبار المؤرخين الرومان والعرب فى قصة (زنوبيا)، فقد جعل العرب من اسم زنوبيا أو زينب ملكة تدمر: الملكة الزباء، ولكن هذا الاسم الأخير مشتق من اسم زبْدى أمير جيوش الملكة، ولعل العرب كانوا أخوف لهذا الأمير من الملكة نفسها، فأطلقوا اسمه عليها هى وصار هو بطل القصة، وذكرت تدمر التى هى مسرح القصة عرضا فقط، ونقلت حوادث القصة إلى مدينتين على الفرات لم تسميا، بل ذكروا أنهما متصلتان بنفق فى حصنيهما وفى البرية بينهما. وقد تولدت قصة هذا النفق من خبراء التاريخ عن نفق فى سور تدمر، قصدت زنوبيا أن تهرب منه عندما فتح أورليانس المدينة، كما أن خبر التاريخ عن موت أذينة زوج زنوبيا فى أثناء الضيافة، نقل إلى قتل عدو الزباء.

وهكذا أفسدت القصة كل أنباء المؤرخين، ولعل مثل هذا وقع فى كثير من الأقاصيص عن أيام العرب.

ويستند باحثون إلى القرآن الكريم ليؤكد وجود القصص عند العرب قبل الإسلام، فمن ذلك(٢١):

١- القرآن الكريم - وهو كلام الخالق سبحانه وتعالى- نزل على العرب لهدايتهم، فلابد إذن أن يكون من عينة كلامهم، وفى نطاق فهمهم وتقبلهم، لأن الكلام عادة يجب أن يتسق مع من يقال له. ولذلك تكرر قول الله سبحانه وتعالى أنه أنزل قرآنا عربيا مبينا، وطالما أن القرآن الكريم كتاب قصصى، فلابد إذن أن يكون أسلوب التعبير القصصى أحد الأساليب المعروفة للعرب والمستخدمة عندهم.

٢- ورد فى القرآن الكريم إشارات إلى قصص دون سردها، أو بدايات لقصص دون إكمالها، الأمر الذى يقطع بضرورة معرفة السامع لها.

وقد يأتى أسلوب الحديث بما يؤكد معرفة المخاطب بالقصة التى يسردها كقوله تعالى ﴿ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود ....﴾ مما يدل على أن الفن القصصى كان معروفا ومتداولا فى الجزيرة العربية قبل الإسلام.

٣- ومما يدل على سبق معرفة العرب لعدد كبير من قصص القرآن الكريم، أنه لم يمض وقت على استكمال نزول القرآن الكريم واشتغال الناس به حتى بدأت عمليات تفسيره بواسطة الصفوة من الصحابة أول الأمر، ثم تخصص له جماعة من العلماء قاموا بجمع تلك القصص التى أشار إليها القرآن الكريم، واعترفت كل التفاسير بهذه القصص التى تضخمت فيما بعد ودخلها كثير مما كان عند اليهود والنصارى ولذلك أطلق عليها اسم الإسرائيليات.

٤- الله سبحانه وتعالى أرسل رسله إلى أقوامهم، وجاء كل منهم بمعجزة تفوق أفضل ما كان عند القوم فى مجالات الثقافة والمعرفة، فموسى جاء مصر وتفوقها فى السحر فكانت معجزته فى مجاله، وعيسى كانت معجزته تفوق علومهم وطبهم، وثمود الذين برعوا فى الزراعة والتدجين جاءهم صالح بمعجزة مناسبة لمجال تفوقهم، والقرآن الكريم هو معجزة العرب فلابد أنه كان من نوع ما تفوقوا فيه وبلغوا قمته[٢٢].

٥- المعجزة لا تظهر إلا بالتحدى، ومثلما تحدى موسى سحرة فرعون، تحدى القرآن فصحاء العرب والتحدى لا يقع إلا فيما يجيده الشخص المدعو للتحدى.

وفيما يلى نسوق مثالا لاحدى قصصهم لما تشير إليه من قيم معينة على الرغم مما تقوم عليه من خرافات، وهى قصة (الحية والفأس)[٢٣]:

"زعموا أن أخوين كان لهما أبل يرعونها، فـأجدبت بلادهما، وكان قريبا منهما واد فيه حية، قد حمته من كل أحد، فقال أحدهما للآخر، يا فلان ... لو أني أتيت هذا الوادي المكلى، فرعيت فيه إبلي وأصلحتها، فقال له أخوه أني أخاف عليك الحية. ألا ترى أن أحدا لم يهبط ذاك الوادي إلا أهلكته؟ قال: فو الله لأهبطنه. فهبط ذلك الوادي، فرعا إبله به زمانا ثم أن الحية لدغته فقتلته. فقال أخوه: ما في الحياة بعد أخي خير، ولأطلبن الحية فأقتلها أو لأتبعن أخي، فهبط الوادي، وطلب الحية ليقتلها، فقالت: ألست ترى أني قتلت أخاك، فهل لك في الصلح، فأدعك بهذا الوادي، فتكون به، وأعطيك ما بقيت دينارا في كل يوم، قال: أفاعلة أنت؟ قالت: نعم. قال: فأني أفعل. فحلف لها وأعطاها المواثيق، لا يضرها. وجعلت تعطيه كل يوم دينارا، فكثر ماله، ونمت إبله حتى كان من أحسن الناس حالا. ثم أنه ذكر أخاه، فقال: كيف ينفعني العيش وأنا أنظر إلى قاتل أخي فلان؟ فعمد إلى فأس فأحدها، ثم قعد لها، فمرت به، فتبعها فضربها فأخطأها، ودخلت الجحر، فرمى الفأس بالحبل فوقع فوق جحرها فأثر فيه. فلما رأت ما فعل، قطعت عنه الدينار الذي كانت تعطيه. ولما رأى ذلك، تخوف شرها وندم، فقال لها: هل لك أن نتواثق (نتعاهد) ونعود إلى ما كنا عليه؟ فقالت: كيف أعاهدك؟ وهذا أثر فأسك وأنت فاجر لا تبالي العهد؟"

وهناك قصص أخرى كانت تدور حول الوقائع الحربية التي وقعت في الجاهلية بين القبائل، كيوم داحس والغبراء، ويوم الفجار، ويوم الكلاب، أو بين بعض العرب وأمم أخرى كيوم ذي قار. وكان بين بني شيبان والفرس، وانتصر فيه العرب وكانت هذه القصص موضوع العرب في سمرهم. ونرى هذه الأيام وأخبارها مجموعة في العقد الفريد وأمثال الميداني، وقد زاد القصاص في بعضها وشوهوا بعض حقائقها، كالذي نراه في أخبارهم التي حكوها في موت الزباء، إذا قارنا بين ما قصوه وما ذكره ثقات المؤرخين عن زنوبيا[٢٢].

(ب) **الخطابة**: والخطابة تحتاج إلى خيال وبلاغة، حتى أن البعض اعتبرها من قبيل الشعر[٢٠] أو هى شعر منثور، وهو شعر منظوم، لكل منهما موقفه: فالخطابة تحتاج إلى الحماسة، ويغلب تأثيرها فى أبناء عصر الفروسية وأصحاب النفوس الأبية طلاب الاستقلال والحرية مما لا يشترط فى الشعر، ولذلك تشابهت جاهلية العرب وجاهلية اليونان من هذا الوجه، لأن كليهما أهل شعر وخطابة وأهل إباء واستقلال. ولذلك كانت الخطابة رائجة عند الرومان مع تأخر الشعر عندهم. ولنفس هذا السبب قصر العبرانيون فى الخطابة مع تقدمهم فى الشعر لغلبة الذل والضعف على طباعهم فتحول خيالهم الشعرى إلى الشكوى والتضرع وانصرفت قرائحهم إلى نظم المراثى والحكم.

وأما العرب، فقد قضى عليهم الأقليم بالحرية والحماسة، وهم ذو نفوس حساسة مثل سائر أهل الخيال الشعرى، فأصبح للبلاغة وقع شديد فى نفوسهم، واقتضت المنازعات بينهم أن يتفاخروا ويتنافروا، فاحتاجوا إلى الخطابة فى الإقناع وتأليف الأحزاب.

وكانوا يحبون الخطيب أن يكون جهير الصوت، ويذمون الضئيل الصوت[٢١]، وأن يكون شديد التأثير فى نفوس سامعيه حتى يسحرهم ويأخذ بألبابهم. وكانوا يجعلون مثل هؤلاء الخطباء ألسنتهم الناطقة إذا تفاخروا أو حضروا المجالس أو تفاوضوا فى أمر أو أرادوا تأجيج نيران الحروب، أو عقد صلح، أو البت فى أمر جلى، ولذلك صارت الخطابة من أمارات المنزلة والمكانة، فصارت فى ساداتهم وأشرافهم الذين يتكلمون باسمهم فى المحافل والمجامع العظام.

وكان الخطباء ينبرون فى الأسواق العظام ينصحون قومهم ويرشدونهم على نحو ما هو معروف عن قس وخطبته بعكاظ. وربما نصح الخطيب عشيرته وقومه (الأقربين) كما نجد فى النص الآتى الذى يظهر أيضا الكثير من المثل التربوية عند العرب، وهو نص

ينسب لهاشم بن عبد مناف، وهو سيد قريش وإمامها وداعيها إلى الخير، وحامى البيت. خطب فى قريش وخزاعة حتى تنافروا إليه، فقال[٢٧]:

"يابنى قصى! أنتم كغصنى شجرة، أيهما كسر أوحش صاحبه، والسيف لا يصان إلا بغمده، ورامى العشيرة يصيبه سهمه.

أيها الناس: الحلم شرف. والصبر ظفر. والمعروف كنز، والجود سؤدد، والجهل سفه، والأيام دول، والدهر غير، والمرء منسوب إلى عقله ومأخوذ بعمله، فاصطنعوا المعروف تكسبوا الحمد، ودعوا الفضول، وتجانبوا السفهاء وأكرموا الجليس يعمر ناديكم، وحاموا عن الخليط يرغب فى جواركم وأنصفوا من أنفسكم يوثق بكم. وعليكم بمكارم الأخلاق، فإنها رفعة. وإياكم والأخلاق الدنيئة فإنها تضع الشرف وتهدم المجد".

أما عبد المطلب بن هاشم القرشى جد الرسول ﷺ، فمن خطبته عند سيف بن ذى يزن، روى أنه لما ظفر سيف بن ذى يزن بالحبشة وأجلاهم عن اليمن أتته وفود العرب للتهنئة، وكان فيهم وفد من قريش، وسيدهم هو عبد المطلب بن هاشم، فلما مثلوا بين يديه قال عبد المطلب: "إن الله تعالى أيها الملك أحلك محلا رفيا، صعبا منيعا، باذخا شامخا، وأنبتك منبتا طابت أرومته، وعزت جرثومته، ونبل أصله، وبسق فرعه، فى أكرم معدن، وأطيب موطن، فأنت - أبيت اللعن - رأس العرب، وربيعها الذى به تخصب وملكها الذى به تنقاد، وعمودها الذى عليه العماد، ومعقلها الذى يلجأ إليه العباد، سلفك خير سلف، وأنت لنا بعدهم خير خلف، ولن يهلك من أنت خلفه، ولن يخمل من أنت سلفه، نحن أيها الملك أهل حرم الله وذمته وسدنة بيته، أشخصنا إليك الذى أبهجنا بكشف الكرب الذى فدحنا، فنحن وفد التهنئة لا وفد المرزئة"[٢٨].

ومن أشهر خطباء الجاهليين (قس بن ساعدة الأيادى)، فقد كان من حكماء العرب، وأعقل من سمع به منهم، وأول من كتب من فلان إلى فلان، وأول من أقر بالبعث عن غير علم، وأول من قال: أما بعد وأول من قال: البينة على من ادعى واليمين على من أنكر[٢٩].

ويقسم الجاحظ خطب العرب إلى قسمين، يشير إليهما بقوله: "واعلم أن جميع خطب العرب من أهل المدر والوبر والبدو والحضر على ضربين منها الطوال، ومنها القصار، ولكل ذلك مكان يليق به وموضع يحسن فيه، ومن الطوال ما يكون مستويا فى الجودة ومتشاكلا فى استواء الصنعة، ومنها ذوات الفقر الحسان والنتف الجياد. ووجدنا عدد القصار أكثر ورواة العلم إلى حفظها أسرع"[٣٠].

ويقول أبو عمر بن العلاء: كان الشاعر فى الجاهلية يقدم على الخطيب لفرط حاجتهم إلى الشعر الذى يقيد عليهم مآثرهم، ويفخم شأنهم ويهول على عدوهم ومن غزاهم، ويهيب من فرسانهم ويخوف من كثرة عددهم، ويهابهم شاعر غيرهم، فيراقب شاعرهم. فلما كثر الشعر والشعراء، واتخذوا الشعر مكسبة ورحلوا إلى السوقة، وتسرعوا إلى أعراض الناس، صار الخطيب عندهم فوق الشاعر[٣١]. هذا وقد تعارف خطباؤهم على جملة من السنن والتقاليد فى خطبهم[٣٢].

(جـ) الأمثال: كلمة المثل من المماثلة، وهو الشىء المثيل لشىء يشبهه، والشىء الذى يضرب لشىء مثلا فيجعل مثله[٣٣] والأصل فيه، التشبيه، ويقابله (مثل) (مشال) Mashal فى العبرانية و Parabole فى اليونانية ومعناها المماثلة والمشابهة، أى المعنى الوارد للفظة فى العربية. والغاية من الاهتداء بما فيه من حكمة ومن حسن توجيه، ومثل أخلاقية للسير على هديها فى الحياة[٣٤].

وللأمثال ميزة على الشعر، ذلك أن الشعر، تعبير طبقة من الناس يعدون فى مستوى أرقى من مستوى العامة، فالشعراء يعبرون عن

شئون القبيلة التى ارتسمت فى أذهانهم الراقية نوعا من الرقى - وهم يعبرون بألفاظ مصقولة صقلا يستوجبه الشعر، أما الأمثال، فكثيرا ما تنبع من أفراد الشعب نفسه وتعبر عن عقلية العامة[30].

وقد وردت كلمة (مثل) و(أمثال) فى مواضع كثيرة من القرآن. وفى ورود الكلمتين بهذه الكثرة دلالة بالطبع على ما كان للمثل من أهمية كبيرة عند الجاهليين، وقد أشاد العلماء بما للأمثال من أهمية فى الحث على إصلاح النفس، فقال بعضهم: "إنما ضرب الله الأمثال فى القرآن تذكيرا ووعظا". وقال بعض آخر: ضرب الأمثال فى القرآن يستفاد منه أمور كثيرة: التذكير، والوعظ، والحث، والزجر، والاعتبار، والتقرير، وتقريب المراد من العقل، وتصويره بصورة المحسوس ... الخ. وروى أن الرسول قال: "أن القرآن نزل على خمسة أوجه: حلال، حرام، ومحكم، ومتشابه، وأمثال، فاعملوا بالحلال، واجتنبوا الحرام، واتبعوا المحكم، وآمنوا بالمتشابه، واعتبروا بالأمثال"[31].

ونجد فى كتب الأمثال وفى كتب الأدب، أمثال وضعت لأغراض مختلفة، يغلب عليها الطابع التربوى، أى تعليم من يقرأها حكمة الحياة، وتجارب الماضى حتى يستفاد ويتعظ. بعض منها نابع من محيط البداوة، ومن الطبيعة الأعرابية، وبعض منها تجارب عملية عامة تنطبق على كل الناس وتصلح لكل الأوقات.

ومن أمثال الجاهلية وبعضها ما زال مستعملا حتى اليوم: إن من البيان لسحرا - أجع كلبك يتبعك - و(سبق السيف العزل) - و(مواعيد عرقوب) يضرب لمن يعد ولا يفى. ومنها (تسمع بالمعيدى خير من أن تراه)، يضرب مثلا لمن خبره خير من مرآه[37].

وبخصوص (مواعيد عرقوب)، يروى البعض قصة هذا المثل بأن عرقوب رجل من العماليق، أتاه أخ له يسأله، فقال له عرقوب: إذا أطلعت هذه النخلة، فلك طلعها، فلما أطلعت أتاه للعدة، فقال: دعها حتى

تصير تمرا، فلما أثمرت عمد إليها عرقوب من الليل فجدّها، ولم يعط أخاه شيئا، فصار مثلا فى الخلف[٣٨].

وقصة عرقوب هذه يمكن أن توجد فى أى وقت، وفى أى مكان فى هذا العالم (ويمكن العثور وبسهولة، على شىء بديل للبلح)، وفى القصة شىء من المبالغة عن طريق التكرار المؤثر فى النفس وعند علماء العرب تفاسير أخرى لقصة عرقوب هذه.

ومن الأمثال: انك لا تجنى من الشوك العنب. هذا المثال الذى يروى لأكثم بن صيفى، حكيم العرب من تميم، وهو يقابل مثله فى العهد الجديد. وتوجد رواية فى كتاب سيرة بن هشام عن ابن اسحاق، نصها: "وزعم ليث بن أبى سليم، أنهم وجدوا حجرا فى الكعبة، قبل مبعث النبى ﷺ بأربعين سنة – إن كان ما ذكر حقا – مكتوبا فيه: من يزرع خيرا يحصد غبطة، ومن يزرع شرا يحصد ندامة، تعملون السيئات، وتجزون الحسنات. أجل كما لا يجتنى من الشوك العنب"[٣٩].

وهذا القول الشائع يراد به الربط بين الأسباب والنتائج، فالإنسان إنما يحصد ما زرع إن كان خيرا فخيرا وإن كان شرا فشرا.

ومن الأمثال: (كل الصيد فى جوف الفرا)، قال ابن السكيت: الفرا الحمار الوحشى وجمعه فراء، وأصله أن ثلاثة نفر خرجوا متصيدين، فاصطاد أحدهم أرنبا، والآخر ظبيا، والثالث حمارا، فاستبشر صاحب الأرنب، وصاحب الظبى بما نالاه وتطاولا عليه، فقال الثالث (كل الصيد فى جوف الفرا)، أى هذا الذى رزقت وظفرت به يشتمل على ما عندكما، وذلك أنه ليس مما يصيده أعظم من الحمار الوحشى، قاله النبى ﷺ لأبى سفيان يتألفه، ويلوح لنا أن المثل قديم، ويضرب لمن يفضل على أقرانه[٤٠].

(د) الوصايا والنصائح: من أمثلتها مـا قالـه (ذو الأصبـع العدوانـى) أحد المعمرين فى الجاهلية لما احتضر، يوصـى ابنه أسيدا:

"يا بنى، إن أباك قد فنى وهو حى، وعاش حتى سـئم العيش، وأنـى موصيك بما إن حفظته، بلغت فى قومـك مـا بلغتـه. ألـن جـانبك لقومـك يحبـوك، وتواضـع لهـم يرفعـوك، وأبسـط لهـم وجهــك، يطيعـوك، ولا تستأثر عليهم بشىء يسودوك وأكرم صغارهم، واسـمح بمـالك، وأعـزز جارك وأعن من استعان بك وأكرم ضيفك، وصـن وجهـك عـن مسـألة أحد شيئا، فبذلك يتم سؤددك"[٤١].

وأوصت أعرابية ولدها فقالت:

أى بنى! إياك والنميمة، فإنها تزرع الضغينــة، وتفـرق بيـن المحبيـن وإياك والتعرض للعيوب، فتتخذ غرضا. وخليق ألا يثبت الغرض علــى كثرة السهام. وقلما اعترضت السهام غرضـا إلا كلمتـه حتـى يهيـئ مـا اشتد من قوته، وإياك والجود بدينك والبخل بمالك. وإذا هززت، فـاهزز كريما يلن لهزتك، ولا تهز لئيما فإن الصخرة لا ينفجر ماؤها[٤٢].

ووصـى أكثم بن صيفى:

كفوا ألسنتكم، فإن مقتل الرجل بين فكيه. إن قول الحـق لـم يـدع لـى صديقا. الصدق منجاة. لاينفع التوقى مما هو واقـع. فـى طلـب المعـالى يكون العنا. الاقتصاد فى السعى أبقى للجمـام. أصبـح عنـد رأس الأمـر أحب إلى من أن أصبح عند ذنبه. لم يهلك مـن مـالك مـا وعظـك. ويـل لعالم أمر من جاهله. لا تجيبوا فيما لا تسألون عنــه، ولا تضحكـوا ممـا لايضحك منه[٤٣].

(هـ) المحاورات: فالمحاورة – إن صح التشبيه – هى مبارزة فكريـة عقلية، لابد للإقدام عليها مـن التسـلح بمهـارات عقليـة رفيعـة المسـتوى كحسن الفهم ودقة التعبير والقدرة على الإتيان بالحجة والبرهان لتدعيـم رأى المتحدث، والقدرة على تفنيد حجج الخصم، ومن ثم فإن سماع هذه

المحاورات والاطلاع عليها هو شكل من أشكال التربية العقلية التى لابد أن يكون لها أثرها فى تنمية الشخصية.

ومن أمثلة المحاورات ما يروى من أنه اجتمع عامر بن الظرب العدوانى وحمحمة بن رافع الدوسى عند ملك من ملوك حمير، فقال: تساءلا حتى أسمع ما تقولانه[٤٤]، فقال عامر بن الظرب لحمحمة ابن رافع: أين يجب أن تكون أياديك؟ قال عند ذى الرثية العديم، وذى الخلة الكريم، والمعسر الغريم، والمستضعف الهضيم، قال: من أحق الناس بالمقت؟ قال: الفقير المختال، والضعيف الصوال، والعيى القوال، قال: فمن أحق بالمنع؟ قال: الحريص الكائد، والمستميح الحاسد، والملحف الواجد. قال: فمن أجدر الناس بالصنيعة؟ من إذا أعطى شكر، وإذا منع عذر، وإذا موطل صبر، وإذا قدم العهد ذكر. قال: من أكرم الناس عشرة؟ قال: من إن قرب منح، وإن بعد مدح، وإن ظلم صفح، وإن ضويق سمح،. قال: من ألأم الناس؟ قال: من إذا سأل خضع، وإذا سئل منع، وإذا ملك كنع، ظاهره خشع، وباطنه طمع، قال: فمن أحلم الناس؟ قال: من عفا إذا قدر، وأجمل إذا انتصر، ولم تطغه عزة الظفر. قال: فمن أحزم الناس؟ قال: من أخذ رقاب الأمور بيديه، وجعل العواقب نصب عينيه، ونبذ التهيب وبرأ من ذنبه. قال: فمن أحذق الناس؟ قال: من ركب الخطار، واعتسف العثار، وأسرع فى البدار قبل الاقتدار. قال فمن أجود الناس؟ قال: من بذل المجهود، ولم يأس على المعهود. قال: فمن أبلغ الناس؟ قال: من جلى المعنى المزيز باللفظ الوجيز، وطبعه المفضل قبل التحزيز. قال: فمن أنعم الناس عيشا؟ قال: من تحلى بالعفاف ورضى بالكفاف، وتجاوز ما يخاف، قال: فمن أشقى الناس؟ قال: من حسد على النعم وتسخط على القسم، واستشعر الندم على فوت ما لم يختم. قال: من أغنى الناس؟ قال: من استشعر الناس، وأبدى التجمل للناس، واستكثر قليل النعم، ولم يسخط على القسم. قال: من أجهل الناس؟ قال: من رأى الخرق مغنما والتجاوز مغرما.

وفـى هـذا الحـوار نـرى الكثـير مـن القيـم التـى اهتمـت بهـا القبيلـة العربية، مثل الكرم والبخل والعفة والقناعة والصـبر والرضـا والبلاغـة والحكمة.

(و) **سجع الكهان**: كانت فى الجاهلية طائفـة تزعـم أنهـا تطلـع علـى الغيب وتعرف ما يأتى به الغد مما يلقى إليها توابعها من الجن، وكـان واحدها يسمى كاهنا كما يسـمى تابعـه الـذى يوحـى إليـه باسم (الرَّئـى) وأكثرهم كان يخدم بيوت أصنامهم وأوثانهم، فكـانت لهـم قداسـة دينيـة، وكـانوا يلجـأون إليهـم فـى كـل شـئونهم، وقـد يتخذونهـم حكامـا فـى خصوماتهم ومنافراتهم علـى نحـو مـا كـان مـن منـافرة هاشـم بـن عبـد مناف، وأمية بن عبد شمس واحتكامهما إلى الكاهن الخزاعى، وقد نفَّر هاشما على أبيه. وكانوا يستشيرونهم ويصدرون عـن آرائهـم فـى كثير من شئونهم كوفاة زوجة أو قتل رجل أو نحر ناقة، أو قعود عن نصـرة أحلاف، أو نهوض لحرب، ففـى أخبـار بنـى أسـد أن حجـرا أبـا امـرئ القيس رقّ لهم، فبعث فى إثرهم فأقبلوا حتى إذا كانوا على مسيرة يـوم من تهامة تكهن كاهنهم، وهو عـوف بـن ربيعـة، فقـال لبنـى أسـد: "يـا عبـادى! قـالوا: لبيـك ربنـا. قـال: مـن الملـك الأصـهب. الغــلاب غـير المغلب، فى الإبل كأنها الرّبرب[٥]، لا يعلق رأسـه الصّخـب، هـذا دمـه ينثعب[٦] وهذا غـدا أول من يُسلب، قالوا: من هو ياربنا؟ قال: لولا أن تجيش نفس جاشية، لأخبرتكم، أنه حُجْر ضـاحيـة، فركبـوا كـل صعـب وذلول فما أشرق لهم النهار حتى أتوا على عسكر حجـر فهجمـوا علـى قبته وقتلوه. وكثيرا ما كانوا ينذرون قبائلهم بوقوع غـزو غير منتظـر، كما كانوا كثيرا ما يفسرون رؤاهم وأحلامهم"[٤٧].

فمنزلة كهانهم فى الجاهلية كانت كبيرة، إذ كانوا يعتقدون أنه يوحـى إليهم، ولعل ذلك ما جعل نفوذ الكاهن يتجاوز قبيلته إلى كثير من القبائل التى تجاورها، ومن ثم كان العرب يقصدون كثيرين منهـم مـن منـاطق بعيدة.

ومما يلاحظ أنهم كانوا يكثرون فى اليمن وفى بيوت عبادتها الوثنية، وخاصة من يتعمقون فى القدم، ولعل ذلك يدل على الصلة القديمة بين وثنية عرب الجنوب وعرب الشمال. وتلقانا فى كتب التاريخ والأدب أسماء كثير منهم، وقد يبالغ القصاص، فيرسمون لبعضهم صورا خيالية. وأكهن العرب وأسجعهم سلمة بن أبى حيّة وهو الذى يقال له: (عزّى سلِمة)، ومن قوله: "والأرض والسماء. والعُقاب والصقعاء، واقعة ببقعاء، لقد نفر المجدُ بنى العُشَراء للمجد والسناء". ونجد بجانب الكهان جماعة الكاهنات. ونحن لا نطمئن إلى ما يروى فى كتب التاريخ والأدب من أقوال جرت على ألسنة الكهان والكاهنات، وهم لم يكونوا يسجعون فقط، بل كانوا يعمدون إلى ألفاظ غامضة كذلك حتى يتركوا فرصة لدى السامعين كى يؤول كل منهم ما يسمعه حسب ظروفه(٤٨).

٢- الطب:

والطب من جملة العلوم التى اشتهر بها الكلدان كهنة بابل، ويقال أنهم أول من بحث فى علاج الأمراض، فكانوا يضعون مرضاهم فى الأزقة ومعابر الطرق حتى إذا مر بهم أحد أصيب بذلك الداء أخبرهم بسبب شفائه فيكتبون ذلك على ألواح يعلقونها فى الهياكل. وعن الكلدانيين أخذ سائر الأمم القديمة، وفى جملتها العرب، وهو متشابه عند الأمم، فى مصر وفينيقية وآشور. وكان لمصر شأن خاص فيه. ثم تناوله اليونان فأتقنوه ورتبوا أبوابه، وعنهم أخذ الرومان والفرس. ونظرا لمعاصرة العرب لهذه الدول، فقد اقتبسوا شيئا من طبها أضافوه إلى ما جاءهم به الكلدان، وإلى ما استنبطوه من عند أنفسهم بالاختبار، فتألف من ذلك ما عبرنا عنه بالطب فى الجاهلية(٤٩).

وكان الطب فى ذلك الزمان، شرف، فللطبيب مكانة كبيرة عند الجاهليين قال (المرتضى) فى حديثه عن زهير بن جناب: "كان سيد قومه، وشريفهم، وخطيبهم وشاعرهم، ووافدهم إلى الملوك، وطبيبهم

والطب شرف، وجازى قومه، والحزاة الكهان)[٥٠]. فهو قد جمع خلالا كثيرة وفى جملتها الطب والكهانة ولم تكن معارفهم الطبية (على طريق تعلم الحقائق ولا على سبيل التدريب فى العلوم)[٥١]. وإنما توسلوا إلى معظمها بالخبرة والتجربة وكان ينتشر بينهم فى تضاعيف ذلك، كثير من الخرافات، كل إيمانهم بأن دم السادة يشفى من الكلب، وأن عظام الميت تشفى من الجنون، وأن روحا شريرة تحل فى المريض، ومن هنا جاء قول ابن خلدون "للبادية ... طب يبنونه فى غالب الأمر على تجربة قاصرة على بعض الأشخاص متوارثة عن مشايخ الحى وعجائزه وربما يصح منه البعض، إلا أنه ليس على قانون طبيعى، ولا على موافقة المزاج. وكان عند العرب من هذا طب كثير"[٥٢]

وطب مثل هذا، لا يمكن أن يأتى بنتائج إيجابية فى معالجة الأمراض الصعبة العسيرة وفى حالات مرضية مهمة جدا فى نظر بعض الناس ولا سيما مشايخ القبائل، كالعقم وتقوية الشهوة الجنسية، ولهذا كانوا يلجأون إلى أطباء الحضر. وقد أدرك الرهبان والمبشرون أثر هذه الحالات المرضية، ولاسيما الأمراض النفسية منها فى نفوس أولئك الرؤساء، وجلهم ممن درس الطب، وقرأ الكتب المؤلفة فيه، ومارسه عمليا، فذهبوا بأنفسهم إلى القبائل للتبشير، وعالجوا الرؤساء معالجة نفسانية فى الغالب، وأثروا فيهم، ونجحوا فى مثل هذه الحالات فى كسب عطفهم عليهم وتأيدهم لهم.

وكان التطبيب بالرقى شائعا فى الأمم القديمة كلها، وقد وجدوا فى الآثار المصرية كثيرا من العزائم التى كانوا يصفونها لمعالجة المرضى، فعلى هذه الكيفية كان العرب يتلون العزائم لأصنامهم ويرقون لإخراج الجان أو الشياطين. وكان اعتقادهم من هذا القبيل أنهم إذا خافوا وباء نهقوا نهيق الحمير، ويزعمون أن ذلك يمنعهم من الوباء، وأن شراب دماء الملوك يشفى من الخبل.

وأما معالجتهم بالعقاقير فشبيهة بما كان عند المصريين وغيرهم من الأمم القديمة، فقط كانوا يعالجون بالعقاقير البسيطة أو الأشربة، وخصوصا العسل، فإنه كان قاعدة العلاج فى أمراض البطن. على أن اعتمادهم فى معالجة الأمراض كان معظمه عائدا إلى الجراحة كالحجامة والكى. ومن أقوالهم (كل داء يحسم بالكى آخر الأمر.. وآخر الطب الكى). وكثيرا ما كانوا يعالجون بالقطع والبتر، والغالب أن يكون ذلك بالنار، فإن النار عندهم كانت تقوم مقام مضادات الفساد عندنا، فإذا أرادوا فصل عضو حموا شفرة بالنار وقطعوه بها كما فعلوا بصخر بن عمرو أخى الخنساء لما نتأت قطعة من جوفه مثل الكبد على أثر طعنة، فأحموا له شفرة وقطعوها[٥٣].

وكانوا يعالجون الحول فى البصر بإدامة النظر إلى حجر الرحى فى دورانه، ويزعمون أن العين تستقيم به. ومن معالجتهم التى نعدها اليوم خرافة أن المجروح إذا شرب الماء مات، وإذا خافت المرأة حتى برد قلبها سقوها ماءا حارا.

وكان الأطباء فى أول الأمر من الكهنة، ثم تعاطى الطب جماعة العرب ممن خالطوا الروم والفرس، وأخذوا الطب عنهم، فاشتهروا بهذه الصناعة وأكثرهم من أهل النهضة الأخيرة قبل الإسلام حوالى القرن السادس للميلاد، على أن بعضهم أقدم من ذلك كثيرا، وأقدم أطبائهم لقمان وهو حكيمهم وفيلسوفهم، وفى أصله وزمن وجوده اختلاف. يليه رجل من تيم الرباب يقال له ابن حزيم، ويضربون به المثل بالحذق فى الطب، فيقولون لمن أرادوا وصفه بذلك: (أطب من ابن حزيم)، وفيه يقول أوس بن حجر[٥٤]:

فهل لكم فيهـــا إلى فإننى   بصير بما أعيا النطاسى حزيما

فضلا عن الحارث من كلده

وأكثر هؤلاء الأطباء ثقفوا الطب من بلاد الفرس والروم، وبعضهم أخذه عن الكهان أو الأحبار من الأديار ونحوها، وربما أخذوا عنهم

شيئا من الفلسفة القديمة كما فع نضر المذكور. والظاهر أن بعضهم كان يخصص نفسه للأعمال ال احية فيغلب عليه لقب جراح، وأشهر جراحى الجاهلية ابن أبى روم التميمى المتقدم ذكره، فقد كان جراحا مزاولا لأعمال اليد.

ويؤخذ مما حوته اللغة ا بية قبل الإسلام من أسماء العلل والأمراض والعقاقير، أن العرب عرفوا كثيرا من الأمراض ومعالجتها (مع أهمية ألا نبالغ فى معرفتهم بالطب) وناهيك بما عرفوه وتوسعوا فيه من أحوال الأعضاء وأوصافها، وهو من قبيل علم التشريح، وهم يعبرون عنه بخلق الإنسان، وقد ألف أدباء المسلمين كتبا كثيرة فى هذا الموضوع نقلا عن العرب القدامى، والمتأمل فيما حوته من أسماء الأعضاء وأوصافها يتبين له أن أولئك الجاهليين كانوا على معرفة بتشريح الأعضاء لأن عندهم لكل عضو إسما ووصفا من الرأس وما يتركب منه وما له من الصفات، إلى الشعر وأقسامه وألوانه، فالأذن وما تركبت منه وأقسامها، فالوجه وما تركب منه، فالحاجب وأنواعه وما يحمد منه وما يذم، والعين وأوصافها وطبقاتها ومجارى دمعها، وغير ذلك مما اشتملت عليه، والأنف وما تركب منه والأسنان وعددها وأسماء أصنافها وأجزائها ومنابتها واللسان وما اشتمل عليه من الأجزاء والعظام التى فى أسفله، والحلق وبيان ما فيه من الغاديد، والحنجرة والغلصمة والبلعوم والحلقوم. واللحيين، وبيان محلهما وأسماء ما تركب منه. واللحية وأسماء أجزائها وأقسامها وألوانها وسائر أوصافها. والعنق وما تركب منه، والمنكب والكتف وما اشتملا عليه، واليد وما تركبت منه من العظام والأعصاب والعضلات والعروق، وما وضع لذلك من الأسماء، والأصابع وأسماؤها وأجزاؤها. والظفر وأقسامه وأسماؤه، والصدر وما تركب منه، والجنبان وعدد أضلاعهما، وأسمائها، وما يلحق ذلك. والبطن وما حوى، وكذلك سائر الأعضاء. وقد توسعوا فى بعضها حتى وضعوا لكل عضو عدة أسماء، وتجد نتفا من الطب الجاهلى فى العقد الفريد، والأغانى والكشكول،

وحياة الحيوان وسواها من كتب الأدب وغيرها، ويستخرج شىء كثير من أشعارهم(٥٥).

وعندما وفد الحارث بن كلدة على كسرى أنوشروان وذكر أنه طبيب عربى، سأل كسرى فى استنكار شديد: فما تصنع العرب بطبيب مع جهلها، وضعف عقولها، وسوء تغذيتها؟ فأجابه الحارث برد مفحم عندما قال:

"أيها الملك، إذا كانت هذه صفتها، كانت أحوج إلى من يصلح جهلها، ويقيم عوجها ويسوس أبدانها، ويعدل(٥٦) أمشاجها(٥٧). فإن العاقل يعرف ذلك من نفسه، ويميز موضع دائه ويحترز(٥٨) عن الأدواء كلها يحسن سياسته لنفسه"(٥٩).

ولما كان التطبيب بالرقى شائعا أصبح تعلمه قاصرا فى فئات معينة تحرص على عدم إشاعة تعليمه حتى يظل لها مركزها وتحتفظ بمصالحها.

وليس فى الموارد المتوافرة لدينا ما يدل على إقدام الأطباء الجاهليين على التشريح للإستفادة منه فى زيادة عملهم بالطب. وقد كانت شعوب الشرق الأدنى تنفر من تشريح الإنسان وتعده إهانة للمتوفى، وعملا مخالفا لأحكام الدين، ولذلك نهت عنه. والجاهليون لا يختلفون من هذه الناحية عن غيرهم، إن لم يزيدوا عليهم فى هذه الأمور التى يعدونها حرمة وكرامة للإنسان. وتشريح الميت وتقطيع بعض أجزاء جسمه اعتداء على حرمة الميت، وإهانة له ولأهله الأحياء ... ولهذا لا نطمع فى الحصول على موارد قد تفيد بوجود خبرة علمية عند الأطباء الجاهليين ناتجة من تجاربهم وبحوثهم التى حصلوا عليها من التشريح(٦٠).

ومن أهم معارفهم الطبية، معارفهم البيطرية، وخاصة فيما اتصل بالخيل والإبل، وقد تحدثوا طويلا عن حيواناتهم وخصائصها حديثا، بل أحاديث أفاد منها الجاحظ فى حيوانه، وهو يعلق على ذلك بقوله:

"وإنما اعتمد فى مثل هذا على ما عند الأعراب، وإن كانوا لم يعرفوا شكل ما احتاج إليه منها من جهة العناية والفلاية[11]، ولا من جهة التذاكر والتكسب. ولكن هذه الأجناس الكثيرة ما كان منها سبعا أو بهيمية أو مشترك الخلق. فإنما هى مبثوثة فى بلاد الوحش من صحراء أو واد أو غائط أو غيضة أو رملة أو رأس جبل، وهى فى منازلهم ومناشئهم فقد نزلوا كما ترى بينها وأقاموا معها .. وربما بل كثيرا ما يبتلون بالناب والمخلب وباللدغ واللسع والعض والأكل فخرجت بهم الحاجة إلى تعرف حال الجانى والجارح والقاتل وحال المجنى عليه والمجروح والمقتول، وكيف الطلب والهرب، وكيف الداء والدواء لطول الحاجة ولطول وقوع البصر، مع ما يتوارثونه من المعرفة بالداء والدواء"[12].

ومن أحدث أطباء الجاهلية (الحارث بن كلدة) توفى عام ١٣هـ، وهو من بنى ثقيف من أهل الطائف، رحل إلى أرض فارس وتعلم الطب فى جنديسابور وتعاطى صناعة الطب هناك، واكتسب مالا ثم عاد إلى بلاده، وأقام بالطائف ونال شهرة واسعة وأدرك الإسلام[13].

ومن النصوص التعليمية الطبية الهامة التى تنسب للحارث، وصية وصى بها ابنه الذى أصبح هو الآخر طبيبا معروفا، وهو (النضر) يقول فيها: "يا بنى! عود نفسك الأثرة ومجاهدة الشهوة، ولا تنهش السباع، ولا تخضم خضم البراذين، ولا تدمن الأكل إدمان النعاج، ولا تلقم لقم الحمال، إن الله جعلك إنسانا، فلا تجعل نفسك بهيمة، واحذر سرعة الكظة وسرعة البطنة". ومن حكمه: "لا تنكحوا من النساء إلا الشابة، ولا تأكلوا من الحيوان إلا الفتى، ولا من الفاكهة إلا النضج"[14].

٣- المعارف الفلكية:

ومعارفنا برصيد العرب القدامى فى الثقافة الفلكية قليلة ضحلة، وهى مبعثرة فى كتب اللغة والأدب وفروع المعرفة الأخرى، ولم يصل

إلينا شيء منها، فى نصوص المسند، غير أن ما نجده فى المؤلفات المذكورة، على قلته وضآلته، يدل على أن الجاهليين كانوا أصحاب عناية ودراية بالمعلومات الفلكية، وأنهم كانوا على علم أو شيء من العلم بها عن غيرهم، مثل أهل العراق وأهل بلاد الشام. ولعلهم كانوا على اتصال مباشر أو بالواسطة بعلم اليونان واللاتين الفلكى. وعدم وصول شيء – فى كتاب المسند – من علم النجوم والأنواء وما يتعلق بعلم الفلك لا يمكن أن يكون دليلا بالطبع على عدم وجود علم لأهل العربية الجنوبية الجاهليين بالفلك، ولا يعقل ألا يكون لهم علم به، بحكم ظروف بيئتهم، وفى ذلك يقول الجاحظ:

"وعرفوا الأنواء ونجوم الاهتداء لأن من كان بالصحاصح الأماليس[٦٥]– حيث لا إمارة ولا هادى مع حاجته إلى بعد الشقة، مضطر إلى التماس ما ينجيه ويؤديه[٦٦]، ولحاجته إلى الغيث وفراره من الجدب، وضنه بالحياة، اضطرته الحاجة إلى تعرف شأن الغيث، ولأنه فى كل حال يرى السماء وما يجرى فيها من كوكب، ويرى التعاقب بينها والنجوم الثوابت فيها مجتمعا وما يسير منها مجتمعا وما يسير منها فاردا[٦٧] وما يكون منها راجعا مستقيما. وسئلت إعرابية فقيل لها: أتعرفين النجوم؟ قالت: سبحان الله! أما أعرف أشباحا وقوفا علىّ كل ليلة؟ ووصف أعرابى لبعض أهل الحاضرة نجوم الأنواء ونجوم الاهتداء ونجوم ساعات الليل والسعود والنحوس فقال قائل لشيخ عِبادى كان حاضرا: أما ترى هذا الأعرابى يعرف من النجوم ما لا نعرف؟ قال: من لا يعرف أجذاع[٦٨] بيته"[٦٩].

ويراد بالأنواء عندهم، ما يقابل علم الظواهر الجوية عندنا مما يتعلق بالمطر والرياح ولكنهم كانوا ينسبون ذلك إلى طلوع بعض الكواكب وغروبها[٧٠]. لذلك كان علم الأنواء فرعا من علم النجوم، وكانوا يسمون طلوع المنزلة، نوْءا أى نهوضها. وسموا تأثير الطلوع بارحا وتأثير السقوط نوءا.

ومن طلوع كل واحدة منها إلى طلوع التى تليها ثلاثة عشر يوما سوى الجبهة، فإن بين طلوعها وطلوع التى تليها ١٤ يوما.

ثم اختلفوا فيها، فزعم بعضهم أن كل تأثير يكون بعد طلوع منزلة إلى طلوع التى تليها فهو منسوب إليها. وزعم آخرون أن لطلوع كل واحدة وسقوطها مقدار من الزمن ينسب إليها ما يكون فيه، فإذا انقضت تلك المدة لم ينسب إليها ما يكون بعدها. وكانوا إذا تحقق التأثير فلم يظهر منه شىء فى تلك الأزمنة قالوا: خوى النجم، أو خوت المنزلة، يعنون بذلك أنه مضت مدة نوء ولم يكن فيه مطر أو حر أو برد أو ريح؟ ومن أمثالهم (أخطأ نوؤك) يضرب لمن طلب حاجة فلم يقدر عليها.

وكانوا إذا أمطرت السماء نسبوا المطر إلى تأثير النجم المتسلط فى ذلك الوقت، فيقولون مثلا مطرنا بنوء المجرة أو هذا نوء الخريف ومطرنا بالشعرى، وقالوا: أن النوء سقوط نجم ينزل فى المغرب مع الفجر وطلوع رقيبه فى الشرق من أنجم المنازل، ولذلك كانت الأنواء ٢٨ نوءا أو نجما، كانوا يعتقدون أنها هى علة الأمطار والرياح والحر والبرد[٧١].

وكان عندهم لمطلع كل كوكب أو منزل وصف يدل على تأثير ذلك فى الطقس على اعتقادهم، ومن هذا القبيل اعتقادهم تأثير النجوم فى أعمال البشر على ما كان عند الكلدان. على أنهم كثيرا ما كانوا يستدلون على المطر أيضا بألوان الغيوم وأشكالها فأقل الغيوم مطرا عندهم البيضاء ثم الحمراء ثم السوداء، ومن أقوالهم (السحابة البيضاء حفل والحمراء عارض والسوداء هطلة).

وكان العرب فى حاجة إلى معرفة مهاب الرياح للاهتداء فى أسفارهم، ولذلك فقد وضعوا لها الأسماء، ولكنهم اختلفوا فى عدد جهاتها فحسبها بعضهم ستة والبعض الآخر أربعة، فهى عند أصحاب القول الثانى: ١- مهب الصبا من الشمال ٢- مهب الشمال من الغرب

٣- مهب الدبور من الجنوب ٤- مهب الجنوب من المشرق. ويزيد عليها أصحاب القول الأول النكباء بجانب الشمال والمحوة بجانب الجنوب[٧٢].

وفى أشعارهم أمثلة كثيرة تدل على علاقة أحوال الجو أو فصول السنة باقترانات الكواكب أو طلوعها. وقد نظموها شعرا ليسهل حفظها على الناس لقلة الكتابة عندهم، ومن ذلك قولهم:

إذا ما قارن القمر الثريا ... لثالثة فقد ذهب الشتاء

وقول الآخر:

إذا ما البدر تم مع الثريا ... أتاك البرد أوله الشتاء[٧٣].

ولعل كثرة ما ورد بالقرآن الكريم خاصا ببعض الجوانب الفلكية يؤكد اهتمام الجاهليين بها، من ذلك إشارة القرآن إلى أن معرفة النجوم تساعد على الاهتداء بها فى السير ﴿وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر﴾[٧٤]، وسار أهل الجاهلية مثل غيرهم على فكرة تقسيم السماء إلى (بروج)، وفى هذا قال القرآن: ﴿ولقد جعلنا فى السماء بروجا﴾[٧٥] وكذلك:﴿والسماء ذات البروج﴾[٧٦]. وذكر العرب أن القمر يأخذ كل ليلة فى منزل من المنازل حتى يصير هلالا. وقد أشير إلى ذلك القرآن الذى قال: ﴿والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم﴾[٧٧].

٤- التاريخ:

وقد عرف التاريخ عند الجاهليين، بدليل عثور الباحثين على نصوص كثيرة مؤرخة. وقد زعم علماء اللغة "أن التأريخ الذى يؤرخه الناس ليس بعربى محض، وأن المسلمين أخذوه من أهل الكتاب"[٧٨] وفى كلامهم صحة، إذا كان قصدهم التاريخ العام للعالم الذى يبدأ وفقا لما جاء عند أهل الكتاب من الخلق وظهور آدم. فالأنبياء والرسل والملوك إلى أيامهم. وفيه خطأ، إذا قصدوا به التاريخ مطلقا، أى تثبيت الوقت، على نحو ما نفهم من قولنا، أرخت الحادث، وأرخت الكتاب، فقد عرف التاريخ عند الجاهليين بدليل وروده فى نصوصهم[٧٩].

وكان العرب يؤرخون بكل عام فيه أمر مشهور، وأشهر الحوادث التى وصلت إلينا أخبارها مما أرخوا بها عام الفيل، أى هجوم الأحباش على مكة، وكان ذلك سنة ٣٨ من ملك كسرى أنوشروان، وأرخت قريشا لموت هشام بن المغيرة المخزومى. وكان عندهم تاريخ يسمى (زمن العظحل) وهو أقدم أزمنتهم، وفيه أقوال لا محل لها هنا.

وكانت سنتها قمرية وأشهرها ١٢ شهرا كما هى الآن، وكانوا يكبسون، أى يزيدون أياما كل سنة حتى تبقى النسبة محفوظة بين شهورهم وتوالى الفصول، ولهم فى الكبس طريقة خاصة، أشار إليها البيرونى فقال: "وكذلك كانت العرب تفعل فى جاهليتها فينظرون إلى فضل ما بين سنتهم وسنة الشمس وهى عشرة أيام واحدى وعشرون ساعة وخمس ساعة بالجليل من الحساب، فيلحقون بها شهرا كلما تم منها ما يستوفى أيام شهر، ولكنهم كانوا يعملون على أنه عشرة أيام وعشرون ساعة، وتتولى ذلك النسأة من كنانة المعروفون بالقلامس، وأحدهم قلمس وهو البحر الغزير. وهم أبو ثامة جنادة بن عوف ابن أمية بن قلع بن عباد بن قلع بن حذيفة، وكانوا كلهم نسأة. وأول من فعل ذلك منهم كان حذيفة، وهو ابن عبد فقيم بن عدى بن عامر ابن ثعلبة بن مالك بن كنانة وآخر من فعله أبو ثمامة''.

"وكان أخذ ذلك من اليهود قبل ظهور الإسلام بقريب من مائتى سنة، غير أنهم كانوا يكبسون كل أربع وعشرين سنة قمرية بتسعة أشهر ... فكانت شهورهم ثابتة مع الأزمنة جارية على سنة واحدة لا تتأخر عن أوقاتها ولا تتقدم، إلى أن حج النبى ﷺ حجة الوداع وأنزل عليه ﴿إنما النسئ زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما﴾ فخطب ﷺ وقال: "أن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض''، وتلا عليهم الآية فى تحريم النسئ وهو الكبس، فأهملوه وزادت شهورهم عما كانت عليه وصارت أسماؤها غير مؤدية لمعانيها''.

وكان لعرب الجاهلية أشهر تعرف بأسماء غيرها اليوم، فيقولون أنه كان لهم أشهر هذه أسماؤها: المؤتمر، ناجر، اخوان، صوان، حنتم، زباء، الأصم، العادل، النافق، الواغل، الهواع، البرك،. وكان لأيام الأسبوع أسماء غير المعروفة الآن وهى: أول، أهون، جبار، دبار، مؤنس، عروبة، شبار. وعندهم لكل ساعة من ساعات النهار اسم، وكذلك لأيام الشهر وغيره(٨٠).

ونجد أخبار ذلك مفرقة فى كتاب الآثار الباقية للبيرونى، وفى الأغانى، والعقد الفريد، والكشكول، وأمثال الميدانى، وغيرها من كتب الأدب، وفى مروج الذهب للمسعودى، وابن خلدون، وأبى الفداء، وغيرها.

وقد عرف الجاحظ أن الجاهليين كانوا يؤرخون، إذ قال: "وكانوا يجعلون الكتاب حفرا فى الصخور ونقشا فى الحجارة، وخلقة مركبة فى البنيان، فربما كان الكتاب هو الناتئ، وربما كان الكتاب هو الحفر، إذا كان تأريخا لأمر جسيم، أو عهدا لأمر عظيم، أو موعظة يرتجى نفعها، أو إحياء شرف يريدون تخليد ذكره ... كما كتبوا على قبة غمدان(٨١) .. وعلى عمود مأرب وعلى ركن المشعر، وعلى الأبلق الفرد(٨٢).... يعمدون إلى الأماكن المشهورة، والمواضع المذكورة، فيضعون الخط فى أبعد المواضع من الدثور، وأمنعها من الدروس وأجدر أن يراها من مر بها، ولا تنسى على وجه الدهر"(٨٣).

ثم تعرض لأهمية الكتب ولشأنها فى تخليد الذكرى فقال:
"والكتب بذلك أولى من بنيان الحجارة وحيطان المدر، لأن من شأن الملوك أن يطمسوا على آثار من قبلهم، وأن يميتوا ذكر أعدائهم، فقد هدموا بذلك السبب (أكثر) المدن وأكثر الحصون، كذلك كانوا أيام العجم وأيام الجاهلية، وعلى ذلك هم فى أيام الإسلام، كما هدم عثمان

صومعة غمدان، وكما هدم الأطام التى كان بالمدينة، وكما هدم زياد كل قصر ومصنع كان لابن عامر ..''[٨٤].

وفى القرآن الكريم والشعر الجاهلى وكتب الأخبار كثير من النصوص التى تعرفنا شيئا من معرفة أهل الجاهلية بأخبار الأمم الماضية وبخاصة أخبار عرب الجزيرة من ملوك اليمن وحضرموت ومدائن صالح وشبه جزيرة سيناء والأحقاف وعرب العراق، والشام وقصص الأنبياء والرسل وتواريخ الأمم والشعوب. وقد قص القرآن من هذه المعلومات وفصل فى أخبارها وأحوالها وحضاراتها وغيرها[٨٥].

وليس غريبا أن يكون العرب رواة حفاظا، لأنهم كانوا أميين يعتمدون على حافظتهم، وكانوا – إلى ذلك – قليلى الأعمال، يجيدون السمر والحديث، فردوا أخبار كثيرة اعتمد عليها المؤرخون فى عصر التدوين، ولم يقتصروا فيما رووه على أخبار العرب بل رووا الكثير من أخبار الأمم المجاورة لهم، فمن سكن مكة أحاط بأخبار العاربة وأخبار أهل الكتاب والأمم التى كانت قريش تتجر معها، ومن سكن الحيرة، خبر بأخبار العجم، لمجاورته لهم، وأخبار حمير. ومن سكن الشام خبر بأخبار الروم واليونان، ومن سكن البحرين وعمان، خبر بأخبار السند وفارس، ومن سكن اليمن أخبر بأخبار أمم كثيرة[٨٦].

ولكن ما ورد من هذه الأخبار، لم يسلم من الدس والتحريف والمبالغات كما حدث لغيرهم من الأمم، إلا من تضافرت الروايات على صدقه، كقصة الفيل ونحوها.

كذلك كان عرب الجاهلية من أحفظ الأمم وأشدها عناية بحفظ أنسابهم لأنها مناط فخرهم وعزهم ومدار منافراتهم وهم إليها محتاجون فى حروبهم للتناصر والتساند فكان أحدهم إذا سئل عن نسبه، ذكر عددا كبيرا من أبائه، وكان فى كل قبيلة نسابة يعرف من أنساب العرب وقبائلهم وبطونهم وأفخاذهم ومفاخرهم ومثالبهم، وأيامهم ووقائعهم ما

يستوجب العجب والدهشة، ويستطيع أن يلحق الفرع بأصله وينفى عن القبيلة ما ليس من أبنائها(٨٧).

٥- الجغرافيا:

وكان للعرب فى جاهليتهم رحلات وأسفار برية وبحرية يقوم بها الحجازيون واليمانيون. وقد كانت رحلاتهم البرية تبدأ من اليمن إلى الشمال فمشارف الشام ووادى الكنانة وديار الرافدين(٨٨)، ولا غرو فى أنهم كانوا يعرفون دروب هذه البلاد وطرقاتها، كما كانوا يعرفون المعلومات الضرورية عن أحوال البلاد التى يزورونها. وبدل سفر المسلمين حين ضاق عليهم الأمر فى مكة أول الدعوة الإسلامية، على أن الصلات كانت طيبة بين الجزيرة العربية وبلاد الحبشة النصرانية، وأن هناك روابط تجارية كانت تربط بين البلدين، ثم إن هذه الرحلات البحرية تقضى بأن يكون أصحابها عارفين بأحوال البحر مطلعين على أمور الملاحة.

٦- الكهانة والعرافة:

هما لفظان لمعنى واحد، وفرق بعضهم بينهما، فقال: الكهانة مختصة بالأمور المستقبلة، والعرافة بالأمور الماضية. وعلى كل حال، فالمراد بهما، التنبؤ واستطلاع الغيب. على أن العرب كانوا يعتقدون فى الكاهن، القدرة على كل شىء، فكانوا يستشيرونه فى حوائجهم ويتقاضون إليه فى خصوماتهم ويستفتونه فيما أشكل عليهم، ويستفسرون منه عن رؤاهم، ويستنبئونه عن مستقبلهم، وبالجملة، فالكهان عندهم أهل العلم والفلسفة والطب والقضاء والدين. والكهانة من العلوم الدخيلة على العرب، جاءتهم من بعض الأمم المجاورة لهم وخاصة من الكلدانيين(٨٩).

وكان للكهان عند العرب لغة خاصة تمتاز بتسجيع خصوصى يعرف بسجع الكهان. وقد اختلط الأمر على بعض قريش فى أول نزول الذكر الحكيم، فقرنوه بسجع كهنتهم(٩٠)، ورد عليهم القرآن الكريم بمثل قوله عز وجل: ﴿ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون﴾(٩١). وقال سبحانه

وتعالى: ﴿فذكر، فما أنت بنعمة ربك بكاهن﴾[٩٢] ومن أشهر الكهان: سطيح الذئبى، وطريفة الخير. ومن أشهر العرافين: الأبلق الأسدى، عراف نجد، ورباح بن عجلة، عراف اليمامة[٩٣].

٧- الفراسة والقيافة:

والفراسة هى الاستدلال بالأمور الظاهرة على الخفية، كالاستدلال بشكل المرء ولونه وقوله على خلقه، وللعقل فيها نصيب كبير. ويحكى أن أولاد نزار: مضر وربيعة، وإيادا، وأنمارا، ساروا إلى الأفعى الجرهمى ليحكم بينهم فى ميراث فرأوا كلأ مرعيا، فقال مضر: أن البعير الذى رعاه أعور، وقال ربيعة: هو أزور، وقال أياد: هو أبتر، وقال أنمار: هو شرود، فصافحهم صاحبه فسألهم عنه فوصفوه له فتعلق بهم وسألهم إياه فأقسموا ما رأوه، فقال: كيف وقد وصفتموه؟ قال مضر: رأيته يرعى جانبا دون جانب فعرفت أنه أعور: وقال ربيعة: رأيت إحدى يديه ثابتة الأثر والأخرى فاسدة الأثر فعرفت أنه أزور. وقال إياد: رأيت بعره مجتمعا فعرفت أنه أبتر. وقال أنمار: رأيته يرعى المكان الملتف ثم يجوز إلى غيره فعرفت أنه شرود، فقال له الجرهمى: اطلب بعيرك من غيرهم[٩٤].

والقيافة قسمان: قيافة الأثر وهى الاهتداء إلى الهارب بآثار أقدامه، وقيافة البشر، وهى الاستدلال بهيئة الرجل وشكل أعضائه على نسبه[٩٥].

وقد اشتهر بنو لهب بالقيافة، وكذلك بنو مدلج، كما اشتهروا أيضا بالزجر، وهو الاستدلال بصوت الحيوان وحركته على الحوادث، وكانوا يتفاءلون بالطير الذى يمر من ميامن الإنسان، ويتشاءمون بالطير الذى يمر من مياسره، ويسمون الأول سانحا، والثانى بارحا، فيقول النابغة:

زعم العواذل أن رحلتنا غدا ... وبذاك خبرنا الغراب الأسود

وفى بنى لهب، يقول الشاعر:

خبير بنو لهب فلا تك ملغيا ... مقالة لهبى إذا الطير مرت

هوامش الفصل السادس

١- على الجندى، ص١١٢.
٢- المرجع السابق، ص١١٣.
٣- تاريخ اليعقوبى، جـ١، ص٣٠٤.
٤- محمد خفاجى، الحياة الأدبية، ص١٦٥.
٥- مقدمة ابن خلدون، ص٤٨٦.
٦- فجر الإسلام، ص٥٥.
٧- لسان العرب.
٨- شوقى ضيف، (العصر الجاهلى)، ص١٨٣.
٩- المرجع السابق، ص ١٨٤.
١٠- خفاجى، الحياة الأدبية، ص ١٧٠-١٧١.
١١- ابن خلكان، وفيات الأعيان، وأنباء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٩، جـ٢، ص٢١.
١٢- جورجى زيدان، العرب قبل الإسلام، ص٣٠.
١٣- أحمد الحوفى، ص١٤٢.
١٤- شوقى ضيف، ص١٤٢.
١٥- فيليب حتى، تاريخ العرب، جـ١، ص ١٣١.
١٦- قصة الأدب فى الحجاز فى العصر الجاهلى، ص٢٤٣.
١٧- طه حسين، فى الأدب الجاهلى، ص٣٢٧.
١٨- قصة الأدب فى الحجاز، ص٢٤٦.
١٩- شوقى ضيف، العصر الجاهلى، ص٣٩٩.
٢٠- بروكلمان، تاريخ الأدب العربى، جـ١، ص١٢٨.
٢١- محمود ذهنى، أدب العرب قبل الإسلام، مطبوعات جامعة الزقازيق، الزقازيق، ١٩٨٥، ص٨٢.
٢٢- المرجع السابق، ص٨٣.
٢٣- شوقى ضيف، ص٤٠٢-٤٠٣.
٢٤- فجر الإسلام، ص٦٧.
٢٥- جورجى زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، دار الهلال، القاهرة، ١٩٥٧، جـ١، ص١٨٨.
٢٦- المفصل، جـ٨، ص٧٧٢.
٢٧- عن: خفاجى، الحياة الأدبية، ص١٤٢-١٤٣.
٢٨- قصة الأدب فى الحجاز، ص٣٠٧.
٢٩- المرجع السابق، ص٣٠٨.
٣٠- البيان والتبيين، جـ٢، ص٧.
٣١- المرجع السابق، جـ١، ص٢٤١.
٣٢- المرجع السابق، جـ٣، ص٧.

٣٣- لسان العرب، جـ١١، ص٦١٠ وما بعدها (مثل).
٣٤- المفصل، جـ٨، ص٣٥٤.
٣٥- فجر الإسلام، ص ٦٠.
٣٦- السيوطى، الإتقان فى علوم القرآن، جـ٤، ص٣٨.
٣٧- المفصل، جـ٨، ص٣٦٤-٣٦٥.
٣٨- رودلف زلهايم، الأمثال العربية القديمة، ترجمة رمضان عبد التواب، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٤، ص٥٦.
٣٩- المرجع السابق، ص٦٦.
٤٠- قصة الأدب فى الحجاز، ص٢٩٥.
٤١- خفاجى، الحياة الأدبية، ص١٢٢.
٤٢- المرجع السابق، ص١٣٣.
٤٣- المرجع السابق، ص١٢٤.
٤٤- قصة الأدب، ص٢٥٣.
٤٥- الربرب: القطيع من الظباء.
٤٦- ينثعب: يسيل.
٤٧- شوقى ضيف، ص٤٢٠.
٤٨- المرجع السابق، ص ص ٤٢١، ٤٢٢.
٤٩- جورجى زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، جـ١، ص١٩٧.
٥٠- المفصل، جـ٨، ص٣٨٠-٣٨١.
٥١- صاعد، طبقات الأمم، ص٤٥.
٥٢- مقدمة ابن خلدون، ص ٣٤٦.
٥٣- تاريخ آداب اللغة العربة، جـ١، ص١٧٤.
٥٤- المرجع السابق، ص١٧٥.
٥٥- المرجع السابق، ص١٧٦.
٥٦- يعدل أى يجعله مستقيما.
٥٧- جمع مشج، وهو ما كان مختلطا وهنا ما يتركب منه مزاج البدن.
٥٨- يتوقى.
٥٩- ابن أبى أصيبعة، عيون الأنباء فى طبقات الأطباء، ص١٣٢.
٦٠- المفصل، جـ٨، ص٤١٣.
٦١- الفلاية، مصدر فلا، وهو البحث عن القمل، والمراد هنا، البحث عن كنهها.
٦٢- الحيوان، جـ٦، ص٢٩.
٦٣- تاريخ آداب اللغة العربية، جـ١، ص ١٩٩.
٦٤- عن: المفصل، جـ٨، ص ٣٨٢.
٦٥- الصحاصح: الأرض المستوية الواسعة. الأماليس: جمع أمليس، وهى الأرض الملساء التى ليس بها ماء ولا شجر.
٦٦- يعينه.
٦٧- فاردا: منفردا.
٦٨- الأجذاع: سيقان النخل تجعل سقفا للخيمة.
٦٩- الحيوان، جـ٦، ص ٣٠-٣١.
٧٠- طلس، عصر الانبثاق، ص٢٨.

٧١- تاريخ آداب اللغة العربية، جـ١، ص١٧٨.
٧٢- المرجع السابق، ص١٧٩.
٧٣- تاريخ آداب اللغه العربية، جـ١، ص٢٠٢.
٧٤- الأنعام/٩٧.　　　٧٥- الحجر/١٦.
٧٦- سورة البروج.　　　٧٧- يس/٣٩.
٧٨- تاج العروس، جـ٢، ص٢٥٠(أرخ).
٧٩- المفصل، جـ٨، ص٥١١.
٨٠- تاريخ آداب اللغة العربية، جـ١، ص١٨٣.
٨١- غمدان: قصر بين صنعاء وطيوه، واختلف فى اسم بانيه.
٨٢- يقول ياقوت هو حصن السموءل بن عاديا اليهودى، مشرف على تيماء، بين الحجاز والشام على رابية من تراب، فيه آثار أبنية من لبن لا تدل على ما يحكى عنها من العظمة والحصانة وهو خراب.
٨٣- الحيوان، جـ١، ص ٦٨-٦٩.
٨٤- المرجع السابق، ص ٧٣.
٨٥- طلس، عصر الانبثاق، ص ١٥٣.
٨٦- قصة الأدب فى الحجاز، ص٢١٦.
٨٧- المرجع السابق، ص٢١٧.
٨٨- المرجع السابق، ص١٥٤.
٨٩- تاريخ آداب اللغة العربية، جـ١، ص٢١٠.
٩٠- شوقى ضيف، العصر الجاهلى، ص٤٢٢.
٩١- الحاقة/٤٢.　　　٩٢- الطور/٢٩.
٩٣- خفاجى، الحياة الأدبية، ص ٥٣.
٩٤- قصة الأدب فى الحجاز، ص٢٢١.
٩٥- الحياة الأدبية، ص٥٢.

الفصل السابع

تربية المرأة

مكانة المرأة الجاهلية:

لقد كان المجتمع البدوى يتبع نظام الأبوة، فللرجل السيادة والسلطة على البيت، وعلى المرأة وعلى الأولاد قبل البلوغ. ولكن مع هذه الحقوق، كانت للمرأة مكانة تتناسب مع الخدمات التى تقوم بها، إذ أنها كانت تقوم بقسط كبير من العمل فى البيت وخاصة فى ذلك المجتمع القاسى الذى كان الرجال فيه يمتهنون الحرب والرعى[1]. ثم إن المرأة هى الوسيلة الوحيدة لإنتاج الرجال الذين يزيدون قوة القبيلة فى السلم والحرب، وخاصة إذا كان أولادها (نجباء) قادرين على أن يكونوا لأنفسهم مكانة مرموقة فى المجتمع. ولا ريب أن المرأة كانت تقوم بنفسها بدور فى الحرب، كتضميد الجرحى ورعايتهم وتزويد المقاتلين بالزاد والماء. هذا إلى أن المرأة قد توحى للشعراء بالخيال وللرجال بالطموح، وقد تدخل فى البيت بهجة وحياة روحية جميلة[2].

وقد أعطتها هذه الخدمات مكانة مرموقة فى المجتمع، فكانت تعتبر من أهم عناصر الشرف والدفاع عنها من المروءة التى تستحق الفخر، كما لايجوز رفض من يستجير بها. ولا أدل على احترامها من مخاطبتها بالحرمة، من الاحترام، وبربة البيت، كدليل على تقدير مكانتها فيه.

يا ربة البيت قومى غير صاغرة ضمى إليك رحال القوم والقربا[3]

وكانت المرأة تشعر بأنها مساوية للرجل فى مكانته، أو يجب أن ينظر إليها المجتمع نظرته إلى الرجل، فقد أنشدت فتاة عضلها[4] أبوها ومنعها الأكفاء:

أيزجر لاهينا ونلحى على الصبا وما نحن والفتيان إلا شقائق

وفى أمثال العرب: (أن النساء شقائق الأقوام). والشقائق جمع شقيقة وهى كل ما يشق نصفين، فالنساء إذا مثل الرجال لهن مثل ما عليهن من الحقوق(٥).

ولقد بلغ خيال العربى من السمو بالمرأة أن جعل الملائكة أشباها لها ونظائر، فقال هم بنات الله وصفياته .. تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا. وإذا علمت أن العرب اتخذوا الملائكة آلهة من دون الله، فما ظنك بأشباههم يومئذ(٦)؟

ومن الأدلة الواضحة على مكانة المرأة، أنها استطاعت فى بعض الدول القديمة فى شبه الجزيرة أن تتولى الحكم، وتسير فى حكمها سيرا حصيفا وتقود بلادها بحكمة واقتدار. من هؤلاء (بلقيس) التى عاصرت حكم سليمان الذى عاش بين عامى ٩٦١، ٩٢٢ ق.م(٧) وقد عثر رئيس بعثة التنقيب الأمريكية ويندل فيلبس على كنوز وآثار ضخمة لها دونها فى كتاب(٨)، من أهمها ما سمى بـ(عرش بلقيس)(٩). وقد أشار القرآن الكريم إلى زيارتها لسليمان، فقال "أنى وجدت امرأة تملكهم، وأوتيت من كل شىء ولها عرش عظيم، وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله". ثم أرسل إليها سليمان كتابا، فلما أخذته جمعت مستشاريها: "قالت يا أيها الملأ، إنى ألقى إلى كتاب كريم أنه من سليمان، وأنه بسم الله الرحمن الرحيم، ألا تعلوا على واتونى مسلمين. قالت يا أيها الملأ، ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون. قالوا نحن أولو قوة وأولو بأس شديد. والأمر إليك، فانظرى ماذا تأمرين"(١٠) فها هو القرآن يؤكد لنا كيف أنها كانت ملكة ديمقراطية تستشير ذوى الرأى ولا تستبد. وكذلك يبين مدى ما كانت عليها مملكتها من قوة، وكيف أنها كانت بعيدة النظر حتى أنها لم ترد محاربة سليمان مع قوتها.

وهناك امرأة أخرى، حكمت مملكة تدمر تسمى (زنوبيا) أو (الزباء) وقد أجمعت المصادر اليونانية واللاتينية والعربية التى تعرضت لذكر الزباء على أنها كانت على قدر كبير من الذكاء وسعة الحيلة، وأنها

كانت قديرة على إدارة شئون البلاد، وكان حكمها فى القرن الثالث قبل الميلاد[11].

وقد خاطب الرجل العربى المرأة فخورا بشجاعته وكرمه وعلى مقامه وأشهدها على حسن بلائه ومحامده، ومثال ذلك شعر قاله (عبد يغوث) أشهد فيه زوجته على شجاعته مهاجما ومهاجما، وعلى جده فى الرحلة والغارة وقطع القفار التى لم تطأها قدم، وعلى أنه ينادم الكرام على الشراب، وينحر لهم مطيته إذا لم يجد غيرها، وعلى أنه يتخذ مجلسه بين المغنيتين، فإذا تملكه الطرب شق رداءه، أو هو يشقه لتأكيد الحب، وعلى أنه حاذق بفن الحرب والطعان حتى فى وقت الحرج والضيق وفرار الخيل من رماح الأعداء[12]:

وقد علمت عرسى مُليكة أننى	أنا الليث، معدوا علىّ وعاديا
وقد كنت نحار الجزور ومعمل الـ	مطى وأمضى حيث لاحى ماضيا
وأنحر للشرب الكرام مطيتى	وأصدع بين القينتين ردائيا
وكنت إذا ما الخيل شمّصها القنا	لبيقا بتصريف القنا بنا نيا

والرجال يستبسلون فى القتال حتى لا ينكسروا فتسبى نساؤهم، قال عمرو بن كلثوم فى معلقته: أنهم يستبسلون مخافة أن تسبى نساؤهم الحسان، وأن النساء أنفسهم يحرضن الرجال على الاستبسال، وأى تحريض أعمق فى نفس الرجال أثرا وأبعد مدى من أن تقول زوجته له: لست زوجى إذا لم تحمنى؟!

على آثارنا بيض حسان	نحاذر أن تقسّم أو تهونا
يقتن جيادنا ويقلن لستم	بعولتنا إذا لم تمنعونا[13]

وقد انتسب بعض الشعراء إلى الأم مثل شبيب بن البرصاء، وابن ميادة، ومنظور بن حبة، وابن زيابة التيمى، والسليك بن السلكة، وغيرهم كثير.

بل وانتسبت بعض القبائل إلى الأم مثل بجيلة وخندف وطهية (نسبة إلى طهية بنت عبد شمس) ومنها أبو الغول الطهوى من شعراء الحماسة[١٤].

ويروون حكايات عن مقدرة المرأة على إشعال الحروب، وعن استشارتها قبل أن يقضى أبوها فى زواجها، فقد استشيرت الخنساء فى الزواج من أمية بن أبى الصلت فرفضت، وقد استشيرت بهيسة بنت أوس الطائى فى الزواج من الحارث بن عوف، وكانت أمها هى التى زينت لأبيها الرضا بهذا الزواج، وإن كان هذا لم يكن عرفا يلتزمه سائر العرب[١٥].

على أن كل ذلك لا ينفى أمورا أخرى تبين أن هذه المكانة لم تكن دائمة، كما لم تكن قائمة فى كل أنحاء الجزيرة. فقد عرفت المرأة بالكيد بين الجاهليين ونظروا إليها فى بعض الأحيان نظرتهم إلى الشيطان. كذلك نظر بعض الرجال إلى رأيها على أن فيه وهنا وضعفا. وتصور أن من الحمق الأخذ برأى المرأة، فقالوا من أجل ذلك: "شاوروهن وخالفوهن"[١٦]. وبالاضافة إلى ذلك، فقد عرفت صورا من العلاقات الزواجية تحط من قدرها مثل: زواج المقت ونكاح الاستبضاع[١٧].

مواصفات المرأة كمربية:

١- إذا كنا قد درجنا على أن ننظر إلى حرص العرب القدامى على عدم تزوج أبناء (الأحرار) بينات (العبيد) على أن ذلك تعبير عن (طبقية) واضحة، فالحق أننا نستطيع أن نشير إلى دافع آخر لا ينفى (النظرة الطبقية) ولكنه يقف معه، وهو أن عشق العربى الشديد للحرية، جعله يحرص على أن تكون زوجته أيضا (حرة)، ومن ثم توفر فى المنزل مناخا صحيا لتربية الأبناء تشيع فيه قيم الحرية والعزة والكرامة والإباء والشمم، يقول جعفر بن عُلبة الحارثى أن الحرب والكرب لا يكشفهما إلا ابن الحرة الشجاع،

لأنه برىء من شوائب الهُجنة، فصار كـرم أصلـه مهيجـا لأنفتـه، ومشجعا له على الاستبسال[١٨]

لا يكشف الغماء إلا ابن حرة … يرى غمرات الموت ثم يزورها

وهذا الشنفرى يقول:

أنا ابن خيار الحجر بيتا ومنصبا … وأمى ابنة الأحرار لو تعرفينها

والحرة هى وحدها التى يدفع لها المهر بالزوج، ومن هنا جاء الفخر بالمهيرات، أى ذوات المهر - فهذه الخنساء ترثى أخاها صخرا فتذكر إلى شرف أبيه وأجداده أن أمه وجداته مهائر ذوات شيم ماجدة:

يا ابن القروم وذوى الحجا … وابن الحضارمة المرافد

وابـــــن المهائر للمهائر … زانهـــا الشيم المواجد[١٩].

وإذا كان (المال) أساسا هاما يميز ويحدد الطبقة الاجتماعية، فإن مـا يدلنا على أن (النظرية الطبقية) بهذا المعنى الاقتصادى لم تكن وحدها المعول فى تربية المرأة، ما تذكره المراجع مـن أن مرجـع العربـى فـى اختيار زوجته (شرف الحسب) حتى ولو كانت فقيرة، بل إنه قـد يطلـب أن تكون فقيرة حتى يدرأ بذلك ما عسى أن يحدثـه الـثراء مـن الصلـف والكبرياء[٢٠]. فقد فزع قيس بن زهير سيد بنى عبس وبطلها إلـى النمـر ابن قاسط فقال: "يا معشر النمر، نزعت إليكم غريبا حزينا، فـانظروا لـى امرأة أتزوجها، قد أذلها الفقر، وأدبها الغنى، لها حسب وجمال"[٢١].

٢- وتحملت المرأة الجاهلية عبئًا تربويـا كبـيرا بالنسبة لأولادهـا، فقد كان المجتمع يعطيها من التقدير والاحترام بالقدر الذى تتجـب فيـه من الأبناء. فإذا وضعنا فـى الاعتبـار انشـغال الأب معظـم الوقت بالرعى والصيد، أدركنا مدى العبء الذى ألقى على عـاتق المـرأة فى تربية الأبناء، ولذلك زهيت الأم المنجبة بأبنائها، وزهى أبناؤها بها لأنهم يدينـون لهـا بكثـير مـن عظمـة نفوسـهم وسـلامة أبدانهـم وشـهرتهم ومجدهـم، وسـميت الأم التـى يكـثر بنوهـــا منجبــة. ولا

عجب إذا فى أن يحفل الشعر بالإشادة بالأمهات المنجبات لأن الإعجاب بهن والفخار يهز القلوب الشاعرة، فهذا نيف بن حكم – أو ابن زيان النبهانى يفخر بأن قومه يأبون الضيم لأن أمهم أكثرتهم وأنجبتهم.

أبى لهم أن يعرفو الضيم أنهم بنوا ناتق كانت كثيرا عيالها[٢٢]

ومما يعزز الفخر بالأم المنجبة، هو أن الكثرة كانت عند عرب الجاهلية هى التى ترجح الكفة عند النزال، ونعرف من الحجازيات المنجبات عاتكة بنت هلال بن مرة وقد ولدت هاشما وعبد شمس والمطلب أبناء عبد مناف، وفيها يضرب المثل فيقال: أنجب من عاتكة[٢٣].

٣- وبخبرة العرب وفطرتهم، تنبهوا إلى مبدأ هام كشف عنه علماء الاجتماع المحدثين، وهو استحسان أن يتم التزاوج بين الغرباء لا بين الأقرباء لحسن سلامة بنيان الأبناء الجسمى والعقلى، وفى ذلك قال قائلهم:

أنذر من كان بعيد الهم تزويج أولاد بنات العم

فليس ناج من ضوى وسقم[٢٤].

وقال آخر:

الا فتى نال العلى بهمه ليس أبوه بابن عم أمه

ترى الرجال تهتدى بأمه[٢٥]

وعلى هذا النسق، سار رسول الله ﷺ، فى قوله: "اغتربوا لا تضووا"، أى تزوجوا الغرائب ولا تزوجوا بنات العمومة حتى لا ينكشفن عن الضعاف[٢٦]. وفى هذا قال أيضا أحد شعرائهم:

فتى لم تلده بنت عم قريبة فيضوى وقد يضوى رديد القرائب

تعلم من أعمامه الباس والندى وورثه الأخوال حسن التجارب

هو ابن غريبات النساء وإنما ذووا الشأن أبناء النساء الغرائب[٢٧]

وقد دلل على صواب ذلك أبو حيان التوحيدى بأن تراب الأرض إذا حول وقلب زكت الزروع، فإذا كـان الاغتراب يؤثر من التراب إلى التراب، فالأولى أن يؤثر فى الإنسان بالاغتراب لأن الإنسان أيضا من تراب(٢٨).

وإن كان هذا لا ينفى الاعتراف بوجود عرب آخرين حرصـوا على التزوج بالقريبات.

٤- أما كيفية تربيتها لأبنائها، فقد كان جزءا رئيسيا فى إعدادها، ودليل ذلك، ما يذكرونه من مواقف تبين أنها بالفعل حذقت أمر هذه التربية. وقد مر بنا شىء من هذا ونحن نعرض لدور الأسرة كوسيط تربوى، ونزيد على ذلك الآن، بأنها كانت تحرص بعد أن يشب الطفل عن الطوق على محادثته عن سير الأبطال، وتتعاهده كما يتعاهد المزارع غرسه، فتعطف صدره لو غلبت عليه سورة الغضب وهاجت فيه نزوة الشر وأوضحت له طريق الخير ونهجه، وهذا مثال على ذلك:

جعل قوم لبشر بن أبى حازم الأسدى – وكان عبدا – جُعلا عن أن يهجو أوس بن حارثة لأم. فأخذ يتلقفه بلسانه فى كل مجتمع، حتى إذا ضاق بأوس أمره، أرسل رسولا من لدنه ليشترى الشاعر العبد من مولاه بالغا ما بلغ. فلما اشترى له وجىء به إليه، قال له: هجوتنى ظالما لى، أنت بين قطع لسانك، وحبسك فى سرب حتى تموت، أو قطع يديك ورجليك وتخلية سبيلك. ثم دخل على أمه سعدى – وكانت قد سمعت كلامه، فقالت له: يا بنى! مات أبوك فرجوتك لقومك عامة، فأصبحت أرجوك لنفسك خاصة، وزعمت أنك قاطع رجلا هجاك، فمن يمحو ما قاله غيره؟ قال: فما أصنع؟ قالت: تكسوه حلتك وتحمله على راحلتك، وتأمر له بمائة ناقة، ففعل ما قالت، فملأ بشر عراض الآفاق بمدائح أوس(٢٩).

٥- ولما تعرب بأهمية الوراثة فى الصفات العقلية، فاستكرهوا التزوج بالحمقاوات حتى لا يؤدى ذلك إلى أن يرث أبناؤهم الحمق منها، فجاء فى وصية أكثم بن صيفى إلى طىء: "إياكم ونكاح الحمقاء، فإن نكاحها غَرَرٌ، وولدها إلى ضياع". وكذلك قال الحارث بن كعب لبنيه: "إياكم الورهاء وتجنبوا الخرقاء". وفى الحديث الشريف: "لا تتزوجوا الحمقاء، فإن صحبتها بلاء، وفى ولدها ضياع) و"لا تسترضعوا الحمقاء فإن لبنها يغير"[٣٠].

ويرتبط بهذا أيضا كراهيتهم أن تكون الزوجة (لثغاء)، فقد طلق أبو رمادة امرأته لما وجدها لثغاء، مخافة أن تلد له ولدا ألثغ، ولم تفتنه بأن تتبختر فى ثيابها الموشاة فتنسيه لثغتها، قال:

لثغاء تأتى بحيفس ألثغ   تميس فى الموسى والمصبغ[٣١].

٦- ولا شك أن الأم المرحة المتفائلة تشيع فى البيت جوا من البهجة والسرور، ومن هنا قال شيخ من بنى سليم لابنه: يا بنى إياك والغضوب القطوب[٣٢]. وقالت ابنة الخس: شر النساء، السويداء الممراض، الكثير المظاظ[٣٣].

ومن هنا كان للعربى أن يفخر بأمه دائما حتى فى المعارك، فهذا سلمة بن دريد بن الصمة يفخر بأمه سمادير حين قتل أبا عمار الأشعرى:

إن تسألوا عنى فإنى سلمة   ابن سمادير لمن توسمه

أضرب بالسيف رؤوس المسلمة

ومن مظاهر فخرهم بالأم وإجلالهم لها أن يفدوا بها، وهم لا يفدون إلا بما يحبون أعظم الحب، فهذا العباس بن مرداس يمدح حليا النصرى الذى أخذ الثأر لأخيه:

فدى لك أمى إذا ظفرت بقتله   وأقسم أبغى عنك أما ولا أبا

والأم أعظم رابطة بين الأخوة ولاسيما فى وقت الشدائد، كما نرى عند الشنفرى:

أقيموا بنى أمى صدور مطيكم فإنى إلى قوم سواكم لأميل

ولذلك فهم ينكرون أشد الإنكار هرب الأخ من أخيه فى المعركة، قال حسان معيرا الحارث بن هشام فراره من أخيه الحكم وتركه فى أرض المعركة يوم بدر:

هلا عطفت على ابن امك إذ ثوى قعص الأسنة ضائع الأسلوب

ويتضح ذلك أكثر من تلك المراثى الحارة والدموع السخينة التى يذرفها العربى على أخيه الشقيق أو أخيه لأمه:

وكان إعزازهم للأم يتبعه فخرهم بالخال واعتزازهم به[٣٤].

تربيتها الأسرية:

ونظرا لمدى ما تمثله الأسرة من قوة اجتماعية وتربوية، فقد كان هناك حرص شديد على أن تعد الفتاة لتكون زوجة ذات علاقة طيبة بزوجها، فهما عمادا الأسرة، تنعم بحسن علاقتهما أحدهما بالآخر وتشقى بعكس ذلك. ونحن نعلم من دراستنا الحديثة، كيف أن التشقق الأسرى يلعب دورا خطيرا فى انحراف الأبناء، ومن هنا لنا أن نتخذ من ذلك الحرص الذى كان يبدى على الزوج دليلا واضحا على تربية الفتاة الجاهلية على أن تكون مقوما سليما من مقومات الأسرة. وتلخص لنا الوصية الآتية، ما كان على الفتاة الجاهلية أن تفعله حتى تكون كذلك.

ذلك أن الحارث بن عمرو ملك كندة خطب إلى عوف بن محلم الشيبانى ابنته، فلما كان يوم بنائه بها وأرادوا أن يحملوها إليه قالت لها أمها:

أى بنية .. إن الوصية لو تركت لفضل أدب، تركت لذلك منك ولكنها تذكرة للغافل ومعونة للعاقل، ولو أن امرأة استغنت عن الزوج

لغنى أبويها وشدة حاجتهما إليها، كنت أغنى الناس عنه، ولكن النساء للرجال خلقن ولهن خلق الرجال.

"أي بنية إنك فارقت بيتك الذى منه خرجت، وعشك الذى فيه درجت على رجل لم تعرفيه وقرين لم تألفيه، فكونى له أمة، يكن لك عبدا، واحفظى له خصالا عشرا يكن لك ذخرا. أما الأولى والثانية، فالخشوع له بالقناعة، وحسن الطاعة. وأما الثالثة والرابعة فالتفقد لموضع عينه وأنفه، فلا تقع عينه منك على قبيح ولا يشم منك إلا أطيب ريح. وأما الخامسة والسادسة، فالتفقد لوقت طعامه ومنامه، فإن تواتر الجوع ملهبة، وتنغيص النوم مغضبة. وأما السابعة والثامنة، فالاحتراس بماله والارعاء على حشمه وعياله وملاك الأمر فى المال، حسن التقدير، وفى العيال حسن التدبير. وأما التاسعة والعاشرة فلا تعصين له أمرا، ولا تفشين له سرا، فانك إن خالفت أمره، أوغرت صدره، وإن أفشيت سره لم تأمنى غدره.

ثم إياك والفرح بين يديه إن كان ترحا، والترح بين يديه إذا كان فرحا فإن الخصلة الأولى من التقصير، والثانية من التكدير، وكونى أشد ما تكونين له إعظاما، يكن أشد ما يكون لك إكراما، وأشد ما تكونين له موافقة، يكن أطول ما يكون لك موافقة، واعلمى أنك لا تصلين إلى ما تحبين حتى لا تؤثرى رضاه على رضاك وهواه على هواك، فيما أحببت أو كرهت، والله يخير لك"[٣٠].

وللآباء فى هذا المجال دور كذلك، فهذا (ذو الجدين)، قال لابنته لما زفت إلى (لقيط بن زرارة): كونى له أمة يكن لك عبدا، وليكن أكثر طيبك الماء، واعلمى أن زوجك فارس مضر، وأنه يوشك أن يُقتل أو يموت، فلا تخمشى عليه وجها، ولا تحلقى شعرا.

وكذلك أوصى آخر ابنته أن تنظف بالماء[٣١]. ولما زفت نائلة بنت الفرافصة الكلبى إلى عثمان رضى الله عنه، قال لها أبوها: يابنية إنك

تقدمين على نساء قريش، وهن أقدر على الطيب منك، فاحفظى عنى خصلتين: تكحلى وتطيبى بالماء حتى يكون ريحك شن أصابه مطر[٣٧].

النفور من تربية البنات:

ومنطق البحث العلمى يحتم علينا كذلك ألا نغفل عن حقيقة هامة تذكرها المصادر التاريخية المختلفة، وهى ذلك النفور الذى شاع من تربية البنات عند العرب القدامى، فإذا ما قيل لنا، ألا يتناقض هذا مع ما سبق أن بيناه، بل وما سوف نجيء به فيما بعد؟ أجبنا بالنفى، لأننا إذ نتناول العصر الجاهلى، لا ننسى أننا نغطى مساحة زمنية ضخمة لا يمكن أن تتساوى شرائحها، ونفس الشيء يقال عن (المكان) من حيث اتساعه وضرورة التسليم بما قد يكون هناك من تباين بين جزئياته فى بعض الأحوال.

فلقد هجر أبو حمزة الضبى خيمة امرأته حين ولدت بنتا، وكان يقيل ويبيت عند جيرانه، فمر بخبائها يوما، فسمعها تتغنى لابنتها بقولها:

ما لأبى حمزة لا يأتينا ... يظل فى البيت الذى يلينا

غضبان ألا نلد البنينا ... تا لله ما ذلك فى أيدينا

وانما نأخذ ما أعطينا ... ونحن كالأرض لزارعينا

ننبت ما قد زرعوه فينا[٣٨]

وقد بلغ ببعضهم النفور بهن إلى حد وأدهن. وقد أرجع القرطبى أسباب الوأد لخصلتين: أحدهما، كانوا يقولون، أن الملائكة بنات الله، فألحقوا البنات به، قال تعالى: ﴿ويجعلون لله البنات سبحانه، ولهم ما يشتهون. وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم. يتوارى من القوم من سوء ما بشر به، أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب. ألا ساء ما يحكمون﴾. وقال: ﴿ويجعلون لله ما يكرهون﴾[٣٩]، وقال: ﴿أفاصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثا، إنكم لتقولون قولا عظيما﴾([٤٠])، وقال: ﴿فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون، أم خلقنا

الملائكة إناثا وهم شاهدون؟ ألا إنهم من إفكهم ليقولون ولد اللـه، وإنهم لكاذبون. اصطفى البنات على البنين، مالكم كيف تحكمون﴾[41].

الخصلة الثانية: أما مخافة الحاجة والإملاق، وإما خوفا من السبى والاسترقاق[42]. وذكر غيره، أن سنين شديدة، كانت تنزل بالناس تكون قاسية على أكثرهم ولاسيما الفقراء فيأكلون (العلهز) وهو الوبر بالدم، وذلك من شدة الجوع[43].

روى[44] أن رجلا من أصحاب النبى ﷺ، وكان لا يزال مغتما بين يدى رسول الله، فقال له الرسول: مالك تكون محزونا؟ فقال: يا رسول اللـه، أنـى أذنبت ذنبا فى الجاهلية، فأخاف ألا يغفره اللـه لـى، وإن أسلمت. فقال له: أخبرنى عن ذنبك. فقال يا رسول الله، إنـى كنت من الذين يقتلون بناتهم، فولدت لـى بنت، فتشفعت إلىّ امرأتى أن أتركها حتى كبرت وأدركت، وصارت من أجمل النساء، فخطبوها، فدخلتنى الحمية، ولم يحتمل قلبى أن أزوجها أو أتركها فى البيت بغير زواج، فقلت للمرأة: أنى أريد أن أذهب إلى قبيلة كذا وكذا فى زيارة أقربائى، فابعثيها معى، فسرت بذلك، وزينتها بالثياب والحلى، وأخذت على المواثيق بألا أخونها، فذهبت إلى رأس بئر، فنظرت فى البئر، ففطنت الجارية أنى أريد أن ألقيها فى البئر، فالتزمتنى وجعلت تبكى وتقول: يا أبت ايش تريد أن تفعل بى؟، فرحمتها، ثم نظرت فى البئر فدخلت على الحمية. ثم التزمتنى وجعلت تقول: يا أبت، لا تضيع أمانة أمى، فجعلت أنظر فى البئر ومرة أنظر إليها فأرجحها حتى غلبنى الشيطان، فأخذتها وألقيتها فى البئر منكوسة، وهى تنادى فى البئر: يا أبت قتلتنى، فمكثت هناك حتى انقطع صوتها، فرجعت، فبكى رسول اللـه وأصحابه، وقال لو أمرت أن أعاقب أحدا بما فعل فى الجاهلية لعاقبتك.

ومع ذلك، فالأمر لم يعد وجود بعض ذوى القلوب الرقيقة التى لا يقر ضميرها مثل هذه الأعمال، وعلى رأس هؤلاء (صعصعة بن ناجية) جد الفرزدق حتى لقد أطلق عليه (محيى الموؤدات) وذلك أنه

مر برجل من قومه - تميم يحفر بئرا، وامرأته تبكى، فقال لها صعصعة. وما يبكيك؟ قالت: يريد أن يئدابنتى هذه! فقال له. ما حملك على هذا؟ قال: الفقر. قال: فإنى اشتريتها منك بناقتين يتبعهما أولادهما تعيشون بألبانها، ولا تئد الصبية. فرضى الرجل، فأعطاه الناقتين وجملا مخلا، وقال فى نفسه. إن هذه لمكرمة ما سبقنى إليها أحد من العرب، فجعل على نفسه ألا يسمع بموءودة إلا فداها. فجاء الإسلام، وقد فدى ثلاثمائة موءودة(٥)، وقيل أربعمائة.

وواضح من موقف هذا الرجل وهو يساوم أبا البنت أنه يدرك أن سبب الوأد انما هو اقتصادى، ومن ثم عرض عليه مصدرا للدخل فى نظير تخليه عن وأد البنت. وكانت موافقة الأب على المساومة دليلا آخر على دوافعه الاقتصادية.

ومنهم زيد بن عمرو بن نفيل القرشى. وكان يضرب مضارب القوم، فإذا بصر برجل يهم بوأد ابنته، قال له. لا تقتلها، أنا أكفيك مؤونتها، فيأخذها ويلى أمرها حتى تشب عن الطوق، فيقول لأبيها: إن شئت دفعتها إليك وإن شئت كفيتك مؤونتها(٦).

ووجد كذلك من عرب الجاهلية من يحب البنت لأنها صديقة وفية لا تنسى أباها فى حالتى الرخاء والشدة، وهى تؤدى حقه بالنوح والبكاء بعد موته، كما يقول معن بن أوس(٧):

رأيت رجالا يكرهون بناتهم	وفيهن لا يُكذب نساء صوالح
وفيهن والأيام يعثرن بالفتى	عوائد لا يمللنه ونوائـــح

وكثيرا ما تكون البنت ميمونة النقيبة، وسببا من أسباب المفاخر، فهذا النعمان بن وائل الكلبى - قائد الحارث بن أبى شمر الغسانى- يغير على بنى ذبيان ويسبى منهم، وحين وجد من بينهم ابنة النابغة أطلقها وحدها أولا، ثم أطلق الجميع رجاء مدح من أبيها، وهكذا فعل

النابغة، فقد قال يمدح النعمان، ويذكر الجميل الذى أسداه إلى بنى ذبيان:

يقودهم النعمان منه بمحصف ... وكيد يغم الخارجى مناجد
فآب بأبكار وعون عقائل ... أوانس يحميها امرؤ غير زائد
غرائر لم يلقين بأساء قبلها ... لدى ابن الجلاح ما يثقن بوافد
أصحاب بنى غيظ فأضحوا عباده ... وجللها نعمى على غير واحد
فكنت بعدما طار روحها ... وألبستنى نعمى ولست بشاهد

وابنتا ربع الهذلى يعولان على أبيهما لا يرقدان الليل وكأن فى أحشاء الواحدة منهن مزمارا ينبعث منه الأنين وهما يلطمان بالنعال كما يقول أخوهما عبد مناف:

ماذا يفيد ابنتى ربع عويلها ... لاترقدان ولا بؤسى لمن رقدا
كلتاهما أبطنت أحشاؤها قصبا ... من بطن حلية لا رطبا ولا نقدا
إذا تأوب نوح قامتا معه ... ضربا أليما بسبت يعلج الجلد(٤٨).

تربيتها العقلية:

(أ) **القراءة والكتابة**: عرفت قلة من نساء الجاهلية الكتابة والقراءة، وبعضهن يعلمنها، منهن فاطمة بنت مر الخثعمية، كانت قد قرأت الكتب فى الجاهلية(٤٩).

وقد تعلم حماد بن زيد بن أيوب الكتابة من أمه بعد قتل أبيه، ثم كان من أكتب الناس، وكتب للنعمان الأكبر(٥٠).

وكان منهن (الشفاء بنت عبد الله بن عبد شمس) القرشية العدوية من رهط (عمر)(٥١) أسلمت قبل الهجرة، وهى من المهاجرات الأوائل، وكانت عقلا من النساء، وكان عمر يقدمها فى الرأى. وكان رسول الله يزورها ويقيل عندها فى بيتها، وكانت قد اتخذت له فراشا وإزارا ينام

فيه. وقد أمرها الرسول أن تعلم (حفصة) الكتابة، فعلمتها كما علمت (رقية) تسمى (رقية النملة) وقد تعلمت الكتابة فى الجاهلية.

وكانت حفصة زوج النبى وابنة عمر تكتب، وكانت أم كلثوم بنت (عقبة) تكتب وكذلك كانت عائشة بنت سعد و(كريمة بنت المقداد) و(شميلة)[٥٢].

وورد أن عائشة زوج الرسول، كانت تقرأ المصحف ولا تكتب.

ولا شك فى أن هؤلاء النسوة القارئات الكاتبات قليل، لأن طبيعة البيئة، وطبيعة العصر، كانت تقتضى ذلك، فلم تكن هناك مدارس يتردد عليها الناس ليتعلموا، ولم تكن ثمة حاجة تستدعى أن تتعلم النساء القراءة والكتابة، لأن الحكم الغالب على الناس، شيوع الأمية.

(ب) **المعرفة بالنجوم**: فقد روى الأصمعى أن أعرابيا ضريرا كانت تقوده ابنته، وهى ترعى غنيمات، فرأت سحابا، فقالت. يا أبت، جاءتك السماء، فقال. كيف ترينها؟ قالت كأنها فرس دهماء تجر جلالها[٥٣]. قال: ارعى غنيماتك. فرعت مليا، ثم قالت: يا أبت جاءتك السماء. قال: كيف ترينها؟ قالت: كأنها عين حمل طريف. قال: ارعى غنيماتك. فرعت مليا، ثم قالت: يا أبى جاءتك السماء. قال: كيف ترينها؟ قالت: سطحت وابيضت. قال: ادخلى غنيماتك، فجاءت السماء بشىء شطأ له الزرع وأينع، وخضر ونضر[٥٤].

والأخبار مستفيضة بعلم السيدة عائشة بالنجوم، فقد وفدت عائشة بنت طلحة على هشام، وسمرت عنده مع مشايخ بنى أمية، فما تذاكروا شيئا من أخبار العرب وأشعارها وأيامها إلا أفاضت معهم فيه، وما طلع نجم ولا غار إلا سمته، فقال لها هشام: أما الأول، فلا أنكره، وأما النجوم فمن أين لك؟ فقالت: أخذتها عن خالتى عائشة[٥٥].

(جـ) الشعر: وإذا كان ما ذكرنا من رقى المرأة فى العصر الجاهلى وعزة نفسها وذكائها وإذا عرفنا أيضا أن الشعر لا ينمو ولا يزدهر إلا فى ظل العز والارتقاء، وأنه يندر نبوغ الشعراء البلغاء فى أمة ذليلة، أدركنا لماذا وجدت نساء شاعرات أعرابيات طرقن أبوابه المختلفة. صحيح أن الشعر هنا ليس نتيجة تربية ولا حصيلة تعلم، ولكنا نستنتج من وجود شاعرات، ضرورة وجود نساء يتعلمنه منهن، ويعلمنه لغيرهن بالرواية والسماع. ويمكن أن نذكر من هؤلاء النسوة الشاعرات:

- الخنساء: توفيت عام ٦٤٦م من أهل نجد. أجمع رواة الشعر على أنه لم تقم امرأة فى العرب قبلها ولا بعدها أشهر منها.
- خرنق بنت بدر بن هفان، توفيت عام ٥٧٠م. وهى أخت طرفة ابن العبد لأمه.
- جليلة بنت مرة توفيت عام ٥٣٨م(٥٦).
- ليلى العفيفة، توفيت عام ٤٨٣م وكانت تامة الحسن كثيرة الأدب.

وكان الأعشى قد علم ابنته وثقفها، حتى وثق بذوقها ونقدها، فكان يعرض عليها شعره، ويقول لها: عدى لى المخزيات – القصائد اللاتى يخزين غيره، فلا يستطيع أن يأتى بمثلهن – فتسمعه من شعره(٥٧).

وكذلك كان حسان بن ثابت على ثقة من ذوق ابنته، وطواعية التعبير لها على البديهة.

وتمدنا المصادر ببعض من الأخبار حول تحول المرأة العربية إلى ناقدة وأديبة تبرز منتديات الشعراء، فتعبر بينهم عن وجودها وتميزها، وتعتد بمكانتها، بل تزيد من تثبيت هذا الوجود فى عالم الشعراء، فإذا كانت هناك شواهد على إنشاد المرأة للشعر، فهناك كذلك، ما يرتبط بما بعد هذا الاستنشاد من قدرة على الفهم والتميز لما يطرح فى مجالس الشعر، فإذا هى تبدو شاعرة متذوقة وناقدة، مع قدر واضح من التجاوز

بالطبع فى وصفها بالناقدة، ولكن الذى يخفف من حدة التجاوز أيضا ذلك الجانب التأثرى والموقف الانطباعى، الذى يرتبط بالذوق الفردى لمتلقى العمل الشعرى، وذلك قبل تحول النقد إلى الأصول المنهجية الذى تدفع به إلى قدر لا يخفى من الموضوعية والعلمية(٥٨).

ويبدو أننا هنا فى حاجة إلى معاودة قراءة الروايات المختلفة التى تخبرنا عن دور المرأة الشاعرة فى إصدار الحكم على ما تتلقاه من شعر تستنشده، أو تحضر مجالسه، أو يرقى إلى مسامعها، فمن خلال رصيد هذه الأحكام قد تكون لها فى أذهاننا صورة الناقدة بالفهم الذى تم إيضاحه.

ومن النماذج السريعة التى تكشف عن حقها فى إصدار الحكم على ماتنشده ما كان من موقف الخنساء و هند بنت عتبة فى سوق عكاظ، حيث قالت هند: اقرنوا جملى بجمل الخنساء، ففعلوا، فلما دنت منها قالت لها الخنساء: من أنت يا أخيّة؟ قالت: أنا هند بنت عتبة أعظم العرب مصيبة، وقد بلغنى أنك تعاظمين العرب بمصيبتك، فيما تعاظمينهم؟ قالت: بأبى عمرو بن الشريد وأخوى صخر ومعاوية. فيم تعاظمينهم أنت؟ قالت: بأبى عتبة وعمى شيبة وأخى الوليد، ودارت بينهما مباراة شعرية.

وهذه الرواية نستكشف منها دور المراة البارز فى أسواق الأدب، والتبارى فى فن القول الشعرى، إذ لم يكن حضور الشاعرتين سوق عكاظ إلا من منطلق الشهادة لكلتيهما بالشاعرية والتميز والاستعداد للمنافسة والمساجلة فى أسواق الأدب.

على أن تدخل المرأة برأيها فى عالم الشعراء لم يكن أمرا هينا، بل يجب أن يعتد به اعتداد امرئ القيس بموقف زوجته أم جندب من شعره وشعر علقمة فى الرواية المشهورة التى طرقتها معظم الدراسات الأدبية وكأنها الرواية الوحيدة التى تشهد للمرأة فى العصور الأولى

بالإسهام النقدى المتميز، على ما فى الحكم - أحيانا - من مبالغات تعطى أم جندب أكثر من حقها، وإلا ما طلقها أمرؤ القيس[٥٩].

تربيتها الخلقية:

وتعاونت المؤثرات البيئية المختلفة، الطبيعى منها والاجتماعى فى تشكيل أخلاقيات المرأة الجاهلية تشكيلا معينا يتناسب والأدوار التى كان ينبغى عليها أن تقوم بها فمن ذلك:

(أ) شجاعتها: وقد تجلت تلك الشجاعة فى اشتراكها فى بعض الأحوال فيما كان يجرى من معارك بين القبائل. وقد أشار إلى مشاركة المرأة العربية فى الحرب، قيس بن الحطيم فى قوله:

أطاعت بنو عوف أميرا نهاهم	عن السلم حتى كان أول راحب
أويت لعوف أن تقول نساؤهم	ويرمين دفعا ليتنا لم نحارب[٦٠]

ولما كانت الحرب بين بكر وتغلب، قال الحارث بن عباد للحارث بن همام رئيس بكر: هل أنت مطيعى فيما آمرك؟ قال: ما أنا بتارك رأيك. قال: قاتلوا القوم بالنساء فضلا عن الرجال.

ولما خرجت قريش إلى أحد لقتال الرسول، خرج معهم نساؤهم يحملن الدفوف ويبكين على أصواتها المشجيات قتلى بدر، فيوقدن بذلك نار الثأر فى قلوب الرجال.

وكما حفزت الحروب الجاهلية همم الشعراء وحركت مواهبهم فتركوا فيها رصيدا شعريا ضخما، فكذلك حركت وجدان الشاعرات من النساء، فكان لهن نصيب لا بأس من شعر تلك الحروب، ومحاولة توثيق وقائعها، والاندفاع إلى الحث على الاستمرار فيها دون استسلام ولا قبول الهزيمة، وهو ما تطلع به علينا تلك اللوحات الفنية المتعددة التى يكشفها لنا رصيد أسماء الشاعرات ممن شغلن بحرب البسوس، ومن شريفات بكر وتغلب، فكان منهن (جليلة البكرية) أخت جساس

و(أسماء) التغلبية أخت كليب، وأمامه بنت كليب، ومنهن أيضا أم ناشرة التى تلوم ابنها لقتله همام بن مرة، ومنهن سلمى بنت المهلهل التى ورثت أباها بعد قتله، وفى حرب داحس والغبراء تظهر أم فرقة الغزارية وناجية بنت ضمضم المرية وفى غير ذلك من الأيام تلمع أسماء شاعرات كثيرات أيضا(٦١).

على أن لغة الحرب عند المرأة لم تظل مجرد شعر تنظمه، أو تعبر به عن حيرتها وقلقها واضطرابها على هذا النحو، إذ ربما كانت هى نفسها عضوا مشاركا فى أهوال تلك الحروب تصطرع مع الأبطال، وربما صرعت الرجال، إذا أخذنا برواية أبى الفرج الأصفهانى أخبار النابغة الجعدى من إغارة بنى كعب على بنى أسد، حيث أصابوا منهم سبيا وأسرى فركبت بنو أسد، حتى لحقوهم بالشريف فعطفت بنو عدس ابن ربيعة فذاد وابنى أسد، حتى قتلوا منهم ثلاثين رجلا، وردوهم ولم يظفروا منهم بشىء، وتعلقت امرأة من بنى أسد بالحكم بن عمرو ابن عبد الله بن جعدة وقد أردفها خلفه، فأخذت بضفيرته ومالت به فصرعته، فعطف عليه عبد الله بن مالك بن عدس فضرب يدها بالسيف فقطعها وتخلصه(٦٢).

ويكفى هذا الجزء من الخبر لنرى المرأة مقاتلة أبية، ترفض أن تقع سبية خلف الفارس، فتصرعه لتنال من ألوان الأذى أيضا ما يناله الفرسان فى ميادين القتال.

ولم تقف المرأة موقفا سلبيا إزاء نتائج الحروب، ولا هى صمتت حتى تتلقى هزيمة وأخذت فى تقريع المنهزم، لتبعث فيه الحمية مرة أخرى.

ولقد كان تصور الخنساء للشجاعة طاغيا على فهمها لمنطق الحياة، طغيانا نستطيع أن نتبينه فى الحقيقة التالية: لو أنك أسمعت بعض

شعرها دون أن تنسبه إليها، لما تصور السامع صدوره من أنثى، بعد ذلك قولها[٦٣]:

فقد حرت العادات أنـــا لسدى الوغى   سنظفر والانســان يغى الفوائدا

وقولها: شدوا المآزر حتى يستهدف لكم   وشمروا أنها أيـــــــام تشمار

فأنت لا ترى فيه ما تألف فى طبيعة الأنثى ولا منهجها مهما استبدت بها ثورة الغضب

(ب) عفتها: فقد قامت الأخلاق العربية على دعائم متعددة، أهمها العفة، وفى هذا المجتمع الذى يقدر العفة، فيعف فيه الناس أو يتعففون، ولا يجاهرون بالفحشاء، إلا قلة من الشعراء، فى هذا المجتمع، كانت عفة المرأة أعظم حلاها، وأفخر خلالها، وكانت المرأة العفيفة هى المثل الأعلى فى نظر الرجال. وللعفة مظاهر شتى، فقد تكون فى أن تخالط المرأة الرجال وتحدثهم، على أن تتصون فلا يسمعون منها ولا تسمع منهم غير العف من القول، وقد تضرب عزتها وهيبتها حجابا بينها وبين الناس، فلا يجرؤ أحد أن يكلمها، وإذا غاب زوجها حفظت غيبته وأرضت أوبته. وهذا لا ينسينا بطبيعة الحال أن نعترف بأن نساء أخريات قد أتين غير ذلك من الأعمال، ولكنهن كن قلة، وفى شرائح اجتماعية معينة.

ولقد لوحظ – لدى بعض الشعراء – موقف فخر بمواصلة النساء العذارى والمتزوجات على حد سواء، ويختلف ذلك قوة وضعفا، وكثرة وقلة حسب شخصية الشاعر نفسه، فلا نستطيع القول أنه اتجاه عام سائد، وليس هو أيضا بالاتجاه الشخصى الصرف لأنه تكرر بظاهرة عند أكثر من شاعر. وقد نجد أن الشاعر يفتخر بمواصلة النساء ردا على اتهام المرأة له بالعجز، أو ظهور الشيب أو كبر السن، ولكن هذا المظهر إذا نظرنا إليه بصفة عامة، نجده يختلط بذكر مفاخر أخرى وذكريات تتصل بالشباب واللهو والمتعة مع الفتيان وشرب الخمر ونحو

ذلك، ولكنا نجده عند البعض كإمرؤ القيس مثلا لايقترن بذلك قدر دلالته على شخصية الشاعر نفسه، وأنه كان (زير نساء)، و كان يفتخر دوما بملازمتهن، وبذكر العزارى اللائى كان يلهو معهن، مخالفا بذلك فريقا من الشعراء الذين لم يفحشوا[٦٤]

فإمرؤ القيس يفتخر بغشيان المرأة المتزوجة ويقول:[٦٥]

وصرنا إلى الحسنى ورق كلامنا	ورضت فذلت صعبة أى إذلال
فأصبحت معشوقا وأصبح بعلها	عليه القتام سيءالظن والبـــال

وإن كان البعض يقول أن (مغامرات) إمرؤالقيس الجنسية كانت محض خيال ليعوض عجزا جنسيا كان يعانيه.

هذا بينما نرى شاعرا كقيس بن الخطيم يبرأ بنفسه عن أن يغشى المرأة المتزوجة فيقول فى الفخر بمواصلة العذارى:

ومثلك قد أحببت ليست بكنة	ولاجارة ولاحليلة صاحب[٦٦]

(جـ) عزة نفسها: فلم يؤثر عن المرأة العربية استخذاء أو تخاضع، فتروى الأخبار عن (سلمى الكنانية) أن (عروة بن الورد) قد سباها، فأعتقها وتزوجها، وعاشت معه بضع عشر سنة ولدت له فيهن أولادا، ولكنها كانت ضيقة الصدر بهذه الحياة لأنها أنفت أن تقول للنساء أنها سبية، وأنفت أن يتزوجها عروة قسرا، فاحتالت عليه، حتى عادت إلى قومها، وكان لا يشك فى أنها أرغب الناس فيه، وقالت لقومها أنه خارج بى .. فتعالوا إليه وأخبروه أنكم تستحيون أن تكون امرأة منكم معروفة النسب صحيحته سبية، وأفتدونى منه. واستطاعوا بالفعل عن طريق إسكاره أن يطلقوها منه، وقال فيها بعد ذلك شعرا[٦٧].

وروى كذلك أن فاطمة بنت الخرشب، رمت نفسها من فوق جمل قيس بن زهير فرارا بها من أن يسبيها، فيلحق بها وبأبنائها عار السباء[٦٨].

وقد استطاعت (عبلة) بسلوكها الذى نم عن عفة وعزة نفس أن تؤثر فى شخصية شاعر مثل عنترة بن شداد، فنلمس لديه اتجاها مناقضا لاتجاه إمرؤ القيس، أن للمرأة، لدى عنترة وصفا مخالفا تماما، نجده فى شعره أشبه (بالأمل المنشود)، فينظر اليها نظرة فيها التسامى والعشق الشديد والنزوع نحو المرأة - المثل - فعبلة، كانت بعيدة عنه اجتماعيا ومكانيا، وكانت سببا مباشرا فى إقباله على القتال بما عرف عنه من بسالة وشجاعة، فقد أغرم بها الشاعر، لأنها تجمعت فى شخصيتها، ومن شخصها أكثر المواهب مثارا للإعجاب فى فتاة تعيش فى الصحراء، فروحها المرحة وتقبلها للحظ العاثر واحترامها لمن يكبرها، جعلها مثار حديث القبيلة، وإذ هى تخطو من مرحلة الصبى إلى الأنوثة سرعان ما أصبح جمالها أسطوريا، فلا شك أنها تمتلك قلب ذلك البطل (الناشىء) الطامح إلى تحقيق وضعه فى القبيلة، ومن ثم أصبحت عبلة نتيجة للوضع الاجتماعى والبطولى والنفسى والخلقى (المرأة المنشودة) لا (المرأة العادية)[٦٩].

(د) ممارسة بعض الأعمال غير المنزلية: فقد اشتهرت بعضهم بالطب فى الجاهلية، كزينب، طبيبة بنى عواد، كانت تعالج الأبدان وتطب العيون، وتداوى الجراح[٧٠].

وكانت تغزل وتنسج، ولم يكن أحب إليها فى فراغها من الغزل والنسج.

وبعضهن احترفن الإرضاع، ولاسيما أهل البادية، إذ كان الحضر يسترضعن البدويات ويعطونهن أولادهن ليربينها.

ومهن من كن ينسجن الحصر وينمقنها ويزخرفنها[٧١].

هوامش الفصل السابع

١ – صالح العلى، محاضرات فى تايخ العرب، جـ١، ص١٣٦.
٢- أحمد محمد الحوفى، الحياة العربية فى الشعر الجاهلى، نهضة مصر، القاهرة، ١٩٥٢، ص١٥٧.
٣- المرجع السابق، ص١٥٥.
٤- عضلها: منعها التزوج ظلما.
٥- أحمد محمد الحوفى، المرأة فى الشعر الجاهلى، دار الفكر العربى، القاهرة، ١٩٦٣م، ص٥٢٦.
٦- عبد الله عفيفى، المرأة العربية فى جاهليتها وإسلامها، المكتبة التجارية، القاهرة، بدون تاريخ، جـ١، ص١٨.
٧- أحمد حسين شرف الدين، اليمن عبر التاريخ، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ١٩٦٤، ص٧٢.
٨- ويندل فليبس، كنوز مدينة بلقيس، بيروت، ١٩٦١، ص٣١٨.
٩- نيلسن، التاريخ العربى القديم، ص ١٥٥.
١٠- سورة النمل/٢٩-٣٣.
١١- السيد عبد العزيز سالم، تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ١٠٩.
١٢- أحمد الحوفى، الحياة العربية، ص٢١٤. عرسى:زوجتى. معمل المطى: أجهد الركائب فى السفر والرحلة. أصدع: أشق شمسها: نفرها وأفزعها.
١٣- المرجع السابق، ص٢١٥.
١٤- المرجع السابق، ص٢١٧.
١٥- المرجع السابق، ص٢١٩.
١٦- المفصل، جـ٤، ص٦١٧، ٦١٨.
١٧- المرجع السابق، جـ٥، ص٥٣٤-٥٤٢. زواج المقت: زواج الرجل من زوجة أبيه وقد حرمه الإسلام. استبضع: جعله بضاعة.
١٨- المرأة فى الشعر الجاهلى، ص٧٩. الهُجنة: العيب والقبح.
١٩- قصة الأدب فى الحجاز، ص٤٦٥.
٢٠- المرأة العربية، ص٤٧.
٢١- العقد الفريد، جـ٧، ص٢٧٣.
٢٢- المرأة فى الشعر الجاهلى، ص٨٧. النامق: الكثير الأولاد.
٢٣- قصة الأدب فى الحجاز، ص٤٦٥.
٢٤- المرأة العربية، جـ١، ص٥٤. الضوى: دقة العظم وقلة الجسم خلقة أو هزالا.
٢٥- الأم – بفتح الهمزة – القصد.
٢٦- تاج العروس، جـ١٠، ص٢٢١.
٢٧- لسان العرب، جـ١٩، ص١٢٥.

٢٨- أبو حيان التوحيدى، الامتاع والمؤانسة، لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، ص١٩٣٩، جـ١، ص ٩٥.
٢٩- ابن طيفور، بلاغات النساء، مطبعة مدرسة والدة عباس الأول، القاهرة، ١٩٠٨، ص١٤٠-١٤١. الجعل: الأجر.
٣٠- المرأة فى الشعر الجاهلى، ص١٥٧. غرر: تعرض للضرر. الورهاء: سحابة كثر مطرها، والمرأة الورهاء: الخرقاء.
٣١- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ١، ص٥٧.
٣٢- الألوسى، بلوغ الإرب، جـ١، ص٢٢.
٣٣- المرأة فى الشعر الجاهلى، ص١٥٩. المظاظ: شدة الخلق وفظاظته.
٣٤- قصة الأدب فى الحجاز، ص ٤٦٦.
٣٥- الميدانى، مجمع الأمثال، المطبعة البهية المصرية، القاهرة، ١٣٤٢هـ، جـ٢، ص ١٤٤.
* خمشى وجهه: جرح بشرته.
٣٦- العقد الفريد، جـ٢، ص٢١١.
٣٧- الأغانى، جـ١٦، ص٣٢٣. الشن: اليابس.
٣٨- البيان والتبين، جـ١، ص١٨٦، جـ٤، ص٤٧.
٣٩- النحل/٥٧-٥٩.
٤٠- النحل/٦٢. ٤١- الإسراء/٤٠.
٤٢- القرطبى، الجامع، جـ١٩، ص٢٣٢.
٤٣- المبرد، الكامل، القاهرة، ١٣٢٣هـ، جـ١، ص٢٨٨.
٤٤- القرطبى، الجامع، جـ٧، ص٩٧.
٤٥- المرجع السابق، جـ١٠، ص١١٧.
٤٦- المرأة العربية، ص٤٤.
٤٧- قصة الأدب فى الحجاز، ص٤٦٨.
٤٨- المرجع السابق، ص٤٦٩.
٤٩- الميدانى، مجمع الأمثال، جـ٢، ص٤٦.
٥٠- الأغانى، جـ٢، ص١٠٠.
٥١- البلاذرى، فتوح البلدان، ص٤٨٧.
٥٢- المرجع السابق، ص٤٥٨ (امر الخط).
٥٣- دهماء: زاد سوادها. جُل: غطاء. جلالها: غطاؤها.
٥٤- المرأة فى الشعر الجاهلى، ص٤٢٧-٤٢٨. الطريف: الطيب النادر، المطرفة: الشاة البيضاء، أطرف الأذنين وسائرهما أسود أو العكس، شطأ: خرج.
٥٥- الأغانى، جـ ١١، ص ١٩٠.
٥٦- تاريخ آداب اللغة العربية، جـ١، ص١٦٦-١٦٧.

٥٧- المرأة فى الشعر الجاهلى، ص ٥٩٠.
٥٨- مى يوسف خليل، الشعر النسائى فى أدبنا القديم، مكتبة غريب، القاهرة، ١٩٩١، ص٢٢.
٥٩- المرجع السابق، ص٢٤.
٦٠- المرأة فى الشعر الجاهلى، ص٤٣٤، راجب: ميت. يرمين دفعا: يرمين من فوق. الأطام: دفاعا عن أنفسهن.
٦١- الشعر النسائى، ص٧٦.
٦٢- المرجع السابق، ص٧٩.
٦٣- محمد جابر عبد العال الحسينى، الخنساء، وزارة الثقافة والإرشاد القومى، سلسلة أعلام العرب (٢٥)، يناير ١٩٦٤، ص١٠٠.
٦٤- صلاح عبد الحافظ، الزمان والمكان وأثرهما فى حياة الشاعر الجاهلى وشعره، جـ١، ص٣١٧.
٦٥- المرجع السابق، ص٣٢٠. ٦٦- المرجع السابق، ص٣٢٤.
٦٧- الأغانى، جـ٣، ص٧٦.
٦٨- المرجع السابق، جـ١٦،ص٢١.
٦٩- الزمان والمكان وأثرهما فى حياة الشاعر الجاهلى، جـ١، ص ٣٣١.
٧٠- المرأة فى الشعر الجاهلى، ص٣٩٨.
٧١- المرجع السابق، الباب الثانى، الفصل الثالث.

الفصل الثامن

التربية المهنية والفنية

معنى التربية المهنية فى العصر الجاهلى:

لا نستطيع بطبيعة الحال أن نزعم أنه قد كان هناك تعليم خاص فنى يتم فى معاهد على أيدى متخصصين فى الحرف والمهن والفنون المختلفة فى العصر الذى نؤرخ له، وإنما نقصد بناء على ما كشفت عنه الآثار وما كتبه الإخباريون - أنه ما دامت الحرف والمهن والأعمال الفنية قد وجدت مهما كان مستواها، فلابد أن وجدت بالتالى تربية مهنية وفنية تتم فى مواقع العمل نفسها وأثناء ممارسته. والمعلمون هنا هم الحرفيون والمهنيون والفنيون المهرة الذين يقومون بالعمل، والتلاميذ، هم هؤلاء الصبية الذين يساعدونهم فى أداء العمل وفى نفس الوقت يتعلمون أسراره وقواعده وأصوله، لا من كتب ولا عن طريق المحاضرات وإنما بـ (العمل) وعن طريق الخبرة ذاتها.

وكانت الحرف وراثية فى الغالب، يتعلمها الابن عن والده، وتنحصر فى العائلة، فتنتقل من الآباء إلىالأبناء، ولا يسمح لغريب أن يتعلم أسرار الحرفة وأن يقف عليها وخاصة فى الحرف المربحة، وفى الحرف التى تحتاج إلى مهارة ودقة وذكاء خوفا من وقوع المنافسة، وانتقال سر العمل والنجاح إلى شخص غريب فينافس أصحاب الحرفة فى عملهم، وينتزع منهم رزقهم، لذلك حوفظ على أسرار المهنة، ولم يبح بأسرارها حتى لأقرب الناس إليهم، وفى حالة اكتشاف رجل طريقة جديدة غير معروفة فى حرفته، فإنه يحتفظ بسره حتى لا يتسرب إلى الغرباء، ومنهم لا يعلم حتى أولاده سر المهنة إلا فى حالة شعوره بعجزه عن العمل أو بقرب وفاته ودنو أجله، خشية انتقال السر منهم إلى غيرهم، فينافسونهم على رزقهم، ومصدر قوتهم من هذا السر[1].

وينضم أصحاب الحرف بعضهم إلى بعض مكونين(صنفا)، أى طبقة خاصة تكون هى المؤسسة التربوية الأساسية التى تشرف على كل شيء تقريبا، لا على مجرد الإنتاج فقط، وإنما كذلك على التعليم المهنى والرعاية الإجتماعية والأدبية، فإذا مات أحدهم -مثلا- تعاونوا فى تشييعه ودفنه وفى مساعدة أهله ومواساتهم، وذلك لحماية رجال الحرفة من كل سوء قد يقع عليها، وللمحافظة على حياتها، ولا يسمح هذا التنظيم لأى غريب بأن يدخل بينهم، لأنهم جماعة ورثت حرفتها، فلا يجوز لمن ليس منها أن يزاحم أفرادها فيها.

وكان رجال بعض الحرف يتجمعون فى أماكن معينة، كما هو الحال فى الوقت الحاضر، كأن يتجمع الحدادون فى منطقة معينة، والصاغة فى حى، والنجارون فى حى، وذلك للتعاون فيما بينهم وتنسب تلك المحلات إليهم.

وقد تشتهرمدينة بحرفة من الحرف، فيكون لانتاجها شهرة واسعة وتباع بأسعار عالية. وقد تشتهر مدينة بحرفة من الحرف، فيكون لانتاجها شهرة واسعة وتباع بأسعار عالية. وقد تشتهر منطقة بجملة صناعات، فقد اشتهرت اليمن بسيوفها فى كل جزيرة العرب، واشتهرت بعقيقها كذلك، وبأنواع أخرى من التجارات. واشتهرت ثقيف بالدباغة[٢].

وكان الصناع من غير الرقيق يتناولون أجرا من عملهم، ومن ثم فهذا أجر كان عن الإنتاج ولم يكن عن(التعليم) أما الرقيق فلم يتناولوا أجرا لا على هذا ولاذاك اكتفاء بما كان يقدم لهم من طعام وملبس وحماية.

العرب يستصغرون شأن الحرف والمهن:

الحرفة، الطعمة والصناعة التى يرتزق منها، وهى جهة الكسب. وكل ما اشتغل الإنسان به أى أمر كان، فإنه عند العرب (صنعة)

و(حرفة) يقولون: صنعة فلان أن يعمل كذا، وحرفة فلان أن يفعل كذا، يريدون دأبه وديدنه[٣].

والمهنة عند العرب، الحذق بالخدمة والعمل. وامتهنه: استعمله للمهنة وابتذله،والماهن: العبد والخادم. والمهنة، العمل، و العامل، هو الذى يقوم بعمل ما، والعملة العاملون بأيديهم وهم الذين يرتزقون بعمل أيديهم. و العمالة، رزق العامل الذى جعل له على ما قلد من العمل[٤].

والمشهور عند العرب وعند الأعجام، أن العرب قوم يكرهون الاشتغال بالحرف والصناعات ويستخفون بشأن من يشتغل بها ويتزوجون منه ولا يزوجونه منهم. والحق أن هذا مما لم يكن شائعا فى الجزيرة العربية وحدها، وإنما كان شائعا فى كل مناطق العالم على وجه التقريب. ففى النصوص المصرية القديمة مثلا، نجد أبا ينصح ابنه بألا يكون حرفيا لأن ذلك ليس طريق السمو الاجتماعى والترقى الوظيفى فيقول له:"لم أر مطلقا الحداد أصبح سفيرا ولا الصانع مبعوثا، ولكنى رأيت الحداد يتلظى بالنار أمام الفرن، وأصابعه كالتمساح ورائحته أقذع من السمك والبيض"[٥] هذا على الرغم مما عرف عن المصريين القدماء من براعة فى احتراف العديد من الحرف.

وعندما أراد الفيلسوف اليونانى(أفلاطون) أن يرتب الطبقات الاجتماعية وضع (الحرفيين) فى أدنى السلم على أساس أن هؤلاء قوم لايستخدمون"عقولهم كثيرا، وإنما عليهم أن يكونوا مجرد (أدوات) تنفيذ تؤمر فتطيع"[٦].

وينطبق قولنا هذا على الأعراب، وعلى بعض الحضر إلى حد ما، لكنه لم ينطبق على كل العرب. فالعرب الحضر الذين وجد الماء بغزارة عندهم غرسوا الأشجارأيضا وزرعوا، لم يجدوا فى ذلك خسة ولادناءة. والعرب الذين توفرت لهم مواد العمل و ظروفه، اشتغلوا بالحرف و الصناعات، كما هو شأن الطائف وجنوب الجزيرة، بل

وبعض رجال مكة أيضا، أما الذين ازدروها، وكرهوها، فهم الذين لم تتوفر لديهم المواد الأولية ولا الظروف المساعدة على قيام الحرف، لذلك كرهوها كره من يكره شيئا لأنه لايملكه ولا يناله، أو لأن يده لا تصل إليه، ولو ملكه، لغير حكمه عليه من غير شك(٧).

وقد أشار (أمية بن خلف الهذلى)، إلى اشتغال أهل اليمن بالحرف بقوله:

يمانيا يظل يشد كيرا   وينفخ دائبا لهب الشواظ(٨)

وقد أمد أهل اليمن الحجاز وأماكن أخرى من جزيرة العرب بالسيوف وبمصنوعات المعادن وبالأنسجة. كما عرفوا بإتقانهم البناء والنجارة وغير ذلك من حرف الحضر التى أشير إليها فى الشعر الجاهلى.

وحتى نزداد فهما لأسباب كراهية العرب وغيرهم للحرفيين والمهنيين، علينا ان نتذكر كيف كان المجتمع العربى يضم بين جوانحه كما ضخما من العبيد، وكانت طبقة العبيد من بيض وسود، ومن تجرى فى عروقهم شائبة من دماء الهجناء والأغربة، فى وضع اجتماعى سىء، فقد سلبتهم الأرستقراطية العربية، المؤمنة إيمانا عميقا برابطة الدم كل ما يمكن أن يكون لهم من حقوق وفرضت عليهم من الواجبات ما أرهق كواهلهم وأهدر إنسانيتهم، وباعدت بينهم وبين الحياة الإنسانية الكريمة. وضيقت عليهم النطاق فى حياة مهنية ذليلة على هامش المجتمع(٩)، فلقد كانت هذه الطبقة محرومة مما نسميه الآن الحقوق المدنية، فليس لها حقوق الملكية و المقاضاة، وليس للعبد أن يتزوج إلا بإذن من سيده، على أن يتزوج رقيقا مثله، ولما كانت المهن والحرف والصناعات مما يتطلب جهدا شاقا وعناء ومخاطرة، أوكلوا أمرها للعبيد، فكان على هؤلاء أن يزاولوا الحلاقة والتجارة والحدادة والحياكة وقطع الأحجار وشق الطرق، إلى غير ذلك من أعمال فاكتسبت بمرور الزمن الاحتقار والازدراء من جانب العرب.

الزراعة:

شاعت كراهية الزراعة عند الكثيرين من العرب،حتى لقد امتدت هذه الكراهية إلى ما بعد ظهور الإسلام، فوجدنا بعض الصحابة يذمون العمل فى الأرض ويتركونه لأهل الذمة. وحتى لاتظل كراهيتهم هذه موضع تساؤل، يروون عن الرسول ﷺ، حديثا، من حسن الحظ أن للعلماء كلام فيه حيث أن منطق الإسلام وروحه بل وسيرة الرسول أيضا لا يقران هذا، فقد روى عن(أبى أمامة الباهلى) أنه قال، إذ رأى سكة وشيئا من آلة الحرث، فقال: سمعت النبى ﷺ يقول: لايدخل هذا البيت قوم إلا أدخله الذل. قالوا فى تفسيره: "لما يلزمهم من حقوق الأرض التى يزرعونها ويطالبهم بها الولاة، بل ويأخذون منهم الآن فوق ما عليهم بالضرب والحبس بل ويجعلونهم كالعبيد أو أسوأ من العبيد، فإن مات أحد منهم، أخذوا ولده عوضه بالغصب والظلم، وربما أخذوا الكثير من ميراثه ويحرمون ورثته، بل ربما أخذوا من ببلد الزارع فجعلوه زراعا، وربما أخذوا ماله"[١٠].

ومن الواضح أن المبالغة فى التفسير هنا تحمل الحديث أكثر مما يتحمل، فضلا عن عدم صحته نفسه، إذ أن من الثابت أن هناك أحاديث أخرى حثت على الزراعة، مثل :"ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان به صدقة"[١١].

وورد فى الحديث أن الرسول ﷺ كان يحدث جمعا من الصحابة عن الجنة وعن رجل زرع فى الجنة فاستوى نباته، وعنده رجل من أهل البادية، فلما انتهى الرسول من كلامه قال الأعرابى "والله لا تجده إلا قرشيا أو أنصاريا، فإنهم أصحاب زرع، وأما نحن، فلسنا بأصحاب زرع"[١٢].

وكراهة الزرع، كراهية نشأت من عدم توفر الماء والأرض لأكثر الناس، فصاروا يكرهونها، أما الذين ملكوها فلم يزدروها ولم يغضوا

من شأنها، والأعرابى لا يملك شيئا، فصار يكره كل شيء لا يملكه ولا يقدر عليه، من زراعة ومن صرف ومن قيود اجتماعية ومن تنظيم، ومن كل ما يخالف مألوفه من عرف وتقاليد، ولذلك صارت الزراعة من عمل أهل المدر، وعمل كل من وجد لديه الماء الوافر، ليأخذ منه ما يلزمه للزرع، وسادت القبائل الذين توفر الماء عندهم، أو كان لديهم المال لتشغيله فى البحث عن الماء، زرعوا مثل أهل الحضر، وشغلوا العبيد وأتباعهم فى الزراعة، لما وجدوا فيها من مكسب وربح، وكان للكثير منهم زرع وحوائط.

ونظرا لتغير الحال عندالعرب فى الإسلام، وظهور الدعوة فيه إلى الأمة والجماعة، فقد حث الرسول المسلمين على الزرع، وظهر من روى عن الرسول أنه قال: الزراعة أفضل المكاسب، وذلك لما فيها من عموم الانتفاع، حتى أن منهم من فضلها على التجارة للتوسعة على الناس، ولما للقوت الذى يأتى منها من صلة بحياة الناس. ومع ذلك فقد بقى العرف الجاهلى مسيطرا على عقلية السادة الكبار، من افتخارهم بحيازة الأرض، ومن ازدرائهم من الاشتغال بأنفسهم بها، فكانوا يستخدمون العبيد والأجراء وكراء الأرض فى استغلالها، فهؤلاء وأمثالهم خلقوا للعمل فى الأرض، أما هم فقد خلقوا ليكونوا سادة، عملهم امتلاك الأرض، وقد ظهر من هؤلاء جيل امتلك أرضا واسعة فى البلاد المفتوحة شغل فيها أهل الذمة، والنبط وسكان الأرض المفتوحة، ومئات الآلاف من الرقيق والعبيد، ولسيدهم الكسب الوفير والمغنم(١٢).

إلا أن هذا إذا كان يصدق على الشطر الأعظم من شبه الجزيرة، فهو لا يصدق على بعض مناطق الشمال والجنوب بصفة خاصة، ومن يجوب هذه المناطق حيث كانت مدائن معين وسبأ وحمير وغيرها من الدول القديمة لا يرى إلا رمالا محرقة وجبالا جرداء فيستغرب ما يسمعه من ثروة تلك الأمم وسعة سلطانها. والحقيقة أن تلك البادية

المحرقة، كانت على عهد ذلك التمدن بساتينا وغياضا، فيها الأغراس من الأشجار والرياحين والحنطة والأزهار. وكانت الزراعة فى رقى حسن، مع مشقة الرى فى بلاد لا نيل فيها ولا فرات، وإنما هى تسقى من السيول فى الشتاء(١٤).

وبلاد سبأ ذكر استرابون أنها أخصب بلاد العرب، وذكر من محصولاتها التمر، والبخور والقرنفل، والبلسم، وسائر العطريات، فضلا عن النخيل والغاب، ووصف الهمذانى وادى ضهر باليمن – وقد شاهده شهادة عين – فذكر فيه نهرا عظيما يسقى جانبى الوادى، وعليهما من أعناب نحو عشرين نوعا، قال: "وفيه أصناف .. من الخوخ الحميرى والفارسى والخلاسى والتين والبلس والكمثرى التى ليس فى الأرض مثلها، يقول ذلك من يفد صنعاء من الغرباء، والأجاص والبرقوق والتفاح واللوز والجوز والسفرجل والرمان"(١٥)

وكان العمل الرئيسى لسكان يثرب أيضا، هو الزراعة نظرا لطبيعة المنطقة، فقد كانت أرضها بركانية خصبة، وكانت تسيل بها وديان كثيرة تفيض بمياه السيول التى تتجمع فى الحراث الشرقية والجنوبية فى فترات مختلفة من السنة، فتسيل إلى الغرب والشمال، حتى تتجمع آخر الأمر فى شمال غرب المدينة، وهذه الوديان كانت تتخلل منطقة المدينة كلها فتروى أرضها(١٦).

وتدل البحوث والدراسات التى قام بها السياح والعلماء عن بلاد العرب، على أن تغيرا كبيرا طرأ على جوها، وأن هذا الجفاف الذى عهدناه فى هذه البلاد لم يكن على هذا النحو الذى كانت عليه فى عصور قديمة، وأن ذلك الجفاف أثر تأثيرا كبيرا فى شبه الجزيرة العربية فجعل أكثر بقاعها صحارى جرداء، كما أثر فى حالة سكانها، فقاوم نشأة المجتمعات الكبرى وأثر تأثيرا خطيرا فى تاريخ الأمة العربية، وفى حدوث الهجران(١٧).

ويرى العلماء أن الرياح الغربية الباردة المشبعة بالرطوبة كانت تصل إلى أرض شبه الجزيرة العربية وتنزل المطر عليها، وأن هذه البقاع الصحراوية كانت خضراء آهلة بالسكان، فمثلا المنطقة الواقعة بين (العلا) و(معان) من المناطق الصحراوية الآن، وقد كانت من مناطق الغابات المكتظة بالأشجار المملوءة بالحيوانات المفترسة[١٨]. وكانت جبال الطائف تمون مكة بالأخشاب الصالحة للبناء والوقود، كذلك المنطقة الواقعة بين مكة وعرفة كانت حتى القرن السادس عشر الميلادى مغطاة بالأشجار وبالعوسج والسلم، وهى من الأشجار الصحراوية.

وقد عرف وادى القرى، وهو واد بين الشام والمدينة، وهو بين تيماء وخيبر فيه قرى كثيرة وبها سمى وادى القرى[١٩]، قال أبو المنذر: سمى وادى القرى لأن الوادى من أوله إلى آخره قرى منظومة. وقد عبر القرآن الكريم عن ذلك فى قوله تعالى: ﴿وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة، وقدرنا فيها السير، سيروا فيها ليالى وأياما آمنين﴾[٢٠]، وآثار القرى إلى الآن ظاهرة، إلا أنها فى وقتنا هذا كلها خراب، ومياهها جارية تتدفق ضائعة لا ينتفع بها أحد[٢١].

وقد تطلبت الزراعة، تعلم أشياء أخرى يمكن أن تدخل فيما نسميه اليوم (هندسة الرى) وذلك للسيطرة على المياه ولاسيما مياه الأمطار. وقد عمد أهل الجاهلية إلى اتخاذ مختلف الطرق للتحكم فيها، بعضها بدائية وبعضها راقية تدل على براعة وعلم وفن، منها اتخاذ السدود للهيمنة على الماء وخزنه للاستفادة به عند الحاجة، وتوجيهه الجهة التى يريدونها. وقد أظهر العرب الجنوبيين مقدرة كبيرة فى الاستفادة من الأمطار ومياه الينابيع والأنهار لاستعمالها فى الإرواء والشرب والسقى. وتحكم مهندس الإرواء عندهم فى الماء وسيطر عليه لكيلا يذهب هباء، فاستخدم لضبطه الأبواب والفتحات والحواجز والرحاب،

ونوع فى المجارى وفى مسايل المياه، ليستفيد من الماء قدر إمكانه فلا يفلت منه شيء[٢٢].

ولعل أعظم الأعمال التى يجب أن تذكر فى هذا المجال: سد مأرب إحدى عجائب العالم القديم، والذى يرجع بناؤه إلى ما قبل ٢٧٠٠ عاما تقريبا، ويبعد عن صنعاء شرقا مسافة ١٩٣كيلومتر. وتدل طريقة بنائه على تقدم كبير فى هندسة الرى والبناء بمقاييس ذلك العصر[٢٣]، ويشير القرآن الكريم إلى ما تركه ذلك من أثر فى ازدهار المنطقة: ﴿لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال، كلوا من رزق ربكم واشكروا له، بلدة طيبة ورب غفور﴾[٢٤].

وهكذا يقدم إنسان المنطقة العربية الدليل تلو الآخر على قدرته على أن يطوع ظروف البيئة تيسيرا لحياته، ولذلك نجد أن المشروعات المائية تتعدد وتتنوع بطول البلاد وعرضها، ففى أقصى شمال الجزيرة العربية، عندما تتلاقى مع الشام نجد فى بلدة (بصرى)، كذلك (البركة الشرقية) لأنها تقع شرقى الطريق المستقيم الرئيسى حيث تعتبر أقدم خزان للمياه قائم حتى الآن فى المدينة، وتشبه إلى حد كبير تلك الأجزاء فى منطقة القيروان التونسية حيث تجمع مياه السيول وهى على شكل مربع تقريبا طول ضلعه ١١٤م وعمقها ٦متر، ويستدل من الحروف النبطية المحفورة على معظم أحجار هذه البركة أن تاريخ بنائها يعود إلى الزمن الأول قبل الميلاد عندما أخذت المدينة بالتوسع والتطور وأصبحت مركزا للقوافل، وكانت البركة متصلة بالمدينة بواسطة أنابيب فخارية فى منتصف جدارها الغربى، ويبلغ عرض جدرانها قرابة أربعة أمتار مدعومة بركائز متوصلة بعرض مترين تقريبا، وتتصل البركة بالأودية التى تجرى خلال فصل الشتاء والقادمة من الشرق[٢٥].

وفى الأماكن التى تكون المياه الجوفية فيها غير بعيدة عن سطح الأرض، ويكون من السهولة حفر الآبار فيها، كان العرب فى شبه

الجزيرة يحفرون آبارا فى بيوتهم وفى أملاكهم للشرب ولرى مزروعاتهم إن كانت عذبة، وللتنظيف والاستعمال. ويستعان بالخدمة وبالسقايين فى جلب مياه الشرب من الآبار العذبة والعيون والنهيرات، كما حفروا الآبار فى الحصون.

وقد وصلت إلينا نصوص عديدة فى حفر آبار وفى شرائها وبيعها وفى تعميرها وإصلاحها، وهى ثروة ورأس مال كبير فى جزيرة العرب، تحيى الأرض وتميتها وتغنى الناس وتميتهم، ولذلك كانوا إذا حفروا بئرا أو إذا ظهرت لهم مياه عذبة غزيرة يقدمون إلى آلهتهم الشكر والحمد والنذور، وقد أقامت الآبار الكبيرة مدنا، وأماتت مدنا بسبب نضوب مياهها وجفافها[٢٦].

المجال التجارى:

وكان الجاهليون مثل غيرهم من الشعوب الإسلامية، نشطون فى عالم التجارة، وفى اللهجات العربية ألفاظ ومصطلحات كثيرة لها صلة بالتجارة وبالتعامل وهى من اللغات العالمية الغنية فى هذه المادة. ويلاحظ بصفة عامة أن اللهجات السامية غنية كلها تقريبا بالألفاظ المستعملة فى البيع والشراء والتعامل والتجارة، وفيها مترادفات كثيرة فى هذا الباب، وكثرة هذه الألفاظ دليل على حذق الساميين عموما بالتجارة واقتنائهم بها، وعلى وجود عقلية تجارية لديهم، والتاريخ يؤيد ذلك فترى الساميين عموما، وهم أنشط من غيرهم، ينتقلون من مكان إلى مكان طمعا فى ربح، وركضا وراء تجارة، وهم من أحذق الناس يومئذ فى التحكم فى الأسعار وفى التعامل وفى البيع والشراء[٢٧].

ومن هنا كان طبيعيا أن يحرص الآباء دائما على أن يعدوا أولادهم لممارسة التجارة ويتم ذلك بإشراكهم معهم منذ الصغر فى السفريات والرحلات الخاصة بتبادل السلع والبضائع مع القبائل والمجتمعات الأخرى. وتحفظ لنا كتب السيرة النبوية، كيف كان الرسول يذهب مع

رحلة قريش التجارية صغيرا. وباصطحاب الأبناء لآبائهم فى الرحلات التجارية يكتسبون تدريجيا العديد من المهارات اللازمة للتجار.

والتجارة هى التى نقلت بعض الكتابات الشمالية إلى العربية الجنوبية، وأدخلت الكتابة الثمودية والكتابة النبطية إلى اليمن. وأصحاب الكتابتين من الشعوب المقيمة فى العربية الشمالية كما هو معروف، فكتاباتهم لم تأت إلى هنا قافزة متخطية المسافة، بل جاءت مع أصحابها التجار الذين قصدوا هذه الأماكن للاتجار، ومن بينهم من سكن فيها واختلط بأهلها ومات فيها، وقد كتبوا فيها الكتابات التى عثر عليها بعض العلماء فى أماكن متعددة من خرائب اليمن، وقد يعثر على عدد منها وعلى كتابات أخرى، وقد يكون من بينها كتابات بلغات أعجمية فى المستقبل(٢٨).

وكانت التجارة مجالا واسعا لإعداد نفر من الجاهليين للقيام بها، نفر غير قليل بطبيعة الحال نظرا لأن التجارة كما قلنا، كانت الحرفة الرئيسية للعرب القدامى بحيث يمكن القول أنها كانت مدرسة شاملة عرف منها العربى وفيها كثيرا من الأمور التى لا تنتمى إلى عالم التجارة قط، بل إلى ميادين ومجالات أخرى، منها على سبيل المثال، معرفة اللغات، فمن الثابت أن العرب القدامى تاجروا مع مصر القديمة، وقامت رحلات من جنوب الجزيرة إلى بلاد الشام وخاصة وقتما كانت تستظل بحكم الإغريق ثم الرومان. وتاجروا كذلك مع البابليين والآشوريين ومع الأحباش المجاورين لجنوب الجزيرة. وفى كل مجتمع من هذه المجتمعات، كانت تسود لغة مختلفة عن تلك التى تعرفها العرب، والمنطق يقول أن من غير المعقول ألا يوجد بين القبائل العربية التى جابت هذه البلدان من لا يعرف لغاتها مهما قل عددهم.

ولم تكن هناك المواصلات التى نشاهدها هذه الأيام، وإنما اعتمد الناس فى كثير من الأحيان على الدواب وعلى الأقدام يقطعون مئات، بل أحيانا آلاف الكيلومترات فى مناطق غير مرصوفة، فكان عليهم أن

يكونوا على دراية بمختلف المسالك والدروب الموصلة إلى ما يبغون. ويرتبط بهذا أيضا معرفة – نتيجة الخبرة والتجربة – بالأحوال الجوية فى مختلف الأوقات.

وإذا كانت معرفة لغات الأمم والشعوب التى تاجروا معها مهمة، فلا يقل عن ذلك أهمية، معرفة ما كانت عليه هذه الشعوب من عادات وتقاليد وما سادها من قيم سلوكية كى يحسنوا معاملتهم فهذا شأن من شئون التجارة الجيدة، وسبيل من سبل الكسب والربح.

ثم هناك أيضا ضرورة معرفة مختلف أنواع السلع والبضائع التى تحتاجها كل منطقة والبلاد التى تنتجها ومواسم زراعتها وكيفية المفاضلة بينها، وأفضل وسائل شحنها، والحد الأقصى للزمن الذى يمكن أن يستغرقه نقلها إلى أماكن بعيدة.

ونظرا للمشقة التى كان يصادفها القائمون بهذه الرحلات التجارية، وطول الوقت الذى كانوا يستغرقونه، كان الأمر يستدعى استعدادا جسميا ونفسيا معينا يجعل القائم بالعمل قادرا عليه، ودربة طويلة عليه أيضا.

ولجزيرة العرب سواحل طويلة تحيط بها من جميع جهاتها الثلاث (جنوب، شرق، غرب)، ولا يعقل بالطبع ألا يكون لسكان هذه السواحل علم بالبحر، وألا تكون لهم سفن مهما كان حجمها، كانوا يركبونها فى تجارتهم مع أفريقية ومع بلاد الهند وإيران، فقد علمنا أن العرب الجنوبيين كانوا قد أقاموا دولة (أكسوم) فى الحبشة[٢٩]. وقد رأينا من كتب بعض الكتبة اليونان أن الصومال كان يحكمه حكام عرب، وأن التجار العرب كانوا يشاهدون بكثرة على مقربة من زنجبار، وقد كان أكثر ثراء العربية الجنوبية من التجارة، لا البرية فقط، بل البحرية كذلك، والاتجار بالمواد الناتجة فى جزيرة العرب ذاتها، والاتجار بالمواد المستوردة من الخارج لاسيما السواحل الأفريقية أو الهند[٣٠].

وتذكر بعض المراجع أن عبد شمس أخو المطلب بن عبد مناف اتصل بالنجاشى وأبرم معه اتفاقا، فأصبحت الحبشة لقريش وجها ومتجرا(٣١).

المجالات الحرفية:

النسيج والحياكة: وكانت من الحرف التى تكتسب الكثير من الازدراء والاحتقار عند العرب القدماء، وكانت عملية الغزل يقوم بها النساء فى أغلب الأحوال، أما الحياكة والنسيج فقد تمتاز فى الحضر. وقد أعانهم على هذه الحرفة كثرة الصوف المستمد من الأغنام. وكانوا بحاجة إلى الأنسجة وحياكتها بطبيعة الحال لملابسهم ومن اللوازم التى احتاجوا إليها فى بيوتهم والحياة اليومية والتجارية، الحبال المستعملة من لحاء الشجر فى بعض الأحيان وقد ازدهرت صناعة غزل القطن ونسجه فى اليمن فى بقية العربية الجنوبية فى القرن السادس الميلادى. ولم يكن المتعاطون لهذه الحرف هم أصحاب معامل النسيج، ولكن أصحابها الأغنياء والمترفلون. أما المشتغلون بها، فعمال يشتغلون فيها بأجر يتقاضونه، ومنهم من كان رقيقا مملوكا يعمل لحساب سيده ومالكه فى مقابل قيامه بأوده، والقليل من العمال من كان يملك مصانع نسيج تعمل له وتدر الربح عليه(٣٢).

الدباغة: وقد اشتهر بها اليمن أيضا، وبالاستفادة من الجلود فى أغراض متعددة وبتصدير الجلود إلى أماكن أخرى من جزيرة العرب، واشتهرت كل من مكة والطائف كذلك بهذه الحرفة. والواقع أن اعتماد العرب الجاهليين على الجلود كان كبيرا لأنها كانت متيسرة لديهم وهى أسهل فى العمل من الخشب أو الحديد.

النجارة: والنجارة من الحرف القديمة المهمة فى المدن. وقد عثر على نماذج من مصنوعات خشبية فى اليمن تدل على حذق النجار

وذكائه وتقدمه فى مهنته. ويظهر من روايات أهل الأخبار أن أهل مكة والمدينة لم يكونوا على حظ كبير فى النجارة، ولذلك كانوا يستعينون بالرقيق وبالأجانب فى أعمال تجارتهم كاليهود أو الروم فى تلك الأيام ويعلل أهل الأخبار ذلك، بسبب أنفة العربى من الاشتغال بالحرف، فاعتمد على الأجانب من الرقيق فى أداء هذه الحرفة[٣٣].

الحدادة: وقد دفعت حاجة الإنسان إلى المعادن لاستخدامها فى أمور حربية وزراعية وفى البيت إلى انصرافه إلى الاشتغال بها لتحويلها إلى أشياء نافعة. وقد حدث هذا بين أهل الحضر غالبا، أما أهل الوبر الأعراب، فلبساطة حياتهم لم يشعروا بمثل هذه الحاجة، وإن شعروا، ابتاعوها من المدن. وقد استغل اليهود أنفة أهل المدينة والعرب الصرحاء من الاشتغال بالحدادة، فاحتكروها لأنفسهم وربحوا منها وذلك بإنتاجهم الأدوات والآلات الزراعية وصنعهم الأسلحة اللازمة لكل إنسان لحماية نفسه.

حرف أخرى: وكانت هناك حرف أخرى، منها تلك التى تتصل بتهيئة الأكل للإنسان من تقديم أكل وشراب، وما يتعلق بهما من أعمال مساعدة فى تهيئة ذلك، فيدخل فيها طحن الحبوب والطبخ والخبز والأوانى وما شابه ذلك من أمور. وكذلك حرفة الحلاقة، واحتراف البعض صنع الحصر والسلاسل والقلل والسرر.

التربية الفنية:

(أ) العمارة: إن فن العمارة عند شعب من الشعوب تتحكم فيه عادة، مادة البناء التى تجود بها طبيعة البلاد التى تعاون على إقامة دعائم فن العمارة. فإذا نظرنا إلى بلاد العربية الجنوبية، وجدنا طبيعتها سخية جدا بالأحجار خاصة بالجرانيت والجبس والأحجار الجيرية والبازلت.

ومن هنا ندرك السر فى تقدم العمارة هناك. فلولا وجود هذه المواد، ما استطاع العربى الجنوبى أن يشيد هذه الأبنية الخالدة المكونة من طابق فوق طابق وأكثر حتى بلغت فى ارتفاعها الأبراج. كما أن وفرة الرخام بأنواعه عاون المهندس المعمارى على إقامة الأعمدة والنحات على تحقيق سائر أغراضه(٣٤). أما الآثار والمبانى التى تدلنا على كل هذا فنذكر منها: قصر غمدان(٣٥) وقصر (ريده)(٣٦).

(ب) الفنون اليدوية والفنون الدقيقة: من بين الآوانى والأطباق الفضية الجميلة والأسرة والموائد ذات الأرجل الفضية والكئوس الفضية والذهبية التى تركها السبأيون والتى يتحدث عنها أمثال (أجاثرشيدس) و(سترابون) لم يصلنا منها شىء للأسف الشديد. لكن من حسن الحظ، وصلتنا من الأدوات المنزلية المدنية، قطعة جميلة ترجع إلى عصر متأخر، وهى تعطينا فكرة لا بأس بها عن الفن اليدوى عند العرب الجنوبيين، وكذلك وصلتنا مجموعة لا بأس بها من الهدايا من اللوحات التى عليها كثير من الكتابات والتماثيل الصغيرة والأفاعى والجمال والخيول(٣٧).

والفنان العربى الجنوبى حاول جهد طاقته إظهار شخصيته فى أعماله الفنية، وهو وإن كان قد حاكى غيره وقلده فى بعض الأمور، غير أنه نجح فى إعطاء فنه صورة المحيط الذى عاش فيه فنرى السحنة اليمانية على وجوه بعض التماثيل، ولاسيما فى أوجه الرجال، ونجد الطابع العربى الجنوبى يبرز على بعض المصنوعات.

والحديث عن الفن فى الحجاز قبل الإسلام، مقتضب مختصر لأن البحث العلمى لم يبدأ هناك حتى الآن، فاقتصر به على ما فى الموارد الإسلامية وحدها، وهو إشارات عارضة حيث أشير إلى وجود تصاوير وأصنام فى الكعبة أمر الرسول ﷺ بطمسها وكسرها(٣٨).

هوامش الفصل الثامن

١- المفصل، جـ٧، ص٥٤٦.
٢- المرجع السابق
٣- تاج العروس، جـ٦، ص٦٩، حرف.
٤- المرجع السابق جـ٩، ص٢٥٤وما بعدها، (مهن).
٥- سعد مرسى أحمد وسعيد اسماعيل على، تاريخ التربية والتعليم ، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٧٤،ص ٢٧.
٦- المرجع السابق.
٧- المفصل، جـ٤، ص٢٧٩.
٨- تاج العروس، جـ٩، ص٣٧١(يمن).
٩- مكة والمدينة، ص٣٨.
١٠- المفصل، جـ٧، ص٣٧.
١١- صحيح البخارى، كتاب المزارعة، وفى كتاب الأدب فى باب رحمة الناس والبهائم. وانظر أيضا صحيح مسلم، كتاب البيوع، فى باب فضل الغرس والزرع.
١٢- المفصل، جـ٧، ص٢٧.
١٣- المرجع السابق، ص٢٨.
١٤- جورجى زيدان، العرب قبل الإسلام، ص١٦٠.
١٥- المرجع السابق.
١٦- ياقوت الحموى، معجم البلدان، جـ١٧، ص٩١، جـ٨، ص٢٣٤.
١٧- المفصل، جـ١، ص٩٢.
١٨- أحمد إبراهيم الشريف، مكة والمدينة، ص١٠.
١٩- ياقوت الحموى، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٧٩، م٤، ص٣٣٨.
٢٠- سبأ/١٨.
٢١- سعيد اسماعيل على، النبات والفلاحة والرى عند العرب، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٨٣، ص٥٤.
٢٢- المفصل، جـ٧، ص٢٠٠.
٢٣- اليمن عبر التاريخ، ص١٢٢.
٢٤- سورة سبأ/١٥.
٢٥- عبد الرحمن حميدة، بصرى، عنقود العنب، مجلة الفيصل، الرياض، العدد (٣٥)، جمادى الأول ١٤٠٠هـ/أبريل ١٩٨٠، ص٤٢.
٢٦- المفصل، جـ٧، ص١٨٢.
٢٧- المفصل، جـ٧، ص٢٢٧.
٢٨- المرجع السابق، ص٢٤٢.

٢٩- المرجع السابق، ص٢٦١.
٣٠- المرجع السابق، ص٢٦٢.
٣١- الأغانى، جـ٨، ص٥٢.
٣٢- المفصل، ج٧،ص٦١٠.
٣٣- المرجع السابق، ص ٥٤٧.
٣٤- التاريخ العربى القديم،ص ١٥١.
٣٥- ياقوت، ح٢،ص ١٨٦١.
٣٦- بلوغ الأرب،ح١ ،ص٢٠٥.
٣٧- التاريخ العربى القديم ،ص ١٦٠.
٣٨- المفصل، جـ٨، ص٨٣.

الفصل التاسع

الأسس الفكرية

عندما يعتزم باحث أن يدرس فكر أمة من الأمم، يتبادر إلى الأذهان على الفور، أنه لابد أن تكون لهذه الأمة أفكار ونظريات ومذاهب قد بلغت درجة تفوق المستوى المتوسط فى الفكر إلى الحد الذى جعلها تستحق الدراسة. والحق أننا ننفى أن تكون هذه قاعدة صحيحة تماما، إذ لا تعنى دراسة أى موضوع أنه على مستو راق ومرتفع، وإنما فقط أنه موجود، أما على أى مستوى، فهذا لا يعتبر شرطا للدراسة. وقد يسأل سائل أيضا: كيف لا نشرط (مستوى الوجود) لدراسة موضوع ما، والعلم يعنى أكثر بالموضوع صاحب الأثر والفاعلية فى الظواهر الأخرى، ولا يكون الموضوع ذا أثر وفاعلية، إلا بقدر وجوده من حيث (الكم) و(النوع)؟ فأبادر بالايجاب، لكنى أضيف إلى ذلك، أننى إذ استخدم كلمتى (الأسس الفكرية) لا (الفكر)، فهذا يعنى أن ما سوف أكشف عنه، على بساط هذا البحث، إنما هو (قطع) من (الرأى) و(النظرات) و(الآراء) لم تبلغ درجة عالية فى العمق والاحاطة والشمول، كما أنها لا ترتبط فى مجموعها مكونة نسقا متكاملا مهما تعددت جزئياته فهناك وحدة الاتجاه وتماثل المنهج.

ثم أننى أومن بأن الإنسان مهما كان مستواه الثقافى - فهو يصدر فى فعله عن (فكرة) معينة قد يكون على وعى بها وقد لايكون، والمستوى الراقى، هو ذلك الذى يدخل فى دائرة الوعى ويعبر عنه تعبيرا صريحا فى الكتابات أو الأحاديث والخطب المختلفة، وتستوفى فيه المسألة استيفاء متعمقا، ويكون فى مجموعه، كحبات العقد التى يمسكها خيط واحد، أما المستوى الساذج البسيط كالذى نكتب عنه، فيكون عادة (متضمنا) فى الفعل، لاشعوريا، يفتقد الترابط والاتساق، مثله كومضات خافتة سريعة قصيرة النفس.

ومن هنا فقد كان علينا بالتالى أن نؤكد أن هذه الحياة الجاهلية بأبعادها المختلفة، حركتها (آراء) معينة، ووجهتها (نظرات) – لانظريات – متباينة، ولابد من الغوص فى جزئيات هذه الحياة، حتى نستخرج منها هذه (الآراء، وهذه النظرات).

فكرة الألوهية:

تختلف نظرة الإنسان إلى الخالق باختلاف تطوره ونمو عقله، ولهذا نجد فكرة (الله) (الإله) التى تقابل كلمة Deus فى اللاتينية، وكلمة Theos فى اليونانية، وكلمة God فى الإنجليزية تختلف باختلاف مفاهيم الشعوب ودرجات تقدمها، فهى عند الشعوب البدائية القديمة والحديثة فى شكل يختلف عن مفهومها عن الشعوب المتحضرة، كذلك اختلفت عند سكنة البوادى عن سكنة الجبال والهضاب، ويختلف مفهوم فكرة الله عند الشعوب السامية عنها عند الشعوب الآرية، لأسباب عديدة يذكرها علماء الأديان[١].

ومن الثابت أن بيت القصيد فى فكرة الله عند العرب الأقدمين، مركز فى مسألة تقديس الثالوث الفلكى: القمر – الشمس – النجم الثاقب (الزهراء). وقيام هذا الثالوث نشأ لا عن تطور من بسيط إلى مركب، بل من عوامل طبيعية، كانت فى الأصل ميتة، وهنا نلتقى بنفس التطور الذى حدث فى التفكير الدينى، فكل نواحى الحياة الدينية كانت أصلا تفهم من الناحية الطبيعية المادية، فالله فى تصور القدماء، شيء مادى قد يراه الإنسان فى السماء أو فى هيئة صنم، وهو يشعر ويحب. ومع مرور الزمن، تحولت النواحى المادية إلى أخرى مثالية فأصبحت الأفلاك السماوية الميتة عبارة عن شخصيات لها كيانها الخاص[٢].

وتعتمد العلاقة بين الله والإنسان على أسطورة الأسرة والقرابة، وهذه العلاقة هى علاقة الأب وأبنائه، وهذه الظاهرة تتبين لنا بصفة خاصة عند العرب الجنوبيين فى أسماء الأعلام وقد أدرك (روبرتسون سميث) هذه الظاهرة، وقرر أن الديانة قائمة على علاقة القرابة.

وباستقراء عدد غير قليل من أشعار الجاهليين، نجدهم يذكرون (الله) ولكن المستشرق نولدكه، يؤكد أن رواة الشعر وحملته في الإسلام، هم الذين أدخلوا اسم الجلالة في هذا الشعر[٣]، بيد أننا لا نستطيع أن نقر هذا الرأى، فقد سبق أن أشرنا إلى آيات من القرآن الكريم تفيد إيمان قريش بإله واحد خلق الكون وهو رب السموات والأرض، وإنما الذى أنكره الإسلام عليهم وحاربهم من أجله وسفه أحلامهم عليه هو تقربهم إلى الأصنام والأوثان وتقديسهم لها تقديسا جعلها فى حكم الشركاء والشفعاء ومرتبة الألوهية، والإسلام لا يعترف بهذه الأشياء، وهو ينكرها. ومن هنا حاربته قريش ومن كان على هذه العقيدة من حلفائها ومن القبائل التى كانت ترى رأيها.

والإشارة إلى شركهم واضحة فى قوله تعالى ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله وهم مشركون﴾[٤] وقوله: ﴿ومن الناس من يتخذون من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله﴾[٥] وقوله: ﴿ذلك بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم وأن يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلى الحكيم﴾[٦]. وذكر القرآن أن العرب عبدوا الجن: ﴿قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم، بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم به مؤمنون﴾[٧].

والإشراك بالله له صور، ولكل صورة طائفة[٨]:

١- منهم من اتخذ آلهة من الأجسام المعدنية كالحجر والذهب والفضة والنحاس.

٢- ومنهم من اتخذه من النبات كالشجر.

٣- ومنهم من اتخذه من الإنسان.

٤- ومنهم من اتخذه من الأجسام البسيطة:

- إما سفلية، كعبدة النار وهم المجوس.
- وإما علوية، كعبدة الشمس والقمر وسائر الكواكب وهم نوع من الصابئة.

٥- ومنهم من قال بالأثنية: النور والظلمة وهم الوثنيون.

٦- ومنهم من قال الملائكة عبارة عن الأرواح الفلكية، ولكل أقليم روح من الأرواح الفلكية يديره، وكذا لكل نوع من أنواع هذا العالم فيتخذون لتلك الأرواح صورا وتماثيل يعبدونها وهم عبدة الملائكة.

وقد كان صنف من العرب يعبدون الملائكة وهم بخلاف الصابئة الذين يقدسون الملائكة ولا يعبدونها، ويزعمون أنها بنات الله فكانوا يعبدونها لتشفع لهم إلى الله، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون﴾، وقوله: ﴿أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، ألكم الذكر وله الأنثى. تلك إذا قسمة ضيزى﴾.

٧- ومنهم من قال للعالم إلهان:
- أحدهما خير وهو الله.
- والآخر شر وهو الشيطان.

وهؤلاء هم الذين يشير إليهم القرآن الكريم بقوله "وقال الله لا تتخذون إلهين إثنين إنما هو إله واحد"

ومن قدامى العرب من كان يتعمق في عبادته حتى يرى الله وراء حقيقة الوجود، فوجه إليهم القرآن هذه الأسئلة: ﴿قل لمن الأرض ومن فيها ان كنتم تعلمون. سيقولون لله: قل أفلا تذكرون. قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم. سيقولون لله، قل أفلا تتقون. قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون. سيقولون لله. قل فأنى تسخرون﴾[1].

وقال: ﴿ولئن سألتم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ليقولن الله، قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون﴾.

وكان المقدم على المعبودات التى حوتها الكعبة إذ ذاك، الله (الإله) على أنه لم يكن الوحيد عندهم بل لعله نشأ عن تجريد معنى الألوهية أو حصرها فى واحد من آلهة الكعبة المتعددة. واسم (الله) عريق فى

القدم، اعتقد المستشرق (درنبورغ) أنه رآه في رقيم معين قديم. وفي نقوش صفا ورد الاسم هكذا (هلاه)، وذلك قبل بزوغ الإسلام بخمسة قرون. ولقد ورد أيضا رقيم نصراني يرجع إلى القرن السادس الميلادي عثرت عليه بعثة جامعة برنستون إلى سورية. وكان اسم والد محمد هو عبد الله، وهو اسم مركب من عبد، أي خادم أو عابد، والله، وهو الاسم الذي نعرض له[١٠].

ووجد أشخاص ينذرون مايتمتعون به من مواهب وقدرات لما يعبدون، بأن يتعهد الشخص أن يقوم بترنيم التراتيل الدينية في الأعياد أو في أوقات الصلوات والمناسبات في ذلك المعبد، أو يقوم فيه بأعمال فنية مثل رسم منظر ديني أو تزيين معبد الإله[١١].

ونذر البعض إبنه أيضا بأن يجعله خادما للمعبد أو للصنم أو الكنيسة ذكرا كان أو أنثى، وفي القرآن ﴿أني نذرت لك ما في بطني محررا﴾[١٢] كذلك، كانت تسمية بعض الأبناء ترجع إلى النذر، كأن يذكر الناذر في نذره أنه إن أجاب الإله الفلاني طلبه وبارك له ومنحه طفلا، يسميه عبده، أي عبد ذلك الإله الذي نذر له. وكثير من الأسماء المبتدئة بـ(عبد) يليها اسم (صنم) هي من هذا القبيل: (عبد مناف) و(عبد مناة)[١٣].

ويبدو أنه قد كانت هناك أيضا عادة تقديم (الابن) قربانا. وقصة عبد المطلب في هذا المجال مشهورة، إذ يذكر أهل الأخبار أنه قد نذر أن توافى له عشرة رهط، أن ينحر أحدهم، فلما اكتمل العدد، قرر الوفاء بنذره، وذلك بذبح أحدهم. وإذ لم يكن قد عين الولد الذي سيذبحه ذهب كعادة أهل مكة إلى (هبل) يستقسم عنده، فلما أصاب النصيب (عبد الله) ذهب إلى (إساف) ونائلة وثني قريش الذين تنحر عندهما ليذبحه، فقامت قريش من أنديتها: فقالوا: ماذا تريد يا عبد المطلب؟ قال: أذبحه. فقالت قريش وبنوه: والله لا تذبحه أبدا حتى تعذر فيه، لئن فعلت هذا لايزال الرجل لا يأتي بابنه حتى يذبحه، فما بقاء الناس على هذا؟ ثم سألوه أن

يذهب إلى عرافة كانت بالمدينة لها (تابع) لترى رأيها في الموضوع، فلما ذهب إليها، وجدها بخيبر، فأشارت إليه أن يعود إلى مكة، ثم يضرب بالقداح على إبنه وعلى عشر من الإبل وهو مقدار الدية عندهم فإن خرجت القداح على عبد الله ضربوا القداح مرة أخرى، فإن خرجت القداح على عبد الله مرة أخرى، أعادوا الضرب حتى يقع على الإبل، فيكون الرب قد رضى عنه، فتنحر الإبل عندئذ، فسمع نصيحتها وفعل، ونحرت الإبل فدية عن ابنه (عبد الله)[١٤].

اللاعقلانية:

ولا شك في أن العرب في هذه المرحلة شأنهم في ذلك شأن الجمهرة الكبرى من الشعوب - قد افتقدوا القدرة - في كثير من الأحيان - على إدراك العلاقات السببية بين الظواهر المختلفة، وتركوا لخيالهم العنان في أن يربط هو كما يشاء بين الظواهر.

فهنالك بين ثنايا الجبال، وبين أعطاف المفاوز، صنوف من الخرز مما فصل من شعب الصخور، وتناولته يد القوم، فأبدعت أشكاله ونوعت ألوانه بما سلطت عليه من وهج الشمس ونزول المطر. وألقى في روع الجاهلي أن لكل طائفة من هذا الخرز أثر في إصلاح أمره من اجتلاب الخير، أو دفع مكروه، وأعد لهم السحرة كلمات يلقونها على كل قرين لتستثير ما يطويه من أثر صالح وسر كمين، مثال ذلك: (الكحلة)، وهى خرزة تجعل على الصبيان فتقيهم أذى العين والنفس من الجن والأنس. ومن أساليبهم التربوية كذلك في هذا الشأن أن تعمد الأم إلى الوليد حين يولد فتخطط عليه من صمغ السمر - وهو شجر من أشجار البادية يزعم العرب أن الجن يرهبونه - ثم يعلق عليه سن ثعلب أو هرة[١٥]. ومن حديثهن أن جنية أرادت صبيا، فلم تقدر عليه، فلما رجعت، قيل لها في ذلك، فقالت: كانت عليه (نفرة، ثعالب وهررة، والحيض حيض السمرة)[١٦].

وربما علقن عليه كعب أرنب، لأن الأرانب لا يعلوها الجن ولا يقربونها،قال ابن الأعرابى قلت لأعرابى من علق على نفسه كعب أرنب لم يصبه جنان الحى، ولا عمار الديار. فقال: أى واللـه ولا شيطانة الحماطة ولا غول القفر وتطأ عنه نير السعالى[١٧].

وفى معتقداتهم أن الجن هى التى تصد الثيران عن الماء حتى تمسك البقر عن الشرب فتهلك. يقول الجاحظ: وكانوا إذا أوردوا البقر فلم تشرب، إما لكدر الماء أو لقلة العطش، ضربوا الثور ليقتحم الماء، لأن البقر تتبعه[١٨]. فكانوا إذا امتنعت ظنوا ذلك من عمل الجن وإيحائهم. ولهم فيها كثير من الأساطير، عرض لها الجاحظ فى الجزء السادس من حيوانه، فتحدث عن مواطنها فى رأيهم وإنها تركب النعام والظباء والحشرات وأنها تتصور فى صورة كثيرة، وتتوالد مع الناس، وقد تستهويهم وتقتلهم أو تخبلهم، ويسمع ليلا عزيفهم وهتافهم ولكل شاعر شيطانه الذى ينفث فيه الشعر. ومن شياطين الشعراء الشيصبان، ولافظ، شيطان امرىء القيس، وهبيد شيطان عبيد، وهاذر صاحب النابغة، ومسجل صاحب الأعشى، إلى غير ذلك من شياطين توهموها[١٩].

ولهذا طلب الجاهلى الفأل الحسن: بزجر الطير أو بأى شىء آخر، يقول الجاحظ: "والعرب إنما كانت تسمى بكلب .. وحجر، وجعل، وحنظلة، وقرد على التفاؤل بذلك،وكان الرجل إذا ولد له ذكر، خرج يتعرض لزجر الطير والفأل، فإن سمع إنسانا يقول حجرا، أو رأى حجرا، سمى ابنه به وتفاءل فيه الشدة والصلابة .. والصبر، وأنه يحطم ما لقى. وكذلك إذا سمع إنسانا يقول ذئب أو رأى ذئبا تأول فيه الفطنة والخب والمكر والكسب، وإن كان حمارا، تأول فيه طول العمر والوقاحة والقوة والجلد وإن كان كلبا تأول فيه الحراسة واليقظة وبعد الصوت والكسب وغير ذلك[٢٠].

والزجر هو الفأل، وأغلب ما يكون بغراب، إذا طار عن يسار البدوى فهو مدرك حاجته، وإذا تعب أمامه أو فوقه، ففيها تأخير[٢١].

وبالميسر وهو المقامرة، وتكون عادة بالجزور، والضرب بالقداح، وهو التقامر بالنبل والسهام والنرد وبالاستسقام بالأزلام وهى القداح[٢٢].

وكان هناك (تطير)، ذلك أنهم كانوا فى الجاهلية يعتمدون على الطير، فإذا خرج أحدهم لأمر فإن رأى الطير يمنة تيمن به واستمر، وان رآه طار يسرة تشاءم به ورجع.

وربما كان أحدهم يهيج الطير ليطير فيعتمدها وكانوا يسمونه: السانح والبارح، فالسانح ما ولاك ميامنه بأن يمر عن يسارك إلى يمينك، والمبارح بالعكس، وكانوا يتمنون بالسانح، ويتشاءمون بالبارح لأنه لا يمكن رميه إلا بأن ينحرف إليه، يقول ابن حجر: وليس فى شىء من سنوح الطير وبروحها ما يقتضى ما اعتقدوه، وإنما هو تكلف يتعاطى ما لا أصل له، إذ لا نطق للطير ولا تمييز فيستولى بفعله على مضمون معنى فيه. وطلب العلم من مكانه جهل من فاعله.

وقد كان بعض عقلاء الجاهلية ينكر التطير ويمتدح بتركه، قال شاعر منهم[٢٣].

ولقد عدوت وكنت لا ... على واق وحـــــاتم

فإذ الأشائم كالايــــا ... من والأيامن كالأشائم

وقال آخر:

الزجر والطير والكهان كلهم ... مضللون ودون الغيب أقفال

وإذا كانت الطيرة لا تكون إلا فى السوء، فإن الفأل عكس ذلك. قال ابن بطال: جعل الله فى نظر الناس محبة الكلمة الطيبة والأنس بها، كما جعل فيهم الارتياح بالمنظر الأنيق والماء الصافى وإن كان لا يملكه ولا يشربه[٢٤].

ثم إن ما كان يصنعه الجاهليون بأيديهم من أصنام وأوثان ليعبدوها، فيه دلالة واضحة على لا عقلانية تتصور أن هذه الأحجار والأخشاب وغيرها لها القدرة الفعلية على توجيه الإنسان وحمايته ﴿وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون. إنما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكا، إن الذين يعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا، فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له وإليه ترجعون﴾[٢٥].

وكانوا يعتقدون بالمسخ، وهو تحويل صورة إلى أخرى أقبح منها، وتحويل إنسان إلى حجر أو حيوان، ولهم اعتقادات فى مسخ الأطفال وتبديل الجن لهم بأولادهم من ذوى العاهات[٢٦]. وكانوا يرون أنه لكى ينشأ الطفل قويا شجاعا، فلا يتأتى ذلك بالتدريب الشاق، وإنما عليه أن يأكل لحم السباع[٢٧].

وإذا كنا نطلق كلمة (عبقرى) على السيد الكامل فى كل شىء، وعلى الذكى الممتاز[٢٨]، فهذه التسمية ترجع إلى مكان بالبادية اسمه (عبقر) زعم العرب أنها كثيرة الجن، فكلما رأوا شيئا غريبا بما يصعب عمله أو شيئا عظيما فى نفسه، نسبوه إليها.

طبيعة الإنسان:

على الرغم من ندرة المادة العلمية التى تكشف لنا عن تركيب الإنسان فى نظر الجاهليين، هل هو من جسد وروح، أو جسد ونفس أى ثنائى التركيب، أو أنه جسد وروح ونفس، أى ثلاثى التركيب، إلا أننا باستقراء القليل مما هو متوفر لنا، نستطيع أن نقول أنهم فى بعض الأحيان نظروا إلى الروح والجسد على أنهما شىء واحد، وفى أحيان أخرى فرقوا بينهما، لكن الغالبية كانت ترى أن الإنسان من جسد وهو الجسم، أى مادة ومن شىء لطيف، ليس بمادة هو الروح، أو النفس، وهما مصدر القوى المدركة فى الإنسان ومصدر الحياة، وإن بانفصالهما عن الجسد، أو بانفصال الجسد عنهما يقع الموت[٢٩].

وقد ارتبطت رؤية شعراء الجاهلية للنفس بالرؤية الجاهلية للزمان، وللحياة والموت، وبما سيطر على وعى الجاهلين من معتقدات، وقد كانوا على يقين بأن الموت ليس فناء الجسد فحسب، بل هو أساسا فناء للنفوس، يقول زهير[٢٠]:

بدا لى أن الناس تفنى نفوسهم   وأموالهم ولا أرى الدهر فانيا

ينكشف البيت عن وعى الشاعر بأن الفناء هو فناء النفوس، فالنفس هى مصدر الحياة، وفناؤها فناء لصاحبها. ويكشف قوله (بدا لى) عن إحساس بالتفرد، فالشاعر الجاهلى كان حكيم مجتمعه الذى يكشف لهم أسرار الوجود.

وقد سيطر على وعى الجاهلين الإحساس بفناء النفس، ومن ثم الإحساس بفناء الإنسان فى مواجهة الدهر الذى يستمر فى ديمومة لاتنتهى، وقد ترتب على ذلك إحساس بالتناهى إزاء لا تناهى الدهر، وهو إحساس صاحب الجاهليين، لافتقادهم الدين الذى يكشف لهم عن أسرار هذا الوجود، وعن الخالق، وعن حكمة هذا الخالق وراء ما يظهر من أحداث، ومن الحياة بعد الموت، تلك الحياة التى تمثل صمام الأمان بالنسبة للمؤمنين بالله فى مواجهة ما يعانون فى حياتهم من شقة وعنت، قال طرفة بن العبد:

أرى المرت اعداد النفوس ولا أرى   بعيدا غدا، ما أقرب اليوم من غد

وقد ترتب على ذلك نوع من اللامبالاة ..

وقد تحدث أكثر الشعراء الجاهليين عن النفس من منطلق أن النفس مقام الذات، فنرى حوارا بين الشاعر ونفسه، ونرى حديثا للشاعر عن حبه لنفسه، وبث الصدر فيها عند الشدائد ومشاورة للنفس ولونها، ومجاهدتها، وحملها على المشاق، وتعزيتها، وتعليلها بالمنى، كما نراهم يتحدثون عن كبح جماح النفس، وعن مغالبتها، وعذلها، والمخاطرة بها وشفائها، ولهفها، وجيشانها، ومرحها، وكذبها، وصدقها، وتلهفها، وسقمها، وإقدامها، وإكرامها، وهوانها، ولجاجتها، وتوقها، وتيقنها،

وتمنيها. وتراه يفدى بنفسه، ولا يعدل بها نفسا أخرى ويتحدث عن مهجة نفسه ومنية نفسه، وحاجات نفسه، وإحن نفسه، وجزعها، وصلاحها وفسادها(٣١).

وكانت التجربة الجاهلية فى مواجهة الحياة والموت أقرب إلى الموقف الطبيعى، ولم تلتحم تلك التجربة برؤية تكشف للجاهلين أسرار الوجود، وتفسر لهم أحداثه. وتمخض عن ذلك إحساس بالفناء والتناهى، وقد عبر حاتم الطائى عن ذلك بقوله:

تنوط لنا حب الحياة نفوسُنا ... شقاءً ويأتى الموت من حيث لاتدرى

ويقول عبيد بن الأبرص:

ما تبتغى من بعد هذا عيشة ... إلا الخلودَ ولن تنال خلودا(٣٢).

وقد واجه الشعراء الإحساس بالفناء بنوع من الإغراق فى اللهو أو المخاطرة، أو إتلاف المال طلبا لخلود الذكر، وتحقيق أى نوع من البطولة، واتسم مسلكهم بنوع من الإفراط فى الفعل، وقد ترتب على هذا الإفراط لوما وعذلا من المجتمع، متمثلا فى الزوجة، أو الأب، أو الأم أو العشيرة، أو المحبوبة. وقد كان الشعراء حريصين - فى مواجهة مثل هذا اللوم والعذل - على تبرير مسلكهم وإثبات تهافت دعوى العاذلين، بل إثبات بعد العاذلين عن الجادة.

وربط الشعراء بين العذل وجهل العاذل، وقلة إدراكه، كما ربطوا رفضهم للعذل بحتمية الموت، فما دام الموت - لا محالة - واقعا، فلا مبرر للعذل واللوم، يقول دريد بن الصمة(٣٣) :

أعاذل بعض لومك واقصدى ... وان كان علم الغيب عندك فارشدى

أعاذل كل امرئ وابن أمه ... متاع كزاد الراكب المتزود

أعاذل ابن الرزء فى مثل خالد ... ولا رزء فيما أهلك المرء عن يد

فالشاعر يخاطب عاذلته طالبا منها أن تقتصد فى لومها، مقررا أنها إن كان لديها علم للغيب فلترشد، والرشد هو المقابل لجهلها، وهو عنده ترك العذل، فالعارف ببواطن الأمور قادر على أن يعذر الناس. وهو لا

يطلب منها ترك العذل كلية، بل يطلب أن لا تكثر فى عذله. ويكشف هذا عن إقراره بأن مسلكه يستحق بعض اللوم لا كل هذا اللوم، وهو يقرن ذلك بحقيقة أن الإنسان كالمتاع، فهو ليس مخلدا، وأن المصيبة الحقيقية ليست فى فقد المال وإنما هى فى فقد الرجال.

ومن العرب من يزعم أن النفس طائر منبسط فى الجسم، فإذا مات الإنسان أو قتل لم يزل يطيف به مستوحشا على قبره. ويزعمون أن هذا الطائر يكون صغيرا، ثم يكبر حتى يكون كضرب من البوم، وهو أبدا مستوحش يألف المعطلة، ومصارع القتلى والقبور، وأنها لاتزال عند ولد الموتى ومخلفة لتعلم ما يكون بعده فتحبره[٣٤].

ويذهب المسعودى أيضا إلى القول بأنه "كانت للعرب مذاهب فى الجاهلية فى النفوس وآراء ينازعون فى كيفياتها، فمنهم من زعم أن النفس هى الدم لاغير، وأن الروح الهواء الذى فى باطن جسم المرء منه نفسه، ولذلك سموا المرأة منه نفسا، لما يخرج منها من الدم، ومن أجل ذلك تنازع فقهاء الأمصار فيما له نفس سائلة إذا سقط فى الماء: هل ينجسه أم لا؟ قال تأبط شرا لخاله الشنفرى الأكبر وقد سأله عن قتيل كيف كانت قصته؟ فقال: ألجمته غضبا. فسالت نفسه سكبا. وقالوا أن الميت لا تنبعث منه الدم، ولا يوجد فيه، بدأ فى حال الحياة، وطبيعته طبيعة الحياة والنماء مع الحرارة والرطوبة لأن كل حى فيه حرارة ورطوبة، فإذا مات بقى اليبس والبرد ونفيت الحرارة"[٣٥].

ومما يزعم العرب أن الإنسان بعد الموت إذ حل عليه الحول تحسرت عظام رأسه عن طائر على سنة البوم يجثم على شفير قبره: فإن كان صاحبه قتيلا، لم يؤخذ بثأره أقبل يصيح: اسقونى. اسقونى. فلا يزال على صاحبه حتى يؤخذ بثأره. وهم يسمون الطائر بالهامة، وعظام الرأس بالصدى.

قال ذو الأصبع العدوانى:

ياعمرو أن لا تدع شتمى ومنقصتى   أضربك حتى تقول الهامة اسقونى[٣٦].

ويذكر بعض الباحثين[٣٧] أن العرب القدامى كانوا يدينون بيوم القيامة ويرتقبونه ومما يتخذون العدة له، أن يحفروا على جانب من قبر صاحبهم حفرة، ويقيموا بها بعيرا يعلقونه، لا يعلفونه، ولا يسقونه حتى يموت. فذلك مركبه يوم القيامة، فإن لم يفعلوا ذلك له، خرج يوم البعث يسعى حافيا متسكعا، وغيرهم يسمون هذا البعير بلية[٣٨].

قال قائهلم يوصى ولده:

أحمل أباك على بعير صـــالح	يوم القيامة إن ذلك أصوب
لا تتركن أباك يسعى خلفهم	تعبا يخر على يديه وينكب

لكن هذا لم يكن صحيحا. وهناك آيات قرآنية متعددة تؤكد لنا بما لايدع مجالا للشك أن العرب القدامى كانوا فى جملتهم لا يؤمنون بالبعث، فمن ذلك:

- ﴿وقالوا إن هى إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين﴾[٣٩].
- ﴿وأقسموا بالله جهد إيمانهم لا يبعث الله من يموت، بلى وعدا عليه حقا، ولكن أكثر الناس لايعلمون﴾[٤٠].
- ﴿وقالوا أإذا كنا عظاما ورفاتا إنا لمبعوثون خلقا جديدا؟ قل: كونوا حجارة أو حديدا أو خلقا مما يكبر فى صدوركم، فسيقولون من يعيدنا؟ قل الذى فطركم أول مرة فسينفضون إليك رءوسهم ويقولون: متى هو، قل عسى أن يكون قريبا﴾[٤١].
- ﴿زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا، قل بلى وربى لتبعثن ثم لتنبئون بما عملتم، وذلك على الله يسير﴾[٤٢].

حرية الإرادة:

على الرغم مما نراه من العربى فى مختلف العصور من ميل إلى التمسك بحريته تمسكا شديدا، إلا أننا نراه من جهة أخرى يؤمن بأن ما يفعله من أفعال لا حرية له فيه ولا اختيار، وإنما شىء (مكتوب) عليه أن يفعله. وليس حتما أن يكون القائل بهذا مؤمنا بالله، حيث يرجع إليه

هذه الأفعال، كلا، إنه لا يبحث عمن يأمره بفعل هذا وترك ذاك، وإنما هو يسلم بأن هذا (الفعل) لا مفر منه، فهى (حتمية) و(قدرية) واضحة.

ولا شك أن حالة العربى القديم بشأن هذه الفكرة يسهل تفسيرها من جهتين:

١- ضعف الوسائل التى بيده فى مواجهة مختلف الظروف التى تحيط به، فلا حيلة له إذا امتنعت الأمطار وجف زرعه وجف حلقه، وهو يرى أنه يموت ويقف عاجزا دون فعل شىء، وهو يواجه رياحا وزوابعا وأعاصير، ويقابل حرارة شديدة، وأحيانا برودة قاسية إلى غير ذلك، خاليا خلوا تاما من أجهزة ومعدات ونظريات علمية يغالب بها بعض هذه الأمور، ومن ثم كان طبيعيا أن يشعر بأنه (ريشة) فى مهب الريح، لا حول له ولا قوة.

٢- أن العربى القديم عاش فى أغلب الأحوال ظروفا اقتصادية وسياسية وعسكرية واجتماعية جعلت الجمهرة الكبرى من الناس، تشعر بأنها مسخرة، عليها أن تكد وتكدح لايهم ما لها من شعور ووجدان، ولا يهم ما لها من فكر وخيال، ولا يهم ما يكون لها من حقوق، وإنما هناك فقط (النخبة الممتازة) التى تقف على رأس السلم الاجتماعى والسياسى والعسكرى ... هى فقط التى لها كل شىء.

وليس معنى هذا أن كل قائل بالجبر، إنما يقول به نتيجة الظروف السابقة، فهناك من المؤمنين بالله من يقولون به تفسيرا منهم للدين، لا لهذه الظروف، فهذا هو (حاتم الطائى) وهو من النصارى يقول:

أتيح له من أرضه وسمائه صمام وما يأمر به الله يفعل[٣]

ومن القائلين بالجبر، الشاعر الجاهلى الشهير (عبيد بن الأبرص) نجد فى الشعر المنسوب إليه اسم (الله) يتردد فى كثير من المواضع ونراه من المتشائمين بالمنايا وبالمحتم المكتوب، ونراه يتوكل على الله ويدعو الناس إلى الاعتماد عليه، فيقول[٤]:

من يسأل الناس يحرموه وسائل الله لا يخيب

با لله يدرك كـــل خير	والقول فى بعضه تلغيب
وا لله ليس له شريـــك	عـلام ما أخفت القلوب

ولعل عاداتهم المتصلة بالاستقسام بالأزلام تشير كذلك إلـى اتجـاههم نحو الإيمان بـالجبر، والاستقسـام بـالأزلام نـوع مـن الطـيرة. كـانوا إذا أرادوا فعل أمـر ولايـدرون مـا الشـأن فيـه أخـذوا قداحـا مكتوبـا علـى بعضها (إفعل) وعلـى بعضهـا (لا تفعـل)، وعلـى بعضهـا (نعـم) وعلـى بعضها (لا) ... إلى غير ذلك، فإذا أراد أحدهـم سـفرا مثـلا أتـى سـادن الأوثـان، فيضـرب لـه بتلـك القـداح، ويقـول: (اللهـم إن كـان خـيرا فأخرجه)، فما خرج لـه عمـل بـه. وإذا شـكوا فـى نسـب رجـل، أجـالوا القداح وفى بعضها مكتوب (صريح) وفى بعضها (ملحـق)، فـإن خـرج الصريـح أثبتـوا لـه نسـبه، وإن خـرج الملحـق نفـوه، حكـى أبـو الفــرج الأصبهانى، أنهم كانوا يستقسمون عند ذى الخلصة، وهو صنم مشهور، وإن امرأ القيس لما قتل أبوه وخرج يطلب بثـأره استقسـم عنـده بقداحـه وهـى ثلاثـة: الأمـر والنـاهى والمـتربص، فأجالهـا، فخـرج النـاهى، ثـم أجالهـا فخـرج النـاهى، ثـم أجالهـا فخـرج النــاهى، فجمعهــا وكسـرها، وضرب بها وجه الصنم، وسبه وقال[٤٥]:

لو كنت يا ذا الخلص الموتورا	مثلى، وكان شيمتك المقبورا

لم تنه عن قتل العداة زورا!

ومع ذلك فقد وجد من يؤمن بأن الإنسان هو الذى يختـار مـا يفعـل، وإن كان هذا النفر قليلا، من هؤلاء الشاعر (الأعشى) الذى قال:

استأثر ا لله بالوفاء وبالـ	ـعدل وولى الملامة الرجلا[٤٦]

فالله هو العـادل، وهـو لعدلـه يحاسـب الإنسـان علـى مـا يفعـل، لأن الفعل، فعل الإنسان.

الخبرة مصدر التعلم:

إذا كنـا نؤكـد هنـا أن عـرب الجاهليـة كـانوا يعتمـدون فـى الأغلــب والأعم على (الخـبرة) يستقون منهـا معظـم معـارفهم ومعلومـاتهم، فـلا

نقصد بذلك بطبيعة الحال أن نقول أنهم كانوا فى ذلك مسايرين لأحدث ما تتجه إليه الاتجاهات التربوية المعاصرة من جعل الخبرة، المصدر الأساسى للتعلم والتعليم، انسياقا وراء المشاعر القومية التى تغلب على البعض عندما يؤرخ لماضى أمته، فيحاول أن ينسب إليها كل ما يدعو للفخر والاعجاب، ذلك أن هذا الذى تذهب إليه يعد من طبائع الأمور بالنسبة لكل المجتمعات البدائية، حيث لا كتب ولا قاعات ولا محاضرات عامة وخاصة، وإنما هى (الحياة) بخيرها وشرها، هى (الممارسة) بعشوائيتها وبانتظامها، وهى (الخبرة) بسذاجتها وقسوتها.

وذلك الرأى هو الذى اعتمدنا عليه فى معالجة التربية الجاهلية فى مجالاتها المختلفة، فالفتاة لا تذهب بطبيعة الحال إلى مدارس (التدبير المنزلى)، وإنما تتعلم ما يتصل بذلك من مشاركتها لأمها فى أعمال المنزل المختلفة، وابن الزارع وابن التاجر، وابن الصانع يعايشون آباءهم ويلتقطون منهم كل ما هو هام وضرورى لممارسة العمل الذى يعدون أنفسهم له.

وهناك فرق بين الدعوة المعاصرة إلى إقامة التعلم والتعليم على الخبرة وبين ما كان سائدا، فلقد استطاع الإنسان الحديث والمعاصر أن يلخص ويختزل الكم الهائل من الخبرات البشرية التى مر بها ويودعها بين بطون الكتب، مما جعل سهلا يسيرا على الإنسان أن يحصل فى ساعات قليلة المعارف المتضمنة فى خبرات يستغرق المرور بها سنوات وسنوات. لكن البعض نسى فى غمرة الانكباب على الكتب أنها (صورة) لـ (أصل) هو (الخبرة) فأهملها فكان الإلحاح الحالى على ضرورة وضعها فى الاعتبار. أما فى العصور القديمة، فلم يكن هناك خيار أمام الإنسان، إن القلة النادرة هى التى كانت تقرأ وتكتب، فلابد من الاعتماد على الخبرة، ثم إن الأعمال المختلفة نفسها بلغت من البساطة إلى الحد الذى استغنت فيه عن (النظريات) والعلم، فأصبح

بإمكان الإنسان العادى الأمى أن يعرفها بعد قليل من التدريب والممارسة.

لكن (خبرة) عن (خبرة) تفترق، فخبرة اليوم تجىء نتيجة تدبير وتنسيق وتخطيط، وخبرة الأمس تجىء فى أغلب الأحوال (كيفما اتفق). خبرة اليوم لابد للاستفادة منها من التفكير التحليلى الناقد، واستخدام النظريات والأفكار العلمية. أما خبرة الأمس، فافتقدت هذا وحصلها الإنسان (كما هى). ومن هنا قيل على المعارف الناتجة عن (الخبرة) بمعناها ووضعها القديم (اختبارية) Emperical أما المعارف الناتجة عن (الخبرة بمعناها العلمى الحديث) Experimental (تجريبية).

ولقد شكلت (البيئة) أكبر مصدر للخبرة المعلمة للعربى الجاهلى، تقول إحدى الباحثات "أن الإنسان نتاج لسطح الأرض، وهذا لا يعنى فحسب أنه ابن الأرض وحفنة من ترابها، بل إن الأرض بمثابة الأم له، أرضعته بلبنها، وحددت له واجباته، ووجهت تفكيره، وجابهته بالصعوبات التى قوت من جسده وشحذت ذهنه، أولته مشكلات الملاحة والرى، وفى نفس الوقت أسرت إليه بامكانيات حلها ... لقد تخللت عظامه ونسيج لحمه .. بل عقله وروحه"(٤٧).

ولا شك أن الصفات والخصائص البيئية أثرت أكبر الأثر فى حياة الجاهليين، بل وفى صفاتهم الخُلقية والخَلقية أيضا، وتقول نفس الباحثة "أن الصحارى والمراعى تغرس فى أبنائها خصائص معينة وأخلاقيات مثل الشجاعة والإقدام، والعجز العنيد للرجل الحر واليقظة والحيطة والشعور بالانتماء وقوة الملاحظة الحادة التى أوجدتها رقابة البيئة عديمة الملامح، كذلك إيجاد القدرة على إدراك أية تفصيلات"(٤٨).

ومن هنا نجد أن ما كانت تتسم به بيئة الصحراء من خشونة وقسوة حياة كان له أثره فى تشكيل خبرة الجاهلى، ولكن الشاعر الجاهلى لم يكن بالإنسان العادى (المتقبل) للوضع ... فهو لم يقف موقف المتفرج

أو الناقل، بل موقف المتأثر المنفعل الذى لا يرضيه (وضع القبول)، فإن أقسى مظاهر البيئة من وعورة فى الأرض، وقسوة الطقس لم تسلم من تصور فكر الشاعر لها على نحو ما، ولم تكن مجرد مؤثر فى إنسان، وهذا الإنسان وصفها فى شعر، بل إن الشاعر نفسه الذى شعر بـ(البعد) بينه وبين بيئته تلك، اتخذ رد فعل شعريا ممثلا فى (قيمة) خلعها من ذاته على الطبيعة، لكى يردها إليه بعد أن عجز عن السيطرة عليها أو الفكاك منها، هذه القيمة ردت جميع تلك المظاهر البيئية – وخاصة القاسى الشديد منها إلى نفسه، أو بمعنى آخر، كان كثيرا ما يأتى بها فى شعره لكى يقيم ذاته هو، محاولا (الربط) بينه وبين تلك البيئة كنوع من رد الفعل أو التغلب عليها، أو على قسوة المكان بمعنى آخر[٤٩].

فهذا عمرو بن الأهتم يقول[٥٠]:

ومستقبح بعد الهدوء دعوته	وقد حان من نجم الشتاء خفوق
يعالج عرنينا من الليل باردا	تلفح الرياح ثوبه وبروق
تألق فى عين من المزن وادق	له هيدب دانى السحاب دفوق
أضفت فلم أفحش عليه ولم أقل	لأحرمه ان المكان مضيق

فهنا مدح الشاعر نفسه بمبالغته ووصفه شدة البرد وقسوة الصحراء، أى أنه – من وجهة أخرى – أعطى لتلك البيئة ومظاهرها فى ذهنه (قيمة أخلاقية) من نفسه فى الواقع بمعنى أنه أعطى (من ذاته) على مظاهر البيئة الخارجية تلك، قيمة حياتية معينة، فهى ليست قاسية إلا لأنه يتحملها، ولا يصح أن يكون قادرا على العطاء والبيئة سهلة لينة فى نفس الوقت، فهناك إذن امتزاج بين (مظهر بيئى) فى قصيدة الشاعر الجاهلى، وبين (ذات) الشاعر التى أحالت تلك المظاهر إلى قيم خلقية له هو[٥١].

التغير:

وأنت إذ تؤمن بأن ما تفعل إنما هو قدر عليك أن تفعله ولا مشيئة لك فيه ولا اختيار فقد آمنت بالتالى باللاتغير، أو بمعنى أصح بعجز الإنسان عن التغيير والتبديل والتطوير فالعالم الذى يعيش فيه الجاهل، لم يكن يملكه، وإنما الذى تتحكم فيه قوى خفية جبارة من الجن والشياطين والعفاريت والغيلان والألهة والملائكة فهى التى تجرى الأنهار (كما يزعمون) وتنزل الأمطار وتسير الرياح وتحرض الإنسان وتنتقم منه وتشعل الحروب، وهو مجرد (آلة) وأداة فى يدها. ومن هنا فإذا كان ثمة تغيير يمكن أن يحدث، فهذه القوى، هى التى ترى متى وكيف وأين يحدث، أما الإنسان، فلا شأن له بذلك.

بل أن للإنسان نفسه (طبيعة)[٥٢] ثانية، بناء عليها يأتى هذا التصرف أو ذاك، ولا رأى له كذلك ولا اختيار. جاء فى شعر لبيد:

فاقنع بما قسم المليك، فإنما قسم الخلائق بيننا علامها[٥٣]

صحيح أن هذا شعر يشك فيه، بمعنى ترجيح قوله فى الإسلام، إلا أن منطق الحياة الجاهلية يؤيده، وهذا هو زهير أبى سلمى يعتقد بهذا، فيقول:

ومهما تكن من امرىء من خليقة ولو خالها تخفى على الناس تعلم[٥٤]

ولهذا كثرت الشكوى من (الزمان) وفعله فى الإنسان ما يشاء، تجىء على لسان زهير أيضا، فيقول:

لمن الديــــار بقنة الحجر أقوين من حجج ومن دهر
لعب الزمان بها وغيرها تعدى سوانى المور والقطر[٥٥]

والمعنى الذى نفهمه من (الدهر) فى الشعر الجاهلى، هو الأبدية، مع التأثير فى حياة الإنسان وفى العالم. ولهذا أضافوا إليه بعض الألفاظ

التى تشير إلى وجود هذا التأثير فى الحياة، فقالوا: (يد الدهر) و(ريب الدهر) و(عداء الدهر)... الخ[٥٦]

نظر الشاعر الجاهلى حوله فى تلك البيئة الصحراوية المكشوفة، فوجد مظاهر الطبيعة الأرضية والسماوية وقد فرضت نفسها عليه، وأجبرته على التأمل فيها، وبما أن هذا الشاعر فنان يستطيع أن يعكس رؤيته الداخلية وشعوره الدفين على ما أمامه من (موجودات) ومظاهر، فقد أداه هذا التأمل إلى ملاحظة مظاهر الخلود والاستمرار والتتابع، ومن ثم وجد فيها الزمن أو الخلود، رأى هناك تباينا ومفارقة، فهناك خط متغير .. يعيش هذا ويموت، ثم يعيش آخر ويموت فى حلقات متصلة، ويتمثل هذا كله فى الإنسان وسائر الأحياء، وهناك خط ثابت لا يحيا ولا يموت، وإنما هو مستمر فى البقاء، ثابت أزلى، وقد أثر هذا المظهر الأخير بأشكاله المتعددة فى الشاعر الجاهلى واتخذ شكلين:

الأول: ما هو ممثل للثبات المستقر فى نظر الشاعر الجاهلى، لا حركة فيه البتة، بل هو ساكن جامد، ويمثل هذا الجبل أولا ثم يشابهه من تلال ورماح وصحراء ونحو ذلك.

الثانى: ما هو ممثل للثبات فى (تتابع)، فهو ثابت لتتابعه المتشابه لا لسكونه وجموده، فحركته متكررة أزلية لا تنتهى، وذلك مثل الشمس والقمر والنجوم والبرق والسحاب ونحو ذلك[٥٧].

وبما أن المنطقة الجبلية – من الوجهة الجغرافية – فى الجزيرة العربية فى اليمن وما جاورها فقط، فيبدو أن أى ارتفاع ظاهر بارز يطلق عليه الشاعر جبلا، وذلك لكثرة ترديد ذكر كلمة الجبل فى الشعر الجاهلى، يقول زهير بن أبى سلمى[٥٨]:

ألا لا أرى على الحوادث باقيا ... ولا خالدا إلا الجبال الرواسيا

وإلا السماء والبلاد وربنا ... وأيامنا معدودة والليـاليا

وهذان البيتان ضمن قصيدة، ذكر فيها كثيرا من الإشارات إلى الفناء والعمر وخلود الدهر، وأن ما فات لا يمكن أن يعود، ونحو ذلك مما يتعلق بالحياة والموت. ونجد لعبيد بن ربيعة عندما يتحدث عن الحياة وانتهائها يقول:

ان يكن فى الحيــاة خير فقد أنـ ... ظرت لو كان ينفع الإنظار

عشت دهرا ولا يدوم على الأيـ ... ـام إلا يرمرم وتعــــار

وكلاف وضلفع وبضيــــــع ... والذى فوق خبـــة تيمار

وكلها أسماء جبال.

وإذا كان (الجبل) له صفاته الطبيعية المعروفة، إلا أنه ارتبط بصفات معنوية تدل كلها على الشموخ والعظمة والعلو والسيادة والتمتع، وهى صفات مرتبطة أيضا بالخلود، لأن الخلود - لدى الجاهلى - هو الشيء العظيم أو الذى يعلو على مستوى الحياة العادية، وبما أنه خامد، فهو شامخ.

وارتبط الجاهلى كذلك (بالنجم) الذى كان يهتدى به فى ظلمة الليل، ومن ثم كان الشاعر كثير الوصف له ومراقبته والربط بينه وبين الخلود، ذلك لأن النجم - كظاهرة طبيعية - على حاله وهلم جرا، فهناك (حركة) ما، ولكن هذه الحركة فيها (توالى) لا (تغير)، فهو جامد ثابت أبدى فى تواليه وتتابعه وليس فى سكونه وجموده كالجبل[٥٩].

فإذا حاول الإنسان الجاهلى أن يتحرك بغية التحكم فى الظواهر المحيطة به وتغييرها وفقا لما يريد، لجأ إلى تلك الوسائل (اللاعقلية) التى ذكرنا بعضها، ونزيد على ذلك بالإشارة إلى أهمية (السحر) عنده كوسيلة للتغيير. فلقد استخدم لأغراض متعددة، حتى إدارة الملك والقضاء على الأعداء. ومن الطبيعى أن يكون للحب المكان البارز. ومن أعمال السحرة كذلك، إخراج الجن من المجانين اعتقادا من

القدامى بأن (المرض العقلى) هو من عمل الجن، ومن هنا قيل لهذا المرض (جنة) و(جنون)(١٠).

ويداوى الساحر أمراضا عديدة أخرى، بل كل أنواع الأمراض، حيث ظنوا أن المرض أيضا إن هو إلا أرواح شريرة تعبث بجسد الإنسان.

وظيفة التربية:

والجاهلى عندما لا يؤمن بالتغيير، ويسيء الظن فى قدرته على إحداثه، ويشك فى إمكان أن يختار فعله وفكره، يسلب التربية بالتالى النصف الثانى لقيمتها، ووظيفتها، فإذا كانت التربية تهدف إلى نقل التراث الثقافى من الأجيال الراشدة إلى الأجيال الجديدة حتى تحافظ على استمرار المجتمع باستمرار ثقافته، وإذا كانت تهدف فى نفس الوقت إلى تجديد وتطوير بعض عناصر هذه الثقافة، فإن التربية فى هذا العصر، ما كان لها إلا أن تقوم بالواجب الأول فتجعل من كل طفل جديد يولد على أرض الجزيرة العربية نسخة مطابقة لما قبلها. بل إن هذا كان معيار التربية الجيدة، فإذا نشأ الطفل مشابها فى تفكيره وسلوكه وجسمه لآبائه، عد ذلك للطفل (نموذجيا) و(مثاليا) تشير إليه سائر الأمهات منبهات أطفالهن إلى أن يحتذى كل مهم هذا النموذج وهذا المثال، وعلى العكس من ذلك يعتبر (التجديد) بدعة مرذولة، وخروجا على المألوف مما قد يستوجب سخط الجماعة، فكل أمر، وكل شيء لم يفعله الآباء، لا ينبغى أن يسمح له بالاستمرار مكونا عنصرا من عناصر الثقافة.

لقد كانت الدعوة الإسلامية تثير أهل الجاهلية وتحنقهم أشد الحنق على الرسول الكريم(١١) وأشد ما كان يحنقهم من دعواته، أنه يسفه بها أحلام الآباء والأجداد، فقلما كانوا يقولون فى مجال الغضب منه والتحريض عليه، أنه يسفه أحلامنا ويستخف بعقول أسلافنا، ويشير القرآن الكريم إلى ذلك فى قوله تعالى:

- ﴿وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله، قالوا، بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا﴾[١٢].
- وقوله أيضا: ﴿وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير، إلا قال مترفوها، إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون﴾[١٣].

ولا شك أن ما كان قائما فى التربية المهنية من (توريث) الأبناء حرف ومهن الآباء دلالة أخرى على حرص التربية الجاهلية على استمرار الثقافة الجاهلية كما هى.

وتبلغ الرغبة أشدها فى (محافظة) التربية، فى ذلك الحرص الشديد أيضا والذى سبق أن أشرنا إليه - فى ألا يتم تزاوج بين طبقتين متباينتين، ولو أن أحدا تجرأ وتزوج من امرأة من طبقة أدنى منه، لفظته القبيلة وكذلك إذا حدث هذا بالنسبة لزوجة من طبقة عليا، إذا تزوجت رجلا من طبقة دنيا.

ومن هنا كان من الطبيعى ألا يسمو ابن الأمة إلى مكانة ابن الحرة إلا إذ تميز بصفات تجبر ما فى استرقاق امه من خدش لمكانته، وقد كان الأكاسرة وأكثر عرب الجاهلية لا يسودون أولاد الإماء ويسمونهم الهجناء، ويسمون أولاد المهيرات الصرحاء[١٤] يقول مهلهل فى أمرىء القيس بن حمام - وكان هجينا:

لما توعر فى الكراع هجينهم ... هلهلت أثأر جابرا أو صنبلا[١٥]

وقد عاش (الشنفرى) أسيرا فى بنى سلامان حينا، لا تحسبه إلا أحدهم، حتى لقد اتخذه السلامى ولدا، فقال الشنفرى يوما لبنت سيده: اغسلى رأسى يا أخيه، فأنكرت أن يكون أخاها ولطمته[١٦]. لذلك كان أبناء الإماء يعيرون بأمهاتهم، يدل على ذلك أن عروة بن الورد العبسى سبى سلمى الغفارية، فولدت له أولادا، وكان شديد الحب لها، وكان أولاده يعيرون بأمهم، ويسمون بنى الأخيذة. فقالت له: ألا ترى ولدك

يعيرون؟ قال: وماذا ترين؟ قالت: أرى أن تردنى إلى قومى حتى يكونوا هم الذين يزوجونك، ففعل ما أشارت به وتزوجها من قومها(٦٧).

ومن التعيير بالأم الرقيقة قول أوس بن جرر:

ابنى لبينى إن أمكم　　أمة وأن أباكم عبد

وقال حسان بن ثابت:

أبوك أبـوك وأنت ابنه　　فبئس البنى وبئس الأب
وأمـــك سوداء نوبية　　كـــأن أناملها الحنظب
يبيت أبـوك بها مغدقا　　كما سـارو الهرة الثعلب(٦٨)

ولم يقتصر التحريم فقط، بالنسبة للزواج على أساس (عرقـى) فقـط، بل على أساس (ثقافى) كذلك، فالفرد من (ثقافة زراعية) يعـد أقـل شـأنا من فرد ينتمى إلى (ثقافة بدوية) ولا ينبغى أن يكون هناك أيضا تـزاوج بينهما واختلاط، وإلا، أصيبت الثقافة الأصلية بقدر مفـزع مـن الخلخلـة والاهتزاز لا قبل للقبيلة به، فهذا هـو الأعشـى يهجـو إيـادا فـى بعـض شعره بأنها تعتمد على الزراعة فيقول(٦٩):

لسنا كمن جعلت إياد دارها　　تكريت تنظر حبهـا أن يحصدا
جعل الإله طعامنـــا فى مالنا　　رزقا تضمنه لنـــــا لن ينفدا(٧٠)
مثل الهضاب جزارة لسيوفنا　　فإذا تراع فـــــإنها لن تطردا(٧١)
ضمنت لنا أعجازهن قدورنا　　وضروعهن لنا الصريح الاجردا(٧٢)

هوامش الفصل التاسع

١- المفصل، جـ٦، ص٢١.
٢- التاريخ العربى القديم، ص ٢٠١.
٣- المفصل، جـ٦، ص١١٤.
٤- يوسف/١٠٦.
٥- البقرة/١٦٥.
٦- غافر/١٢.
٧- سبأ/٤١.
٨- فى الفكر الدينى الجاهلى، ص٢٧١.
٩- المؤمنون/٨٤-٨٩.
١٠- فيليب حتى، تاريخ العرب، جـ١، ص١٤١.
١١- تفسير الطبرى، جـ٢، ص٩١ وما بعدها.
١٢- آل عمران/٣٥.
١٣- المفصل، جـ٦، ص١٩٠.
١٤- الطبرى، جـ٢، ص١٧٢ وما بعدها وابن الأثير، الكامل، جـ٢، ص٢.
١٥- عبد الله عفيفى، المرأة العربية، جـ١، ص١٢٦.
١٦- حيض السمرة: صمغها.
١٧- الجنان: جمع جن، والجن ولد الجنان. وعمار الديار الذين يساكنون الناس من الجن. وشيطان الحماقة: صنف من الحسات، والسعالى: إناث الغيلان أو سواحر الجن. المرجع السابق.
١٨- الحيوان، جـ١، ص١٨.
١٩- خفاجى، الحياة الأدبية، ص١٧٨.
٢٠- الحيوان، جـ١، ص٣٢٤، جـ٣، ص٤٣٨ وما بعدها.
٢١- النويرى، نهاية الإرب، دار الكتب، القاهرة، ١٩٢٣، جـ٣، ص ١٣٤ وما بعدها، ص ١٤٢.
٢٢- الاستسقام: استفعال من القسم، وهو طلب النصيب. والازلام واحدها زلم وهن تعنى السهام. انظر النويرى، جـ٣، ص١١٧-١١٨.
٢٣- فى الفكر الدينى الجاهلى، ص٢٨٩.
٢٤- المرجع السابق، ص٢٩٠.
٢٥- العنكبوت/١٦، ١٧.
٢٦- المفصل، جـ٦، ص٨١٩.
٢٧- بلوغ الإرب، جـ٢، ص٣٣٢٣.
٢٨- تاج العروس، جـ٣، ص٣٧٩ (عبقر).
٢٩- المفصل، جـ٦، ص١٤١.
٣٠- حسنى عبد الجليل يوسف، النفس فى الشعر الجاهلى، مكتبة الآداب، القاهرة، ١٩٨٩، ص١٩.

٣١- المرجع السابق، ص٢٩.
٣٢- حسنى عبد الجليل يوسف، العذل فى الشعر الجاهلى، مكتبة الآداب، ١٩٨٩، ص١٥.
٣٣- المرجع السابق، ص١٦.
٣٤- مروج الذهب، جـ١، ص٢٥١-٢٥٢.
٣٥- المرجع السابق، جـ٢، ص١٣٢.
٣٦- عبد الله عفيفى، المرأة العربية، جـ١، ص١٣٣.
٣٧- المرجع السابق، ص١٣٤.
٣٨- الراغب الأصفهانى، محاضرات الأدباء، مطبعة المويلحى، القاهرة، جـ١، ص١٤.
٣٩- الأنعام/٢٩.
٤٠- النحل/٣٨.
٤١- الأسراء/٤٩ وما بعدها.
٤٢- التغابن/٧.
٤٣- المفصل، جـ٦، ص١٥٤.
٤٤- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ١، ص٢٢٦.
٤٥- شوقى ضيف، العصر الجاهلى، ص٧١.
٤٦- الأغانى، جـ٩، ص١١٣.
٤٧- المرجع السابق، ص٢١.
٤٨- المرجع السابق، ص٢٢.
٤٩- المرجع السابق، ص٢٣.
٥٠- صلاح عبد الحافظ، الزمان والمكان وأثرهما فى حياة الشاعر الجاهلى وشعره، ص٣.
٥١- المرجع السابق، ص٥.
٥٢- اللسان، جـ٨، ص٣٣٢، (طبع).
٥٣- المرجع السابق، جـ١٠، ص٨٦، (خلق).
٥٤- التبريزى، شرح القصائد العشر، القاهرة، ١٩٦٤، ص٢٤٠، البيت ٥٨ من المعلقة.
٥٥- شرح ديوان زهير، ص٨٧.
٥٦- المفصل، جـ٦، ص١٥١.
٥٧- المرجع السابق، ص٦.
٥٨- المرجع السابق، ص٧.
٥٩- المرجع السابق، ص١٤.
٦٠- تاج العروس، جـ٩، ص١٦٤، وما بعدها، جنن.
٦١- عباس محمود العقاد، التفكير فريضة إسلامية، دار القلم، طـ١، ص٢٦.
٦٢- البقرة/١٧٠.
٦٣- الزخرف/٢٣.
٦٤- أبو هلال العسكرى، جمهرة الأمثال، المطبعة الخيرة، القاهرة، ١٣١٠هـ، ص١٥.
٦٥- لسان العرب، مادة هلل. توعر: أخذ مكان وعر.

٦٦- الأغانى، جـ٢١، ص١٧٩.
٦٧- المرجع السابق، جـ٣، ص٣٨.
٦٨- المرأة فى الشعر الجاهلى، ص٤٩٦، الحنظب: ذكر الجراد أو ذكر الخنفساء.
٦٩- شوقى ضيف، العصر الجاهلى، ص ٣٣٤.
٧٠- المال هنا: الأبل.
٧١- جزارة: مصدر جزره أى ذبحه ومن يسمى البعير جزورا.
٧٢- الصريح: اللبن الخالص. الأجرد: الصافى.

الفصل العاشر

شخصية المواطن العربى الجاهلى

هذه الظروف المختلفة التى أحاطت بالإنسان العربى فى العصر الجاهلى من طبيعة بصحرائها وجفافها وحرها، وبقلة أمطارها وندرة زرعها، ومن أبعاد اقتصادية واجتماعية تمثلت فى تركيب اجتماعى خاص وألوان معينة من الثقافة وخصائص ملحوظة للاقتصاديات، ومن معارف ومعلومات ......الخ، كان لابد لها أن يتفاعل بعضها مع البعض الآخر لتشكل لنا فى النهاية ما يمكن تسميته بـ(شخصية العربى الجاهلى).

إن ظروف الأمم تختلف وأحوالها تتباين، والإنسان نتاج بيئته الطبيعية والإجتماعية، ومن ثم كانت لكل أمة (شخصية قومية) عامة تلحظها تفرق بها بين مواطن ينتمى إليها، وبين مواطن ينتمى إلى أخرى، وقد نجد فى المجتمع الواحد أيضا تباينا واختلافا بين سائر أجزائه ومناطقه، ومع ذلك، فهناك الاطار العام والمستودع الرئيسى الذى يدخل فيه كل مواطن.

ونحن قبل أن نأتى إلى تلك الجوانب والخصائص التى تشكل شخصية المواطن العربى الجاهلى لابد لنا من أن نثبت أمام القارىء التحفظات الآتية:

١- أن الصفات والخصائص التى سنذكرها ليس حتما أن نجدها متمثلة فى شخص ما محدد، بل هى جماع ما استقرأناه فى مختلف الأبحاث والمراجع عن الشخصية العربية فى ذلك العهد ومن ثم فقد تجتمع صفات أو ثلاثة فى شخص وقد تجتمع غيرها فى شخص آخر، وقد يجتمع بعض من المجموعة الأولى وبعض من المجموعة الثانية فى

شخص ثالث وهكذا، بحيث يندر، أو يستحيل أن نقول أن هناك فرد معين يجمع فى شخصه كل هذه الصفات.

٢- وفى قولنا أن العربى يتميز بكذا وكذا، لانقصد ما يذهب إليه البعض من أنها صفات (ثابتة) تشكل (طبيعة) فطر عليها العربى لاتغير لها ولاتبديل، ذلك أننا نؤمن إيمانا قويا بأن الشخصية القومية إنما هى- كما أشرنا- محصلة أعمال مختلفة، يمكن أن تتغير بتغيرها. وما دامت الظروف والأحوال دائما متميزة، فالشخصية أيضا تتغير وتتبدل، وإن لم نلحظ هذا فى فترة زمنية قصيرة لأن مثل هذا التغير الذى يتناول شخصيات الشعوب، يستغرق وقتا طويلا من الزمن.

٣- أن دراسة الشخصية القومية لأمة من الأمم ميدان وعر عميق، يقوم على دراسات تاريخية وأنثربولوجية وأدبية ونفسية وسياسية واقتصادية وفنية، وهكذا، بحيث يصبح ضربا من المستحيل أن يقوم بها فرد من الأفراد، وإنما هى عمل (فريق) من الباحثين، وتستغرق زمنا ليس بالقصير، وتحتاج من الأدوات، الشىء الكثير، ومن ثم، فإن دراستنا هذه يمكن أن تدخل فى باب (اللمحات) أو(النظرات) العامة حيث لابد لنا من الاعتراف بأنه لم تتوافر لنا كل متطلبات دراسة الشخصية القومية.

ولعلنا بعد هذا يمكن أن نوجز فيما يلى عددا من الخصائص والسمات التى بين عرب الجاهلية:

النظرة الجزئية:

فقد لاحظ بعض المستشرقين أن العربى القديم افتقد النظرة الكلية الشاملة للظواهر المختلفة، وقال هذا أيضا بعض المؤلفين العرب السابقين فهذا هو الشهرستانى[١] فى معرض كلامه عن الحكماء يقول: "الصنف الثانى، حكماء العرب وهم شرذمة قليلة، وأكثر حكمتهم فلتات

الطبع وخطرات الفكر''، وقال أيضا: ''أن العرب والهند يتقاربان على مذهب واحد والمقاربة بين الأمتين مقصورة على اعتبار الأشياء، والحكم بأحكام الماهيات، والغالب عليهم القدرة والطبع، وأن الروم والعجم يتقاربان على مذهب واحد، حيث كانت المقارنة مقصورة على اعتبار كيفية الأشياء والحكم بأحكام الطبائع والغالب عليهم الاكتساب والجهد''.

لقد كان العربى يطوف فيما حوله، فإذا رأى منظرا خاصا أعجبه تحرك وجاش صدره بالبيت أو الأبيات من الشعر أو الحكمة أوالمثل، فقال مثلا[٢]:

منع البقـــاء تقلب الشمس	وطلوعها من حيث لا تمسى
وطلوعها بيضاء صافيـــة	وغروبها صفراء كـالورس
تجرى على كبد السمـاء كما	يجرى حمام الموت فى النفس
اليـــوم أعلم ما يجىء به	ومضـى بفضل قضائه أمس

فأما نظرة شاملة، وتحليل دقيق لأسسه وعوارضه، فذلك مالم يحدث. وهو إذا نظر إلى الشىء الواحد، لايستغرقه بفكره، بل يقف فيه على مواطن خاصة تستثير عجبه، فهو إذا وقف أمام شجرة لاينظر إليها ككل، إنما يستوقف نظره شىء خاص فيها .....أنه يكون كالنحلة يطير من زهرة إلى أخرى فيرتشف من كل رشفة.

بيد أن هذا اللون من النظر أفاد فى بعض الوجوه، إذ أنه لما انحصر فى شىء جزئى خاص، جعلهم ينفذون إلى باطنه، فيأتون بالمعانى البديعة الدقيقة التى تتصل به كما جعلهم يتعاورون على الشىء الواحد، فيأتون بالمعانى المختلفة من وجوه مختلفة، فامتلأت ثقافتهم بالحكم القصار الرائعة والأمثال الحكيمة، وأتقنوا هذا النوع إلى حد بعيد[٣].

الشجاعة:

فقد عاش العربى فى الصحراء وهو فى جهاد مستمر، وكفاح طويل مرير محافظة منه على حياته، فليس بالصحراء من معالم الحياة إلا النذر اليسير، وليس بها أنهر جارية، أو وديان خصبة مسرعة، أو حدائق غناء، إلا فى أمكنة قليلة تعتمد على الغيث، وبعض العيون المتفجرة، ولذلك اشتد حرصه على الماء وسعى فى سبيله سعيا متواصلا لا هوادة فيه، واقتضى ذلك منه رحيلا دائما فى فيافى واسعة، يواجه مخاطرها فى كل ثانية، ويستقبل متغيرات الطبيعة أينما سار:

ومن يك مثلى ذا عيال ومقترا ... من المال يطرح نفسه كل مطرح

ليبلغ عذرا أو يصيب رغيبة ... ومبلغ نفس عذرها مثل منجح

فامتزج بهذه الطبيعة والصحراء امتزاجا تاما، وصار قلبه جلدا لايرهب ولا يفزع، وصارت عنده مناعة ضد الضيم والتبلد، لأنه إن كف عن السعى فى سبيل الماء الذى هو قوام حياته، هلك. لذلك عظمت قوى الكفاح فى العربى، كما عظمت ثمرات هذه القوى فى نفسه، فصار من أصح أهل الأرض بنية، وأوفرهم قوة، وأروعهم قامة، وأبينهم عافية، وأكثرهم احتمالا لما يطاق من الشدائد والمشقات. وقد جعله هذا الصبر الذى فرضته عليه الصحراء يعدل العشرات من الناس من حيث الطاقة البشرية(٤)

والشجاعة تقتضى أن يكون الفتى ذا عزيمة وحزم، لايتردد ولايتلوم، وإلا قضى عليه تردده وتقاعسه، فهو يناجز فرسانا شجعانا، فلابد أن يكون قوى الجنان نافذ الرأى ذا بصيرة فى المآزق:

إذا هم لم تردع عزيمة همه ... ولم يأت مايأتى من الأمر هائبا

إذا هم ألقى بين عينيه عزمه ... ونكب عن ذكر العواقب جانبا

ولم يستشر فى رأيه غير نفسه ... ولم يرض إلا قائم السيف صاحبا

وإذا ضاقت عليه السبل، ولم يجد من الموت بدا، رأى العار أن يفر ويولى ظهره للمحن والشدائد، بل عليه أن يقتحم غمراتها، وأن يعمد

إلى حيلته ودهائه أو إلى سيفه يفرج به الكربة ويزيل الغمة، فلعل فى ذلك نجاته لأنه لا يدرى إذا هرب، كم بقى له من العمر[٥]

ولم نر أن حضنا من الموت حيضة ... كم العمر باقى والمدن متطاول[٦]

إذا ما ابتدرنا مأزقا فرحت لنـــا ... بإيماننا بيض حلتها الصيـــاقل[٧]

من أجل ذلك اشتهر جماعة من الفرسان الذين أظهروا بطولة نادرة فى حربهم لخصومهم وأقرانهم، وهم كثيرون، فقد كان لكل قبيلة فارسها أو فرسانها الذين يتدربون على ركوب الخيل طويلا وكيف يقفزون عليها ويشمرون سيوفهم ويلوحون برماحهم، وكيف يسددون ضرباتهم إلى أعدائهم، وتلقانا دائما أسماؤهم وخاصة فى حروبهم الطويلة مثل حرب البسوس وفارسها المهلهل التغلبى، وهو الذى أشعل نيرانها ثأرا لأخيه كليب[٨].

وقد طارت شهرة عنترة بن شداد بالفروسية والشجاعة منذ الجاهلية، ومازالت ذكراه عالقة بأذهان العرب إلى اليوم، فهو مثلهم الأعلى فى البسالة والبطولة الحربية، وقد اتخذت من أخباره نواة للملحمة المعروفة باسمه والتى يمكن أن تعد إلياذة العرب، وهو فيها يحارب فى الجزيرة العربية وخارجها فى الحبشة وإيران وبلاد الروم والفرنج وشمال أفريقيا والأندلس، وينازل الصليبيين، وبذلك كانت هذه القصة أو السيرة تلخص تاريخ العرب وملحمة فروسيتهم فى الجاهلية وفى الفتوح الإسلامية وبعد الفتوح فى حروبهم مع الروم والصليبيين فى الشرق والغرب[٩].

ونحن لا نعنى الآن بعنترة الأسطورة، إنما نعنى بعنترة الفارس الجاهلى الذى دوخ الأقران والأبطال فى حروب داحس والغبراء.

وهو يصور لنا فى قصيدة شجاعته وجرأته تصويرا باهرا، إذ يقول:

بكّرت تخوفنى الحتوف كأننى ... أصبحت عن غرض الحتوف بمعزل

فأجبتها إن المنية منهـــــل ... لابد أن أسقى بكـــــأس المنهل

فاقني حياءك لا أبالك واعلمي أني امروء سأموت ان لم أقتـــل
ان المنية لو تمثـــل مثلت مثلي إذا نزلوا بضنـــك المنزل
والخيل ساهمة الوجوه كأنمـا تُسقى فوارسها نقيـــع الحنظل[10].

فهو لا يستمع إلى تخويف صاحبته له مما قد يلقاه من المكاره والمتالف بسبب تهافته على الحروب، بل أنه ليصم أذنيه عن ندائها قائلا لها إن المنية مورد كل إنسان ولابد أن أموت، فليكن موتى شريفا فى ميدان الحروب، ويدعوها أن تصون حياءها، فهو ميت على كل حال، وخير له أن يموت مناضلا عن قومه مدافعا عن نسائهم وأطفالهم وضعفائهم، ولا يلبث إحساسه ببطولته أن يتضخم فى نفسه، فإذا هو يتصور أن المنية لو خلقت فى مثال لكانت فى مثل صورته وخلقته، وهو يقتحم الصفوف، والخيل ساهمة من هول الحرب والفرسان كالحة وجوههم كأنما يشربون من نقيع الحنظل.

الأخذ بالثأر:

وأملت طبيعة المحيط الذى يعيش فيه العرب عليهم هذا العرف، فليس فى البادية من يحول بين قتل الناس بعضهم بعضا إلا الأخذ بالثأر، وقيام أهل القتيل والعصبية بالأخذ بدمه، ولولا الخوف من الأخذ بالثأر، لعم القتل الحياة، فالحياة فى البوادى، وفى أكثر أنحاء جزيرة العرب شدة ومحنة وفقر وقسوة، وليس فى البادية أى خير كان مما يستمتع به أهل الحواضر ولاسيما تلك التى امتازت بوفرة الماء فيها وبحسن جوها واعتداله، لذلك صارت حياة الأعراب ضنكا فى العيش وفقرا مرا. وصار كل شيء تقع عليه عين الأعرابى ذا قيمة وفائدة عنده مهما كان تافها، فيريد الاستيلاء عليه من صاحبه وسلبه لأنه محتاج إليه وفقير، ويرى أن من حقه أن يستولى على كل ما يراه عند من هو أضعف منه، وإن أدى ذلك إلى إزهاق حياته. لكن الطبيعة التى علمت الأعرابى هذا المنطق ودرسته هذا الدرس، علمته فى الوقت نفسه، أن الاستهتار بالسلب والنهب والقتل يؤذيه ويهلكه، وأنه لابد له

من الحد من غلوائه ومن أعدائه على غيره ووضعت له حدودا وقيودا من طبيعة هذه الحياة التى يحياها(١١).

ويقضى الثأر بالانتقام لمقتل القريب من القاتل نفسه أو من أحد أقاربه الذكور حتى الدرجة الخامسة. وليس أشد تعقيدا من العناصر الأولية فى الثأر عند العرب، ومن هنا فإن بعض الباحثين لا يرون أن العنف والبغضاء لايكفيان لتفسيره، نعم أن العرض وواجب الدفاع عنه يَحتلان مكانا راجحا، وهما ركيزتا المنتقم فى تسويغ عمله، غير أنه يجدر بالمنتقم رعايتها، فهو ينذر على نفسه القناعة فى الطعام والشراب، والامتناع عن الاغتسال وحلق الشعر والتطيب، ولن يضع حدا لهذا التحريم الدينى سوى إتمام واجب الدم، وتفسر هذه العوامل المختلفة، الوحشية والخبث والقساوة التى بها عملية الثأر، وهى تسوغ أيضا المكانة التى يحتلها الثأر فى حياة العرب(١٢).

وقد حدثوا بأن امرأ القيس حلف ألا يغسل رأسه ولا يشرب خمرا حتى يدرك ثأر أبيه، فلما أدرك بعض ما يشفيه قال(١٣):

حلت لى الخمر وكنت امرأ عن شربها فى شغل شاغل

فاليوم أسقى غير مستحقب اثمـــا من الله ولا واغل

وكان عصمة بن حدرة اليربوعى قد نذر ألا يطعم لحما، ولا يشرب خمرا، ولا يقرب امرأة، ولا يغتسل، حتى يقتل من بنى عبس سبعين رجلا بابن عم له، فلما قتلهم قال:

الله قــد أمكننى من عبس ساغ شرابى وشفيت نفسى

وكنت لا أقرب ظهر عرس وكنت لا أشرب فضل الكأس

ولا أشد بالوخاف رأسى(١٤).

ولم تكن القرابة لتكفكف من حفيظة غير الحكماء، ولم يكن يشفيهم إلا أن تنهل رماحهم من دماء أقاربهم الذين قتلوا من هو أقرب منهم، وإذا ما ذكر بعض العقلاء بحق القرابة اتهموا مذكريهم بأنهم لا يحسون إحساسهم، ولو أحسوه ما حاولوا أن يثنوهم.

ولعبت المرأة دورا واضحا فى التحريض على الثأر، ولم تتحرز إحداهن من تشبيه قومها - إذا لم يثأروا لأخيها - بالنساء العواهر، فلم يكفها أن يكونوا نساء، فزادت هذا الوصف المنفر، قالت هند بنت حذيفة فى رثائها لأخيها حصين:

فان أنتم لم توطئوا القوم غـارة يحدث عنها وارد بعد صادر

وترموا عقيلا بالتى ليس بعدها بقاء فكونوا كالنساء العواهر[١٥].

وصحيح أن من مواهب الزعماء فى القبيلة أن يعملوا على إيجاد تسوية بين المتخاصمين من دون أن يملكوا حق فرضها عليهم، ولكن العشائر كثيرا ما كانت لا تنتهى إلى الأخذ بهذه التسويات إلا بعد أن تكون قد تفانت وأشفت غليلها، أما إذا أسلم القاتل طوعا لا كرها إلى الفريق الآخر لينتقم منه فعندئذ لا يبقى مجال للثأر، ولكن مثل هذا الصنيع يعتبر وصمة للعشيرة، فهى تفضل أن تقتل الجانى على أن تسلمه طوعا ويلحق بها العار. إن حاسة الشرف السامية هذه التى تسم جميع أعمال البدوى هى الأساس الذى ينهض عليه صرح الأخلاق عنده[١٦].

العصبية:

وللعصبية مظاهر تبدو فيها، نستطيع الوصول إليها من قراءة الأخبار التى وردت فى أيام العرب، ومن خلال أشعارهم، ومن آيات القرآن الكريم، وهذه المظاهر هى:

١- عصبية العشيرة وذوى الأرحام[١٧]، فكان أفراد العائلة الواحدة أو الفخدة أو البطن، أى أفراد الوحدة الإجتماعية الصغرى اللذين تجمع بينهم الأرحام القريبة، يتضامنون فى الدفاع عن بعضهم والاستنصار لبعضهم فى مختلف المواقف، وكان لها أثر كبير فى الأحداث التى وقعت فى حياة النبى فى مكة ضد بطون قريش استجابة لعصبية الرحم والقربى من بقائهم على آبائهم حتى لقد

قاطعتهم قريش من أجل ذلك وحصرتهم فى أحد شعاب مكة ثلاث سنوات[١٨].

٢- عصبية القبيلة: فكان أفراد القبيلة ببطونها وعشائرها، يتضامنون تجاه القبائل الأخرى فى الحروب والدماء، والدفاع عن المصالح والتبعات المشتركة ويتناصرون ويتعاونون على المغارم، وفى القرآن آيات كثيرة يمكن أن نستخلص منها ما كان للعصبية القبلية من شأن كبير ظهر أثره فى الصراع بين مكة والمدينة فى أيام النبى، فقد كان فى المدينة منافقون ومشركون لم يمنعهم أن يشاركوا المسلمين فى القتال أنهم كانوا يخالفونهم فى الدين وفى الميول، وذلك بدافع العصبية القبلية، فتذكر الروايات أن رجلا يدعى (قزمان) قاتل يوم أحد قتالا شديدا، وقتل عددا من المشركين، حتى إذا خلصت إليه الجراح وسقط، حمل إلى احدى الدور، وعاده بعض المسلمين وقال له أحدهم (أبشر يا قزمان) فأجابه: "بماذا أبشر؟. فوالله ما قاتلت إلا عن أحساب قومى"[١٩].

٣- عصبية الأحلاف القبلية أو الأحزاب، فكثيرا ما كانت تقوم بين القبائل محالفات ومواثيق لتقف صفا واحدا متساندا أمام بعض الدواعى، فتنشأ الأحلاف بين القبائل لصيانة المصالح المشتركة أو لضرورة السلم بين المتجاورين، أو عن طريق المعاهدة بين رجالها، فتنشأ بذلك عصبية بين هذه القبائل المتحالفة تدفعها إلى التضامن فى الحروب والتعاون فى تبعات الدماء[٢٠].

المحافظة على (العرض):

وعرض المرأة وعفتها (مقدس) فى نظر العربى القديم، بل مازال كذلك حتى الوقت الحاضر. ومن هنا فإن ضياعه موجب لقتل المتسببين فى ذلك، وكى تحافظ المرأة على عفتها تحجب عن الرجال منذ سن صغيرة، وأصبحت (العفة) بذلك مصدر فخر، ومظهرا من مظاهر الرفعة وعلو الشأن، فقد قالت الخنساء لبنيها: "والله الذى لا إله غيره،

أنكم لبنو رجل واحد، كما أنكم بنو امرأة واحدة، ما خنت أباكم، ولا فضحت حسبكم ولا غيرت نسبكم''[٢١].

وقد أشاد أخوها صخر بعفتها حين تسخطت زوجته لأنه يقاسم أخته ماله، ويعطيها النصفين:

والله لا أمنحها شرارها وهى حصان قد كفتنى عارها[٢٢]

وهم يعجبون لهذا أيضا بالمرأة الطيبة المسمحة التى لا تتناولها الألسن، يقول الشنفرى:

أميمة لا يخزى نثاها حليلها إذا ذكر النسوان عفت وجلت

تحلى بمنجاة من اللوم – بيتها إذا ما بيوت بالملامة حلت[٢٣]

والعفة شرط من شروط السيادة، فهى كالشجاعة والكرم، لذلك كانت أحد أسباب ثلاثة فى تفضيل (بسطام بن قيس) على منافسيه، يقول صاحب (أخبار النساء):

''ومما فضل بسطام بن قيس على عامر بن الطفيل وعتبة ابن الحارث بن شهاب أن بسطاما كان فارسا عفيفا جوادا، وكان عتبة عفيفا بخيلا، وكان عامر فارسا جوادا عاهرا، فاجتمعت فى بسطام ثلاث خصال شريفة ففضلهما''[٢٤].

ولم تكن العفة حلية العاجزين أو فعلة المحرومين، وإنما كانت حلية الرجال، ومفخرة من مفاخر الأبطال، وهذا عنترة بن شداد يفخر بأنه لم يراود أنثى عن نفسها، بل يتزوجها من وليها. بمهرها، وبأنه يرى جاراته ويغشى دور جيرانه ما دام الرجال مقيمين، فإن سافروا للغزو كف عن التردد، وبأنه يغض نظره إن مرت به جارته، حتى يواريها بيتها[٢٥]:

ما استمت أنثى نفسها فى موطن حتى أوفى مهرها مولاها

أغشى فتاة الحى عند حليلها وإذا غزا فى الجيش لا أغشاها

وأغض طرفى ما بدت لى جارتى حتى يوارى جارتى مأواها

وأما عفة نسائهم فكانت مثلا أعلى، وهذا حديث هند بنت عتبة مع النبى ﷺ، على قصره، دليل على هذه العفة، فإن النبى ﷺ لما تلا على النساء قوله تعالى: ﴿ولا يسرقن ولا يزنين﴾، قالت: ما أقبحه حلالا، فكيف به حراما[٢٦].

وهؤلاء المتمدحون بالعفة، لابد أن يكونوا غيرا على النساء، وغيرة العربى مازالت مضرب الأمثال، ولذا قالوا: "كل شىء مَهَهٌ ما خلا النساء وذكرهن"، أى كل شىء سهل يحتمله الرجل إلا ذكر الحرم فانه يمتعض منه.

ورووا أن آكل المرار قتل امرأته هند لما سباها ابن الهبولة فى غيابه، فلما قدم تبعه وقتله وأنقذها منه، وربطها فى أذناب الخيل حتى تقطعت أوصالها، ولم يرض أن يمسكها بعد أن نال منها ابن الهبولة وطره[٢٧].

والحوادث الدالة على عفتها كثيرة، منها أن سهل بن مالك نزل ضيفا على أخت حارثة بن لأم - لأنه قصده فلم يجده- فأكرمته، ورأها جميلة، فوقع فى نفسه منها شىءفجلس بفناء الخباءيوما وجعل ينشد،

يا أخت خير البدو والحاضرة	كيف ترين فى فتى فزاره؟
أصبح يهوى حرة معــاطره	أياك أعنى وأسمعى ياجاره

فلما سمعت قوله عرفت أنه يعنيها، فقالت: ما يقول هذا ذو عقل أريب ولا رأى مصيب، ولا أنف نجيب، فأقم ما أقمت مكرما، ثم ارتحل متى شئت مسلما[٢٨].

وكان من أكبر المآثم عند العرب، أن يلتقى الرجل بفتاة فيبدؤها بالكلام أو يلقوا عليها السلام، وربما هاج ذلك شرا عقاما، وقد يكون من ذوى قرباها والراغبين فى خطبتها فتحول تحيته دونما ينبغى وفى ذلك يقول حميد بن ثور:

ومالى من ذنب إليهم علمته — سوى أننى قد قلت ياسرحة أسلمى

نعم فأسلمى ثم أسلمى ثمت أسلمى — ثلاث تحيات وأن لم تكلمى

وقد كف عنترة عن طلب عبلة جارية أبيه وسام نفسه البعد عنها، والحرمان من زواجها لأنه ذكرها فى شعره، حتى لا يثلم سنة العرب ولا يحل حرامهم[٢٩].

وهذا لايعنى أن نساء العرب كن جميعا على هذه الدرجة، وإنما كانت هناك – مثلما هو الأمر فى كل مجتمع – بعض منهن يمارسن البغا، ولكنهن كن قلة.

الكرم:

والكرم من السجايا التى نبتت فى الصحراء، ونمت نموا طبيعيا، واحتلت مكانة سامية فى نفوس العرب. وهو من الصفات التى ترشح صاحبها للسيادة والرئاسة وذلك لأن الحياة فى الصحراء – كما أشرنا إلى ذلك كثيرا – فيها قسوة عظيمة على قاطنيها، فكثيرا ما تشح السماء، وتجدب الأرض، ويلوح شبح الفاقة والجوع فى بعض أنحاء الجزيرة العربية، فإن لم يتقدم من عنده فضل من غنى وزاد لإنقاذ حياة سكان تلك البقاع المجدبة هلكوا جوعا. فعظَمَ العرب الكرم لأنهم جميعا معرضون لمثل تلك المحن التى تصيبهم بين آونة وأخرى، والتى لا يجدون لها حيلة إلا بتقدم ذوى اليسار والجود لإغاثتهم، فكأنهم بتعظيمهم الكرم، وتقديمهم الأسخياء للرياسة، إنما يدافعون عن كيانهم وحياتهم[٣٠].

ولقد عبرت غنية بنت عفيف أم حاتم الطائى فى ردها على من لامها على كرمها عن هذا المعنى، وهو أنها ذاقت الجوع مرة، فآلت على نفسها ألا ترد بعد اليوم جائعا، فقالت:

لعمرك قدما عضنى الجوع عضة — فآليت ألا أمنع الدهر جائعا

فقولا لهذا اللائمى اليوم أعفنى — وإن أنت لم تفعل فعض الأصابعا

هذا وقد كثرت الحروب بين العرب فى سبيل العيش، فاختلفوا على المرعى والماء، وزادت حرارة الصحراء فىحدة انفعالهم واستجابتهم لدواعى القتال، ولذلك تراهم مغيرين أو مغارا عليهم، وفى الغارات تتعرض نعمهم للنهب، فيفقدون بذلك المورد الذى يقوم بأودهم وينكبون فى مقومات حياتهم، فإن لم يسرع الكرماء لإصلاح حالهم تعرضوا للهلاك المبين.

وقد كانوا يجودون لأنهم يتلذذون بالجود، وصنع المعروف ويرون فى الكرم لذة لذاته، بغض النظر عن الثناء والحمد والذكر الحسن، وذلك بطبيعة الحال حين يصير الكرم عادة وجبلة لا يستطيع صاحبه إلا أن يكون كريما، على قولة حاتم الطائى:

وقائلة أهلكت بالجود مالنـا ونفسك حتى ضر نفسك جودها

فقلت دعينى إنما تلك عادتى لكل كريم عادة يستعيدهـــــا

ولقد قالوا: للمعروف خصال ثلاث: "تعجيله، وتيسيره، وتستيره، فمن أخل بواحدة، فقد بخس المعروف حقه، وسقط عنه شكره"[٣١].

ومن صنوف الحفاوة بالضيف أن يتلقاه المضيف ببشر وإيناس، ويتبسط معه فى الحديث، قالوا تمام الضيافة الطلاقة عند أول وهلة، وإطالة الحديث عند المؤاكلة، فقال عروة بن الورد العبسى أو عتبة ابن بجير:

فراشى فراش الضيف والبيت بيته ولم يلهنى عنـــه غزال مُقَنّع

أحدثه إن الحديـــث من القِرى وتعلم نفسى أنه سوف يهجع

وسخوا على الأرامل واليتامى والبائسين والسائلين، قالت إبنة وثيمة فى رثاء أبيها وثيمة بن عثمان أنه يهب المال التليد العزيز، ويجود إذا اشتد البرد وقل المطر واشتد القحط، ولم يجد الناس طعاما خير من هشيم، وهو فى هذا الجدب نادى الأرامل واليتامى[٣٢]:

والواهب المال التـــلا د لنا ويكفينــــا العظيمة

واحمرّ آفاق السمـــا	ء ولم تقع فى الأرض ديمه
وتعذر الآكال حتـــى	كان أحمدهـــا الهشيمة
لا ثلة تـــــرعى ولا	إبل ولا بقر مسيمـــــه
ألفيته مـــأوى الأرا	مل والمدفعة اليتيمـــــه

وهم كرماء فى كل وقت، ولكنهم يشيدون بالكرم إذا أجدبت الأرض وكفت السماء[٣٣]، لأنه كرم فى وقت تحرص النفوس فيه على البقاء والاحتفاظ بالمال، فهو كرم جدير بالثناء، قال مالك الهمذانى فى تعداد مناقبه:

ورابعة ألا أحجل قدْرنا	على لحمها حين الشتاء لنشبعا

ولم تكن مفخرة العربى بأن يقدم لضيفه طعاما عظيما لتزيد على مفخرته بأنه جاد بأنفس ما يملك، وقد علمنا أن حاتما و(كعبا) و(هرما) لم يجعلوا أمثالا فى الجود لعظم عطياتهم فى القدر، لأن الواحد منهم إنما كان يقى ضيفا أو يهب بعيرا أو عددا من الشاء قليلا، ولكن ذهب صيتهم فى السماح، وبعد ذكرهم فى الجود لأنهم كانوا يعطون وهم محتاجون، وينيلون وهم مختلون، وكان عطاء الرشيد والبرامكة والمأمون فى اليوم الواحد أكثر من جميع ما أعطاه أولئك فى جميع أيامهم، ولم يضرب بواحد من هؤلاء المثل كما ضرب بأولئك[٣٤].

عبية الجاهلى:

العبية، الكبر والفخر، وفى الحديث: "أن الله وضع عنكم عبية الجاهلية وتعظمها بآياتها"، يعنى الكبر[٣٥].

ونظرا إلى ما للبداوة من فقر وقسوة وغلظ فى المعاش، ومن ضيق أفق فى المدارك وقصر نظر فى شئون هذا العالم الخارجى، وفى فهم الحياة، نظر العربى إلى الأعرابى نظرة استجهال وازدراء، ونظر إلى نفسه نظرة فيها علو واستعلاء فورد أن الأعرابى، إذا قيل له: يا عربى، فرح بذلك ودهش له، والعربى إذا قيل له: يا أعرابى، غضب

له[٣٦]! لما بين الحياتين من فروق وتضاد، فقد جبلت البادية أبناءها على أن يكونوا غرباء عن العالم الحضر، وعن عقلية أهل القرى والمدن متغطرسين مغرورين على فقرهم وفقر من يحيط بهم، فخورين بأنفسهم إلى حد الزهو والإعجاب والخروج عن الحد فكانوا إذا تكلموا رفعوا أصواتهم، وظهرت الخشونة فى كلماتهم، وإذا تعاملوا مع غيرهم، ظهر الحذر عليهم، خشية الغدر بهم، ولهذا قال الحضر: (أعرابى جلف)، أى جاف[٣٧] وفى الحديث (من بدا جفا) أى غلظ طبعه، لقلة مخالطة الناس[٣٨].

أنه حاصل هذا المحيط الذى ولد فيه وعاش، والظروف التى ألمت به، فعزلته عن العالم الخارجى، وأبعدته عن التمتع بتنوع مظاهر الطبيعة وبتغيرها فلم ير الثلج فى حياته وهو يتساقط من السماء، ولم يتعود على رؤية الأمطار الموسمية حتى يستفيد منها فى استغلال أرضه ولم تعطه الطبيعة أنهارا ومياها جاريا.

ووصف الأعرابى بالجهل، بل بالجهل المطبق، فهو وثنى، ولكن لا يفهم شيئا من أمور الوثنية، وهو نصرانى، لكنه نصرانى بالاسم لا يعرف عن النصرانية فى الغالب شيئا.

وهو حقود، لا يرى أن يغفر ذنب من أساء إليه، بل يظل فى نفسه حاقدا عليه حتى يأخذ بثأره منه. قيل لأعرابى أيسرك أن تدخل الجنة ولا تسىء إلى من أساء إليك؟ فقال: بل يسرنى أن أدرك الثأر وأدخل النار[٣٩].

الوفاء بالوعد:

كذلك كان للطبيعة أثرا وضاحا فى إكساب العربى صفة (الوفاء بالوعد) فهم قوم رحل ليس لهم حكومة منظمة، ولا قوانين مرسومة، ولا قوة منفذة، ولا محاكم ولا شرطة، ولذلك كانت كلمة الشرف، والوعد الصادق، هى القانون الذى يقدسه كل عربى ويحرص على

احترامه والخضوع لـه حرصـا علـى مصلحتـه الخاصـة وعلـى العدالـة العامة فى المجتمع، وفى ذلك يقول هيرودوت "ليس ثمة قوم يحـافظون على إيمانهم مثل العرب"[٤٠].

وكان العربى يخشى أن يعرف بالغدر، وتشيع عنه الخلـة بيـن قومـه وبين سواهم من القبائل، لأن الغدر ونقض العهد، وإخلال الوعد، يجعله رجلا لا يعتمد عليه فى النائبات، فيهمله قومه، ويتحاشاه طلاب الغوث والنجدة، وينفر منـه أعداؤه وأصدقاؤه. ولقد بلـغ مـن كراهيـة العـرب لهؤلاء الذيـن يغدرون وينقضـون المواثيـق، ولا يوفـون بـالعهود أن يشـهروا بهم فـى سوق عكـاظ، فيرفعون لهم ألويـة ليعرفهـم النـاس بغدرهم، فلا يعاملونهم، ويكون هذا تأديبا لهم وعظة لسواهم، وفى ذلـك يقول قطبة أوس ينفى عن نفسه وعـن قومـه الغدر، ويفخـر بـأنهم قـوم أوفياء:

اسمى ويحك هل سمعت بغدرة ... رفع اللواء لنـــا بها فى جمع

إنا نعف فلا نريب حليفنـــا ... ونكف شح نفوسنا فى المطمع

وقصة المعلى الطائى مـع امرئ القيس قصـة مشـهورة فـى تـاريخ الأدب العربى، فقد كان المنـذر ملـك الحيرة يلاحـق امرأ القيـس وهـو يسعى لادراك ثأر أبيه، وبينما هو كذلك ذات مرة إذ التجأ إلى المعلـى، وعلـم المنـذر بملجئـه وأراد أخـذه منـه عنـوة، وقـد كـان المعلـى غائبـا، فأدخله ابنه قبة حريمه، ونادى فى قومه، فقاموا دونه ومنعوه منه، فقـال امروء القيس يشكر للمعلى وقومه أياديهم عليه[٤١]:

كأنى إذْ نزلـــت على المعلى ... فزلت على البيوازخ من شَمام

فمـــا ملك العراق على المعلى ... بمقتدر ولا ملك الشــــام

أقرّ حَشى امرئ القيس بن حُجر ... بنو تميم مصابيح الظـــــلام

وقصة وفاء السموأل بن عاد صاحب الأبلق الفرد فـى تيمـاء بـأدرع إمرئ القيس لما استودعه إياها وذهب إلى قيصر يسـتنصره فـى قضيـة مقتل والده، أشهر قصة وفـاء فـى التـاريخ الجـاهلى، فبعد مـوت إمـرؤ

القيس طلب الملك الغسانى، الحارث بن أبى شمر الأدرع من السموأل، فأبى وكان الملك قد أخذه إبنا له كان قد خرج للصيد رهينة وهدده بقتله إن لم يعطه ما سأله فأصر السموأل على موقفه وإختار قتل إبنه على خيانة مؤتمنه وقال فى ذلك:

وفيت بأدرع الكنــدى إلى	إذا ما ذم أقـــوام وفيت
وأوصى عاديا يومـــا بألا	تهدم ياسموأل مـــا بنيت
بنى لى عاديا حصينـــا	ومـــاء كلما شئت استقيت

عشق الحرية:

والعربى مجبول على الحرية، وهو لا يطيق الخضوع لأحد غير قبيلته، على أن لا يؤثر ذلك فى حريته الشخصية، وقد أعجب هيرودوت وغيره من كتبة اليونان والرومان بحب العرب للحرية ولمقاومتهم للاسترقاق، فذكروا أنهم كانوا الشعب الوحيد من بين الشعوب الآسيوية الذى لم يخضع لحكم الفرس، فلم يتمكن ملوك الفرس من استعبادهم، وإنما اضطروا إلى معاملتهم معاملة أصدقاء حلفاء، فقاموا لهم بخدمات جليلة سهلت لهم فتح مصر – كما أشرنا من قبل – ولو كان العرب حربا على الفرس، لما تمكنوا قط من حملتهم على مصر[٤٢].

ولما كان لكل شىء حد ونهاية، غدت هذه الحرية أنانية فى بعض الأحوال وفردية شديدة حالت دون تعاون الأفراد، ومنعت مساعدة القبائل بعضها ببعض مع وجود خطر أجنبى داهم، وحالت دون تكون المجتمعات الكبرى، وهى الحكومات، واقتصرت التنظيمات السياسية على القبائل وأصبحت العصبية للقبيلة تعنى القومية، وزاد فى حدة هذه الأنانية القبلية، اعتقادهم بالرابطة الدموية التى تربط الأسر بالعشائر، والعشائر بالقبائل.

وفى الأدبين الجاهلى والإسلامى، أمثلة عديدة سارت بين الناس تمثل هذه النظرة الضيقة إلى الحياة، ورد فى الحديث عن أبى هريرة أنه قال "قام رسول الله ﷺ إلى الصلاة، وقمنا معه، فقال أعرابى فى الصلاة: اللهم ارحمنى ومحمدا ولا ترحم معنا أحدا!!"(٤٣)، فقدم نفسه على الرسول مع أنه مسلم يحمل دينه وأدبه، أدب الإسلام على تقديم الرسول عليه، ثم أنه لم يختص أحدا بالرحمة غير الرسول وغير نفسه مدفوعا بهذه الأنانية القبيحة، وكثيرا ما ترى الناس يتمثلون قول أبى فراس: (إذا مت ظمآنا فلا نزل القطر)!

وقد اشتهر فتك عمرو بن كلثوم بعمرو بن هند لأنه بغى وتملكه الزهو، وأراد الأخباريون أن يصوروا كبره، فقالوا: أن أمه استعلت على ليلى أم عمروابن كلثوم، فثار ووثب إلى سيف ضرب به رأس عمرو بن هند، وكانت هذه الحادثة سبب قول معلقته الملينة بالفخرالتى يقول فيها(٤٤):

بأى مشيئة عمرو بن هنـــد	تطيع بنا الوشاة وتزدرينـا؟
فإن قناتنا يا عمرو أعيــت	على الأعداء قبلك أن تلينا
ونحن التاركون لـما سخطنا	ونحن الآخذون لما رضينـا
إذا ما الملك سام الناس خسفا	أبينا أن نقر الذل فينـا

ولم يكفهم التفاخر بالقوة والشجاعة والبأس على أنه بين أفراد أو قبائل، بل أبوا إلا أن يفخروا بتعاليهم على الملوك، فهذا جابر بن حنى التغلبى يوبخ الملوك الذين لا يستحقون منهم ويتقون محارمهم، مخافة أن ينتقموا منهم، ويقول: إنهم يسالمون الملوك ما سالموهم وما عدلوا، ولكنهم يقتلونهم إذا جاروا، وليس قتل الملوك عندهم حراما ولا محالا، وهم بهذه الصورة أنداد الملوك ونظراؤهم، وطالما أنزلوا الحتف بالملوك الذين احتقروا قوتهم ولم يحسنوا السيرة:

ألا تستحى منـا ملوك وتتقى	محارمنـا، لا يبوء الدم بالدم
نعاطى الملوك السلم ما قصدوا بنا	وليس علينـا قتلهم بمحرم(٤٥)

والعربى أبىّ، يؤثر المـــوت على حيـاة الذلـة، قـال المتلمـس الضبعى:

لا تأخذن ضيما ولا تقبل ضُئولة ومونن بهـا حرا وجلدك أملس[٤٦]

يقول (لامانس): "أن العربى نموذج الديمقراطية، ولكنها ديمقراطيـة مبالغ فيها إلى حد بعيد، وأن ثورته على كل سلطة تحاول أن تحد مـن حريته ولو كانت فى مصلحته – هى السر الذى يفسر لنا سلسلة الجرائم والخيانات التى شغلت أكبر جزء فى تاريخ العرب، وجهل هذا السر هو الذى قاد الأوربيين فى أيامنا هذه إلى كثير من الأخطاء، وحملتهم كثيرا من الضحايا كان يمكنهم الاستغناء عنها. وصعوبة قيـادة العرب وعـدم خضوعهم للسلطة هى التى تحول بينهم وبيـن سيرهم فـى سـبيل الحضـارة الغربيـة، ويبلـغ حب العربى لحريتـه مبلغـا كبيرا حتـى إذا حاولت أن تحدها أو تنقص من أطرافها هـاج، كأنـه وحش فـى قفص وثار ثورة جنونية لتحطيم أغلاله والعودة إلى حريته، ولكن العربى مـن ناحية أخرى مخلص مطيع لتقاليد قبيلته"[٤٧].

ويتجلى عشق العربى للحرية، من تلك الكراهيـة العنيفـة مـن النسـاء لما يمكن أن يحدث لهن من سبى، لأن فى سبيها إذلالا لها، وقسرا على معيشة لا ترضاها مهما تكن معززة مكرمة، إنها إذا هزم قومها، تـبرز مكشوفة سافرة ليحسبها الغالبون أمة فيخلوها لأنها تعلـم أنهـم يقصـدون الحرائر ويريدونهن، وإذا وقعت الواقعة وفجعت المرأة بالسبى سـخطت على قومها الذين تركوها تؤسر، وعيرتهم ضعفهم وجبنهم وقـد أبـت (حسينة بنت جابر العجلى) أن تعود إلى زوجها ابن عمها لأنـه فرّعنهـا وتركها تسبى[٤٨].

الجدية والصرامة:

والعربى رجل صارم لا يميل إلـى هزل ودعابـة، فليس مـن طبـع الرجل أن يكون صاحب هزل ودعابة لأنها من مظاهر الخفة والحمـق، ولا يليق بـالرجل أن يكـون خفيفـا. ولهذا حذر فـى كلامـه وتشدد فـى

مجلسه، وقل فى مجتمعه الإسفاف وإذا كان مجلس عام أو مجلس سيد قبيلة، روعى فيه الاحتشام والابتعاد عن قول السخف، والاستهزاء بالآخرين، وإلقاء النكات والضحكات، حرمة لآداب المجالس ومكانة الرجال[٤٩].

وإذا وجدوا فى رجل دعابة أو ميلا للضحك أو إضحاك، عابوا ذلك الرجل وانتقصوا من شأنه كائنا من كان. وعبارة مثل (لا عيب فيه غير أن به دعابة) أو (لاعيب فيه إلا أن فيه دعابة)، هى من العبارات التى تعبر عن الانتقاص والهمز واللمز.

لعب الميسر وشرب الخمر:

كان الحجازيون فى الجاهلية - كالعرب عامة مولعين بشرب الخمر لتزيدهم شجاعة وجرأة وحماسة وحمية فى الحرب، ولينتقلوا بها الى عالم خيالى ملىء بالصور المبهجة والأحلام الجميلة فرارامن الواقع المر[٥٠]

وقد أولع بشربها الحضر والبدو على السواء، واشتهرت الطائف منذ عهد بعيد بكرومها وكان بها حانات كثيرا ما يُهزج فيها بالغناء، على أن طائفة من عقلاء العرب قد حرموا الخمر فى الجاهلية تكرما وصيانة لأنفسهم، ومن الحجازيين من آلوا على أنفسهم ألا يشربوها ومنهم عامر بن الظرب، ومنهم صفوان بن أمية الكنانى الذى أقسم على نفسه ألا يشربها طيلة حياته، ولا يشفى بها سقيما أبدا، حيث يقول[٥١]

رأيت الخمر صالحة وفيها	مناقب تفسد الرجل الكريما
فلا والله أشربها حياتى	ولا أشفى بها أبدا سقيما

وكانت هذه من العادات الشائعة بين عدد غير قليل من عرب الجاهلية، وكانت طريقتهم فى لعب الميسر أن تقسم الجذور إلى عشرة: أجزاء، لكل جزء قدح أعلاها المعلى، وأدناها الوغد، والميسر سبيل

من سبل إظهار الكرم. ثم أن تحريم القرآن الكريم للميسر بقوله: ﴿يسألونك عن الخمر والميسر، قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس، وإثمهما أكبر من نفعهما﴾[٥٢]، و﴿إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة﴾[٥٣] يدل على مدى انتشار هذه الآفة الاجتماعية، وكذلك المبالغة فى شرب الخمر، وهى فى الأصل من عوامل المباهاة وإظهار الغنى وعدم المبالاة بالإسراف بهما[٥٤].

وهذا يفسر أيضا شيوع الحديث عن الخمر فى الشعر الجاهلى، ومن أشهر من يمكن أن نجد لديهم مثل هذا الحديث: (الأعشى)، إذ نجدها فى قائمة كثير من قصائده تالية لبعض غزله، ونحس كأنها لذته من الدنيا، فهو يطيل الحديث عنها وعن تأثيرها فى نفوس شاربها وكأنه يقدسها تقديسا، فهى وثنه وصنمه. وهو يجيد وصفها إجادة لفتت القدماء إليه، فقالوا أنه أشعر الجاهليين إذا شرب، يقصدون إذا شرب الخمر ووصفها وهو وصف يفيض بالحيوية إذ يجسم فيه بيئتها ومجالسها، وما ينثر فيها من الورود والرياحيين وما يقدم فيها من السقاة والمغنيين والإماء الخليعات اللاتى يلبسن الشفوف الرقيقة وما يضرب عليه العازفون من آلات طرب[٥٥].

الخلق التجارى:

فنظرا لقيام الحياة العربية القديمة على العمل التجارى بالذات، اتسم عرب الحضر خاصة بما يمكن أن نسميه (الخلق التجارى) وهم يتباينون فى ذلك بتباين أماكنهم، فأهل القصيم والزلفى وشقرا، أنشط من أهل نجد فى التجارة، فقوافلهم تقصد سائر الجهات العربية، وتجارهم كثيرا ما يسافرون إلى الهند ومصر فى سبيل التجارة، والتجار النجديون المعروفون فى الهند ومصر والعراق من أهل هذه البلاد. أما أهل الكويت فنشاطهم فى التجارة البحرية، ويغلب على

حضر الجزيرة، وعلى الأخص، أهل خليج فارس، التعاون التجارى سواء بين الأهالى بعضهم مع بعض أو بين الأمراء والأهالى(٥٦).

والخلق التجارى سبق أن أشرنا إلى عديد من مفرداته فى الصفحات السابقة من حيث ضرورة (الأمانة) و (الجدية) و(طرق التعامل مع الناس)، والوفاء بالوعد وهكذا.

وبعد...

إلى أى حد استطعنا أن نقدم فى الفصول السابقة (صورة) للتربية العربية فى العصر الجاهلى؟ بطبيعة الحال نحن لا نملك الإجابة عن السؤال، ولكنا فقط نملك القول أنه نظرا إلى أن هذه الدراسة قد ارتادت هذا المجال (الوعر) البكر بالنسبة للدراسات التربوية لأول مرة على وجه التقريب، فلن يسلم الأمر من ثغرات نرجو أن تنهض بحوث أخرى لسدها وإكمال المسيرة.

هوامش الفصل العاشر

١- الشهرستانى، الملل والنحل.
٢- احمد أمين: فجر الإسلام، ص ٤٢.
٣- المرجع السابق. ص ٤٣.
٤- عمر الدسوقى: الفتوة عند العرب. دار نهضة مصر، القاهرة
٥- المرجع السابق، ص ٣١.
٦- جضنا: حدنا عن الموت.
٧- البيض: السيوف. الصياقل: صيقل، صانع السيف.
٨- شوقى ضيف، العصر الجاهلى، ص٣٦٦.
٩- المرجع السابق، ص٣٧٠.
١٠- المرجع السابق، الحتوف: المتالف. المنهل: المورد. أقنى: احفظى وصونى.
١١- المفصل،ح ٤، ص٣٩٩.
١٢- بلاشير، تاريخ الأدب العربى، ص٣٩.
١٣- الحياة العربية فى الشعر الجاهلى، ص٢٧٧.
١٤- المرجع السابق، ص٢٧٨. ١٥- المرجع السابق، ص٢٨٢.
١٦- المرجع السابق، ص٢٨٣.
١٧- أحمد الشريف: مكة والمدينة، ص٥٣.
١٨- ابن هشام، جـ١، ص٣٧١، وما بعدها.
١٩- المرجع السابق، جـ٣، ص٣٧، ٣٨.
٢٠- ابن الأثير، جـ١، ص٣١٠ وما بعدها.
٢١- المرأة فى الشعر الجاهلى، ص٣٥٦.
٢٢- الجاحظ، المحاسن والأضداد، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٣٣٠هـ (١٩١٢)، ص١٤٣.
٢٣- الأغانى، جـ٢١، ص١٨٦، ١٨٧. النثا: الحديث، يريد أن حديثها عن زوجها دائما بالخير, تحل بيته: تنزله.
٢٤- أحمد الحوفى، الحياة العربية من الشعر الجاهلى، ص٣٦٣.
٢٥- المرجع السابق، ص٣٦٤. ٢٦- المرجع السابق، ص٣٦٥.
٢٧- المرجع السابق، ص٣٦٦.
٢٨- الميدانى، مجمع الأمثال، جـ١، ص٤٣.
٢٩- بلوغ الإرب، جـ١، ص١٤٢.
٣٠- الفتوة عند العرب، ص٥٩.
٣١- العقد الفريد، جـ١، ص٦٥.
٣٢- أحمد الحوفى، الحياة العربية، ص٣١٢.
٣٣- المرجع السابق، ص٣١٢. ٣٤- المرجع السابق، ص٣١٦.

٣٥- المفصل، جـ٤، ص٢٩٢.
٣٦- لسان العرب، جـ١، ص٥٨٦، (عرب).
٣٧- تاج العروس، جـ٦، ص٦٠(جلف).
٣٨- المصدر السابق، جـ٦، ص٧٤ (جفا).
٣٩- نهاية الإرب، جـ٦، ص٦٧.
٤٠- الفتوة عند العرب، ص١١٦.
٤١- على العتوم، ص٣٥٩، البواذخ، جمع باذخ: وشمام: اسم جبل، أى ذراه وقمته.
٤٢- المفصل، جـ٤، ص٤٠٨.
٤٣- سنن أبى داود، جـ١، ص٨٩.
٤٤- أحمد الحوفى، الحياة العربية من الشعر الجاهلى، ص٣٥٤.
٤٥- المرجع السابق، ص٣٥٦.
٤٦- المرجع السابق، ص٣٥٧.
٤٧- فجر الإسلام، ص٣٤.
٤٨- المرأة فى الشعر الجاهلى، ص٤٧٨ وما بعدها.
٤٩- المفصل، جـ١، ص٢٧٧.
٥٠- قصة الأدب فى الحجاز، ص٤٨٣.
٥١- المرجع السابق، ص٤٨٤.
٥٢- البقرة/٢١٩.
٥٣- المائدة/٩١.
٥٤- بلاشير، تاريخ الأدب العربى، ص٤٢.
٥٥- شوقى ضيف، العصر الجاهلى، ص٣٥٥.
٥٦- حافظ وهبه: جزيرة العرب فى القرن العشرين، ص٨.